شهادة العصر والتاريخ

خمسون عاماً على طريق الدعوة الإسلامية

تأليف

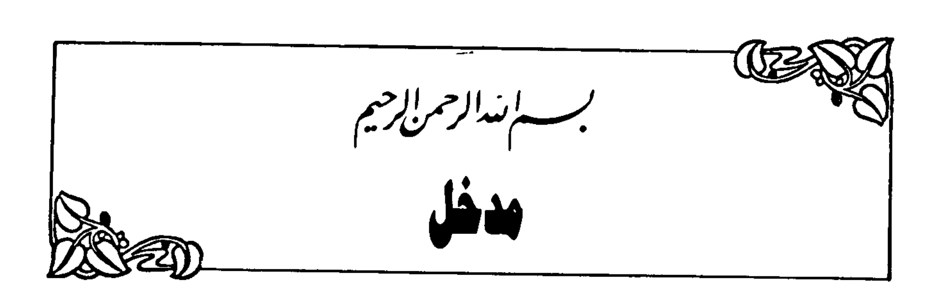
أنور الجندي

دار المنارة
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

دار المنارة هاتف: ٦٦٠٣٦٥٢ - فاكس: ٦٦٠٣٢٣٨ - المستودع: ٦٦٧٥٨٦٤
جدة ٢١٤٣١ - ص.ب: ١٢٥٠ - المملكة العربية السعودية



مدخل

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

أراني وقد تجاوزت السبعين من العمر، وقد أوفيت على الغاية، واقتربت من النهاية أن أمانتي للإسلام والدعوة الإسلامية أن أقدّم ما أريد أن أقول لقومي ولأهل أمتي ولشباب الأمة الإسلامية الذين كتبوا لي راغبين في معرفة الطريق الذي سلكه كاتب مسلم آمن بأنّ العلم أمانة وأنه مسئول عن ما خطّه خلال أكثر من خمسين عاماً على طريق الدعوة الإسلامية.

والحقيقة أنني أحسست بهذا الخطر الذي يحيط بالإسلام والقرآن وتاريخ الإسلام واللغة العربية وتكشفت لي أبعاد هذه المؤامرة الخطيرة التي بدأها مخطط عنوانه (حرب الكلمة) وذلك بعد هزيمة الغرب في الحروب الصليبية، في دعوة عريضة للعمل على إعلان حرب تقوم على تزييف مفاهيم الإسلام وتدمير قِيَمِهِ وذلك عن طريق التأويل والتمويه في محاولة لإخراج الإسلام من ذاتيته الخاصة وتميزه المتفرد بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع، وخلق تصور نابض يتمثل في مفهوم لاهوتي يقصر الإسلام على العبادة وحدها ويحجب دوره الأصيل في بناء منهج متكامل قوامه السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية في نسق متكامل جامع لا يحتاج معه المسلمون إلى أيّة دعوات وافدة قوامها القومية والعلمانية والماركسية، ومن خلال تراث زائف يراد إحيائه في مجال الفكر الباطني واليوناني والإباحي والفلسفات المادية.

وكان قوام دعوة الإسلام، العودة إلى المنابع والتماس مفهوم الإسلام الأصيل قبل ظهور الخلاف ومن خلال تصور قرآني نبوي متحرر تماماً عن مصطلحات الفلسفة والتصور الفلسفي ومفاهيم علم الكلام والاعتزال. ويقوم أساساً على التوحيد الخالص.

وما تزال الكلمة الأولى هي الكلمة الأخيرة.

هذا وطن الإسلام الذي سرق منه واستولى عليه الاستعمار وحاصر دينه وعقيدته في مؤامرة ضخمة لهدمها وتحويل هذه الأمة إلى عبودية الأممية والخضوع للحضارة الغربية والانصهار في المجتمع العالمي المادي العلماني الذي مرق من العبودية لله تبارك وتعالى منكراً هذه الرابطة متحللاً منها داعياً إلى نقضها في الزيغ عن الحق والخروج عن سنن الله تبارك وتعالى.

وبالرغم من مرور أكثر من مائة وخمسين عاماً على الوطن الإسلامي وهو محاصر في دائرة النفوذ الأجنبي بشكل أو بآخر فإنه مهما بدا إنه حر في حركته فهو مقيد محاصر، وثرواته ومقدراته مصادرة، مغّرب شبابه ورجاله حيث تحاول أن تحتويه دعوات الماركسية والليبرالية والفرعونية والقومية والعلمانية في محاولة مستميتة لفصله عن عقيدته ولتحطيم وحدته الكبرى ليظل ممزقاً ذليلاً.

وقد عايشنا هذه اليقظة خلال خمسين عاماً في تناميها وامتدادها، وانتقالها إلى الصحوة في طريقها إلى النهضة.

حيث خرجنا من مرحلة الرد على الشبهات وكشف زيف المؤامرات إلى مرحلة بناء القواعد من خلال أسلمة العلوم والمناهج وتقديم البدائل المستمدة من القرآن الكريم والسنة المطهرة وصولاً إلى التأصيل الإسلامي للفكر المعاصر.

لقد مضت اليقظة دائبة على تحرير الفكر الإسلامي من قيوده، في مهمة تكاتفت فيها جهود الأبرار من أعلام الإسلام، وقد خطونا مع العاملين في ذلك خطوات واسعة غير أن كثافة رد الفعل ومضاعفة النفوذ الغربي لعمليات التغريب والتقدم الفكري ما تزال تحول دون الغاية.

ويأتي ذلك الخطر عن طريق التعليم والثقافة والصحافة، مما يتطلب منا تذكر الغاية الأساسية والاستماتة في سبيلها وهي حماية أمتنا من الخطر في سبيل التماس منهجنا الأصيل ويجب أن نكون على ثقة كاملة لا حد لها بصدق ما ندعو إليه وما نؤمن به وهو أننا على الحق وأن ديننا الإسلام، بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع هو أمل البشرية الوحيد الباقي ومهما أظلمت الحياة وتبين أن الباطل قد استشرى فإن ذلك إلى زوال قريب وأنها ليست إلا مرحلة قصيرة تستلزم منا الثبات والصبر والتمسك باليقين الحق وعلينا أن نكون على وعي بالتيارات البراقة الغامضة وعلى حذر منها وأن تكون مهمتنا واضحة صافية بيضاء كفلق الصبح ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ﴾.

لقد تحركت الدعوة الإسلامية من مرحلة اليقظة إلى مرحلة الصحوة في الطريق إلى النهضة وهي الآن تقوم بإعداد مناهج البناء وتقرر الأسس التي يتم عليها ترشيد الصحوة.

ولقد كان عطاء الدعوة الإسلامية كبيراً، ليس في مجال كشف الشبهات التي قدمها الفكر الغربي فحسب وإنما كان وافراً من حيث إحياء التراث الإسلامي في جميع مجالاته والكشف عن الدور الذي قام به المسلمون لبناء الحضارة الإنسانية، أضف إلى ذلك الأعمال الكبرى في مجال الشريعة والقانون والنظريات السياسية ومنهج الإسلام في بناء المجتمع والتربية.

ومن هذا المنطلق أجابت الدعوة الإسلامية: هل يكون الكاتب مرآة عصره أم موجه عصره، فكشفت حقيقة الإسلام في أنه كان على مدى أربعة عشر قرناً موجهاً للمجتمعات البشرية وليس مبرراً لانحرافها وفسادها.

كذلك كان الإسلام قادراً على التماس طريق تصحيح المفاهيم والوصول إلى الحق عندما ينحرف الطريق بالمسلمين وكان دائماً قادراً على الابتعاث من داخله وغير متقبل للجسم الغريب.

ولقد أعيد فتح باب الجهاد على الساحة الإسلامية في عشرات المواقع

في مقدمتها الثورة الجزائرية والعاشر من رمضان وفتح وحماس وجهاد أفغانستان وثورة الأقطار الإسلامية على النفوذ الأجنبي منذ مطالع القرن الماضي وهو اليوم في طريقه إلى امتلاك الإرادة وتحرير الهوية.

ولقد بدأ التحول إلى المنهج الأصيل عندما تكشفت الحقائق أمام الكاتب حول القومية والاشتراكية والعلمانية كما كشفت دور السلطان عبدالحميد والدولة العثمانية ومؤامرة تحرير المرأة، ومن هنا كان عجب الذين يطالبون الدعوة الإسلامية بالانصهار في حركة الجيش وغفلتهم إذ كيف يمكن للمؤقت أن يستحوذ على الثابت الأصيل وكيف يمكن صهر العمل الكثير المحقق من رسالة محمد ﷺ في العمل المؤقت الذي يغلب عليه طابع المطامع الفردية.

وقد جاء سقوط الشيوعية ليكشف أمام الشباب المسلم مدى عجز الأيدلوجيات البشرية أمام الحق والفطرة والدين الحق وليس هذا السقوط إلا مقدمة لسقوط الفلسفة المادية، والعلمانية والمناهج البشرية التي كشفت الدعوة الإسلامية فسادها من خلال هدم نظريات دارون وماركس وفرويد وسارتر ودوركايم وغيرهم.

ويبقى أمامنا الخطر الماثل الذي يحتاج إلى عمل كثير.

خطر الصهيونية الذي يتمدد الآن ويدعو إلى دولة من النيل إلى الفرات وبناء هيكل سليمان ونحن مطالبون بأن نواجه الخطر ونعمل على تحرير بيت المقدس وستبقى هذه القضية أمانة في رقاب المسلمين حتى ينهدم هذا الجسر ويتحرر الوطن الإسلامي وتعود إليه وحدته القائمة على شريعته ومنهجه الرباني وسوف لا يتوقف الجهاد فإن كتائب الإسلام تظل في رباط إلى يوم القيامة.

هذا وبالله التوفيق

القاهرة/ربيع الثاني ١٤١٣

أنور الجندي

سهم في سبيل الله

من أنت:

أنا محام في قضية الحكم بكتاب الله ما زلت موكلاً فيها منذ بعض وأربعين سنة منذ رفع هذه القضية الإمام الذي استشهد في سبيلها قبل خمسين عاماً للناس حيث أعد لها الدفوع وأقدم المذكرات بتكليف بعقد وبيعة إلى الحق تبارك وتعالى وعهد على بيع النفس لله، والجنة سلعة الله الغالية هي الثمن لهذا التكليف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾.

* * *

— ١ —

إنني محام: للدفاع عن ميراث هذه الأمة.

إنني محام: لتصحيح المفاهيم وكشف الزيف والشبهات عن فكر الإسلام.

إنني محام: للدعوة إلى الله ونشر كلمة لا إله إلا الله في العالمين، إن المسئولية ضخمة والمهمة شاقة وهي تستغرق كل الوقت وكل العمر وما مكنني ربي فيه خير، سلاحي القلم أرسل به القذائف على معسكر العدو وأسأل الله أن أموت مجاهد الكلمة شهيد الحق.

وما زلت منذ حملت هذه الأمانة وأنا أحس أن هناك «جذوة» متقدة في أعماق النفس وتحدياً قائماً لا يتوقف ولا يفتر، لقد كانت آمال وأحلام وأماني لأناس كثيرين، غابت ثم عادت واطمأنت النفوس واستسلمت للرضا

بالواقع، أما صاحب أمانة الدعوة الإسلامية فإنه ما زال قائماً بها لا يستنيم ولا يهدأ ولا يحس بالرضا عن النفس أو بأنه ألقى حمله الثقيل أو تخفف منه ولا ريب أن الكاتب المسلم مقاتل يحمل القذيفة كل ليلة بعد أن يعدّها ليلقيها على معسكر العدو، يعدّها بالليل فإذا أصبح الصباح أطلقها وصدق رسول الله ﷺ: «ألا أن القوة الرمي، ألا أن القوة الرمي».

وهو إلى ذلك مكلف بإضاءة الطريق أمام الإنسانية لتعرف ربها، لتعرف طريق الخلق إلى الحق.

هذا الكاتب المسلم هو الإنسان الرباني صاحب الرسالة: ما أبعد الفرق بينه وبين إنسان لا يرى ما تحت قدميه، أما هو فيتطلع إلى الآفاق الواسعة والنظرة البعيدة. ما أبعد الفرق بين إنسان في سباق مع الزمن وإنسان خامد النفس لا يشغله شيء ويرضى بما هو فيه كأنه غاية ما يرجو، ما أبعد الفارق بين إنسان تسمو مطامعه إلى الآمال الكبيرة وبين إنسان يتوقف عند المطامع الصغيرة، الآمال التي تدخل بها الأمة الإسلامية مرحلة التمكين فيرضى عنها ربها ويصرف عنها بأسه وغضبه فيطعمون من الطيبات، وتفتح عليهم بركات من السماء.

- ٢ -

إنني مدين بتكويني الفكري إلى القرآن والسنة، الإسلام بمفهومه الأصيل كما كشف عنه الأستاذ الإمام حسن البنا بما فهم الأوائل فيه عودة إلى المنابع.

إن الأفكار التي اجتذبتني إليه، كانت ولا تزال قضية (الغزو الثقافي والتغريب) التي أراها كبرى قضايا العصر وأولى تحديات النفوذ الأجنبي حيث تفنى أعمار المفكرين في هذا الجيل في سبيل تصحيح المفاهيم وتحرير القيم والكشف عن الزيوف والسموم المثارة والمطروح في أفق الفكر الإسلامي يوماً بعد يوم عن طريق الاستشراق الغربي والماركسي والصهيوني على اختلاف مطامعه وأهوائه وغاياته التي ترمي في مجموعها إلى القضاء على الهوية الإسلامية والذاتية الخاصة للمسلمين التي أقامها الإسلام ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ

أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ ﴾ حتى لا يذوب المسلمون في أتون العالمية أو الأمية التي تجعل منهم أشبه بالقطيع العام وتحول بينهم وبين ظاهرة التميز الخاصة التي أعطاهم الإسلام حين جعلهم في الناس شامة وجعلهم أمة وسطاً خالصة الوجهة لله تبارك وتعالى تحمل لواءه بين الأمم وتدعو إليه إلى يوم القيامة، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتقيم الدين وتبني المجتمع الرباني الخالص.

إن هدف التغريب والنفوذ الأجنبي هو أن يضعهم في الدائرة المغلقة، فماذا عليهم لو كسروا الدائرة المغلقة وخرجوا إلى العالم الواسع العريض.

ـ ٣ ـ

لم أصل إلى الفكرة الإسلامية الجامعة إلا بعد دراسة الحركات الوطنية القومية وتتبع أصولها فقد انكشف لي أنها ليست قائمة بنفسها وأنها ذات جذور أبعد يجب تقصيها حتى نصل إلى الأصل. ولقد صدق (ولفرد كانول سميث) حين يقول ـ هو و(روجيه جارودي) ـ: إن الإسلام هو المظلة الحقيقية التي انبعثت منها الحركات الوطنية وحركات المقاومة، مهما غلفها الزعماء بلون إقليمي ولكنها كانت في صميم وجدان الشعوب دفاعاً سوياً عن العرض والأرض. إن أول من حرّف مفهوم الكفاح الوطني وأخرجه من إطار الجهاد الإسلامي في بلادنا هو سعد زغلول أما قبل ذلك فقد كان الحزب الوطني يكافح كفاحاً وطنياً في إطار مفهوم إسلامي، وكان الارتباط بالدولة العثمانية ـ هو ارتباط بالخلافة.

وهو في نفس الوقت ارتباط بمفهوم الإسلام وإن غلبت الدعوة الوطنية لتحرير الأرض على الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية التي كانت بالطبع مرحلة تالية كان أكبر من بنى لها قاعدة عريضة هو الأستاذ الإمام حسن البنا رضوان الله عليه.

ولقد كانت أمانتي للإسلام والفكرة الإسلامية قائمة منذ التقيت بهذا الرجل الذي هداني إلى الطريق وكنت أكتب في الإسلام ولا أعرف هذه الوجهة الصحيحة، غير أن الظروف لم تلبث أن فرضت «إطاراً عربياً قومياً» خنق الفكرة الإسلامية واعتبر العمل فيها عداء، غير أنني لم أيأس وجعلت

منطلق العروبة منطلقاً إسلامياً إلى إحياء أبطال الإسلام والتراث الإسلامي ولكن هذه المرحلة لم تكن تمثل الأصالة الحقيقة ولكنها تمثل مرحلة مختلطة مضببة لم تكن تبين لنا فيها الرؤية الحقيقية لمفهوم الإسلام.

وفي الوقت الذي نودي للعمل في المجال الإسلامي الرسمي، كنت أحس أن هذا النداء عودة بي إلى الأصالة فكان أن قدمت ذلك اللون الإسلامي الأصيل. إلى تلك المجلة التي كانت حافلة بكتابات العلماء دون أن تتضح من خلالها إلا مفاهيم الإسلام التقليدية.

ولقد بدا طريق المفاصلة بين القيم والمفاهيم عندما عمق مفهوم الأصالة ومن ثم خضعت الصداقات للقيم ولكن الطامة الكبرى جاءت بعد أن سيطر الشيوعيون على الصحافة والسينما والمسرح وأخذوا يطاردون كل كتابات الإسلام وآوى بعض المسلمين إلى مجلة منبر الإسلام.

كانت هذه الغمامة الشديدة السواد دافعاً إلى تأصيل المفاهيم على أساس الإسلام في مختلف القضايا الاجتماعية والاقتصادية، والأخلاقية والسياسية والأدبية والتربوية.

هنالك تبين أن هؤلاء الذين كانوا معنا على طريق واحد يختلفون في مسائل أساسية في العقائد والقيم فكان حقاً علينا أن نواجه فهمهم التقليدي أو الغامض القائم على أسلوب السياسة والحرية وأن نكشف هذه الأخطاء في رفق، ثم بان أن هناك خلافاً عميقاً وواسعاً بيننا وبين كبار كتاب الصحف أمثال توفيق الحكيم وزكي عبدالقادر وزكي نجيب محمود وحسين فوزي حتى الذين حملوا لواء الكتابة عن الإسلام فقد تبين أن إيمانهم ناقص حيث يصلوا إلى المفهوم الجامع بأن الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع.

كذلك فإن أخذ كلمات من هنا أو هناك دون تقدير للمراجع الصحيحة أو كتابات الباطنية والصوفية والفلاسفة أمر يحتاج إلى مراجعة فعلى المفكر المسلم أن يتحرى منهج أهل السنة والجماعة، وعليه أن يتحرر من الفكر العقلاني عند المعتزلة، أو الفكر الباطني عند الصوفية وعلى المفكر المسلم أن يكون متحرياً أصول مفهوم أهل السنة والجماعة.

ولم يقع الخلاف بيني وبين المعاصرين وحدهم أمثال طه حسين وهيكل والعقاد وزكي مبارك ولكن وقع بيني وبين القدماء أمثال ابن سينا والفارابي والحلاج وابن عربي وغيرهم.

كذلك فأنا لا أرى في الأدب العربي وتفسيراته ما يراه أتباع المذاهب الوافدة وكذلك الأمر في الشعر والقصة واللغة العربية وغيرها فقد كان مفهوم الأصالة الإسلامية عاملاً هاماً في تغير مفاهيمي التي قامت أولاً على مسلمات زائفة حاولت أن تفرض علينا فهماً تغريبياً يدخلنا في دائرة سوداء مغلقة تستهدف أن نكون تابعين للفكر الغربي في نظريات ومفاهيم.

ومع أنني تنبهت مبكراً لهذا الخطر حتى قبل أن ألتقي بالأستاذ البنا منذ كنت أقرأ كتابات الدكتور هيكل في السياسة والسياسة الأسبوعية عن التغريب وكتاب المستشرق جب «وجهة الإسلام» فقد انكشفت هذه الغاية الخطيرة ولعلي نذرت نفسي منذ ذلك الوقت ١٩٣٢ وسني ست عشر عاماً لهذه الغاية.

ثم فتحت لي دعوة الإخوان المسلمين الطريق واسعاً إلى الأصالة والفهم، غير أنني كنت ما زلت إلى سنوات قريبة غير واضح الرؤيا بالنسبة لأشياء كثيرة تبينت لي في الأخير.

وخاصة بعد أن عرفت خفايا بروتوكولات صهيون ومخططات الماسونية وبعد أن سيطر الشيوعيون على الصحافة والمسرح والسينما وأحسست بأن الخطر يقترب وشيكاً من هذه الأمانة الضخمة.

نعم عندما اكتمل مفهوم الإسلام (منهج حياة ونظام مجتمع) في نفسي كان ذلك حداً فاصلاً بين حياة وحياة فقد أخذت أراجع آرائي كلها في كل ما كتبت وأنظر إليها في ضوء مفهوم الإسلام الجامع بعد أن كان مفهومها قاصراً في المرحلة الأولى: مرحلة إسلام العاطفة والوجدان وفي المرحلة التالية - التي كانت التقية غالبة فيها - وهي مرحلة تمجيد الأمة في تاريخها وأبطالها وتراثها، دون أن يكون ذلك مفهوم الإسلام الحنيف.

وكان الخطأ ما زال متصلاً بكتاباتي في أمور تاريخية كانت ما تزال مغماة

ومنها موقفي من السلطان عبدالحميد والاتحاديين ومدحت وغيرهم مما كنت خائضاً فيه مع الخائضين باتهام هذا البطل الكريم بأنه مستبد أو سلطان أحمر كما كان يقول الظالمون، ذلك أن كشف ستر هذه القضية قد جاء متأخراً عندما كشف أحمد الشقيري رحمه الله عن واقعة اللقاء بين السلطان عبدالحميد وهرتزل ـ التي، أوردها في مذكراته ولم تترجم إلا من بعد ـ وكيف توعدوا الرجل بعد أن وقف أمامهم في صلابة ضد مطامعهم، وهو يعلم أنها ستكلفه عرشه وحياته.

وهذا ما تبين لي من بعد.

والحقيقة أنه لم يكن مفهوم الأصالة الإسلامي هو تكريم تاريخ المسلمين والعرب والنظر إلى تراثهم نظرة التقدير على هذا النحو الذي سرت فيه شوطاً إنما كان المفهوم الحقيقي هو محاكمة تاريخ هذه الأمة كلها في ضوء تطبيق الإسلام.

ومن هنا وقع الخلاف بيني وبين كثير من الذين كانوا معنا في أول الطريق. ومع كثير من المفاهيم التي كانت بمثابة مسلمات مع أنها خاطئة في الحقيقة خاصة في مجال الأدب والفن.

لقد تبين لي أنه في ضوء إيماننا بالإسلام (منهج حياة ونظام مجتمع) يلزم أن نعيد النظر في مناهج الأدب والنقد الأدبي والتاريخ والإجماع والنفس. لقد كان الانحراف الذي خضعنا له: أن المناهج الغربية تعمل على تعرية الشخصيات وتبحث عن الشبهات وفصل الأدب عن الدين والأخلاق والاجتماع وإطلاق الفنون والآداب من قيود الأخلاق وتبعة المجتمعات وأعرافها الأصيلة.

وتقديم أبطالنا وشخصياتنا وتاريخنا وأدبنا بأسلوب يستهدف تصويرهم بصورة الاحتقار والكراهية والسخرية وهذا هو أسلوب التغريب الذي نحرر منه مفاهيمنا ولقد كان طه حسين هو «قمة» أطروحة التغريب وأقوى معاقلها ولذلك فقد كان توجيه ضربة قوية إليه هي من الأعمال المحررة للفكر الإسلامي من التبعية.

يقول المستشرق كاممفاير: إن المحاولة الجريئة التي قام بها طه حسين ومن شايعه في الرأي لتخليص دراسة العربية من شباك العلوم الدينية وهي حركة لا يمكن تحديد آثارها في مستقبل الإسلام.

هكذا ينظرون إلى المحاولة التي كلفوه بها، ويعرفون مدى الخطر الذي حققه في أجيال ثلاثة على الأقل. فإن فصل الأدب عن الفكر وهو عنصر من عناصره من أخطر التحديات التي فتحت الباب واسعاً أمام الأدب ليتدخل في كل قضايا الإجماع ويفسد مفاهيم الإسلام الحقيقية.

وبعد طه حسين جاءت مدرسة العلوم الاجتماعية، بدأت أفكار فرويد وماركس ودوركايم تزحف إلى الفكر الإسلامي وتطرح سمومها وهي تواجه مفهوم الإسلام الأصيل مواجهة خطيرة وتعمل على طمسه بإعلاء شأن المعدة تارة أو الجنس تارة أو القول بأن الفرد لا قيمة له ولا معنى لتشبثه بالحرية الفردية وإنما القيمة للمجتمع الذي يخلق الأديان والعقائد وإن الدين لم ينزل من السماء وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها.

كل هذا كان في حاجة إلى كشف لزيغه ودحض لسمومه، وكانت هناك مدرسة تولستوي وغاندي وكيف حملت إلى الفكر الإسلامي مفهوم دحض «فريضة الجهاد» التي جاء بها الإسلام والدعوة إلى الخضوع والاستسلام تحت اسم السلام.

وجاءت مرحلة عمل كتاب التغريب منها في البحث عن الشبهات القديمة التي روجتها الشعوبية والمجوس والباطنية والإسرائيليات وعملوا على إحيائها وإعادة صياغتها من جديد وإثارة مفهوم للإسلام ليس كاملاً، بالقول بأنه دين تعبدي ومحاولة التأويل في الشريعة والفصل بين الدين والمجتمع، وإبراز الخلافات المذهبية، والفجوات بين الطوائف ويقولون في جرأة عجيبة: إن مفهوم الإسلام يختلف باختلاف الشعوب.

ولما رأى التغريب أن الأزهر هو القلعة الصامدة التي وقفت أمام مؤامراتهم قرر المبشرون في مؤتمرهم الذي عقد في أول هذا القرن أن الأزهر يعد أهم عائق في وجه التبشير وبالتالي في وجه الاستعمار في مصر والعالم

الإسلامي، ولا بد من إيجاد مؤسسة علمية ثابتة يبثون منها أفكارهم ويطبعون جيلًا من المسلمين بطابعهم حتى يقف هذا الجيل أمام الفكر الإسلامي ويشككك فيه وكان أن ولدت الجامعة الأمريكية في القاهرة.

وكشف عميد التبشير في البلاد العربية (الدكتور زويمر) عن خطتهم فقال: ليس غرض التبشير المسيحي إدخال المسلمين في المسيحية فإن المسلم لا يمكن أن يكون مسيحياً مطلقاً ولكن الغاية هي إخراج المسلمين من الإسلام فقط ليكون ملحداً أو مضطرباً في دينه وعندها لا يكون مسلماً أي لا يكون له عقيدة يدين بها وقال: إن هذه أسمى مراتب الانتقام من الإسلام وأجل الغايات الاستعمارية فماذا عملت قوى الغزو التبشيري في سبيل ذلك!.

قال زويمر: أجل لقد قضينا على برامج التعليم في الأقطار الإسلامية منذ خمسين عاماً فأخرجنا منها القرآن وتاريخ الإسلام ومن ثم فقد أخرجنا الشباب والفتاة الإسلامية من الوسائط التي تخلق منهم العقيدة والوطنية والأخلاق والرجولة والدفاع عن الحق.

وقال: إن القضاء على الإسلام في مدارس المسلمين هو أكبر واسطة للتبشير وقد جنينا أعظم الثمرات المرجوة منه فقد حطم التبشير النشء الإسلامي تحطيماً وهو سبب فساد الخلق والوطنية وموت الرجولة.

وهكذا تجمعت الأخطار على طريق الداعية المسلم فكان عليه أن يعمل لكشف الحقائق ويواجه الخطر ولا يستسلم.

لقد طرحت الوثائق التي ظهرت في السنوات الأخيرة حقائق كثيرة جلت كثيراً من الغموض الذي كان يواجهه الدعاة أسلافنا فكان علينا أن نخطو الخطوة التالية: خطوة التأصيل والبناء على الأساس وقد قام في رحاب الدعوة الإسلامية علماء كثيرون آمنوا بالإسلام ديناً ومنهج حياة وقدموا مناهج جامعة في مختلف الميادين: منهج المودودي والندوي ومحمد المبارك وعبدالقادر عودة وأبو زهرة وعلال الفاسي ومصطفى السباعي.

إن أخطر كلمة يجب أن تقال في هذا: أن الفضل كله لله وأن الهدى

هدى الله وأنه لولا فضل الله في التوجه إلى هذا الطريق المستقيم لظللنا في ضلال السبل التي لا توصل أبداً والتي هي عبارة عن أهواء وركام.

ولذلك فإن خير ما أعتقد أنه موهبة من الله تبارك وتعالى لي هو الإيمان به.

— ٤ —

أعتقد أنني سهم من سهام الله التي تنطلق في مواجهة هذه المفاهيم المسمومة المبثوثة في أفق المجتمع الإسلامي، ولدحض هذا الباطل ولكشف زيف هذا الفكر البشري الضال الذي استحصد واتسعت آفاقه وحملته الأدوات الحديثة التي صنعتها الحضارة عن طريق الصحافة والمسرح والسينما والإذاعة والتلفاز، كل هذا البث المتصل الشديد القوي التي جندت له القوى الضخمة والأموال الضخمة والعقول التي تجري كلها وبيدها كل هذه الأدوات الضخمة لتبث تلك المفاهيم المسمومة في الشباب والفتيات والرجال والبيوت، ليلاً ونهاراً عن طريق مسرحيات إباحية وأغان خليعة وحوار هابط، ومفاهيم كاذبة: ليست مفاهيم الفطرة ولا العلم ولا الحق على إطلاقه وإنما هي أهواء النفس الضالة المضلة لتنطلق إلى الاستمتاع بالحياة في ضعف وخور وانحلال وليحصل من الترف هدفاً ومن الرخاوة وجهة فإذا جاءت القوة المعادية لتضرب هذه الأمة وجدتها خواء لا تصمد أمام الضربة ولا تقاوم ولكن تستسلم وقد فسدت منها النفس وانهزمت الروح قبل الهزيمة.

ونحن مطالبون بأن نقدم للمسلمين ما ينقصهم من برامج التعلم عن الإسلام ونصحح ما قدم لهم من شبهات وأخطاء، على قاعدة واضحة. إن هذه المناهج وضعها النفوذ الأجنبي ليبعدنا عن حقيقة ديننا وإن علينا أن نصلح أمرنا بأن نفهم الحقائق التي لم تكشفها أساليب المعرفة المعروضة من خلال مناهج التعلم أو الصحف أو دراسات الثقافة الخاضعة للمفاهيم الوافدة.

— ٥ —

إن أبرز ما نجده في حركة اليقظة أنها حركة مقاومة بالقلم لم تيأس حتى بعد

سقوط عالم الإسلام في قبضة نفوذ الاحتلال، إنها تحمل ذلك الإيمان العميق بأن هذا الدين لا يمكن أن يزول وإن هزم في معركة فرعية فإن أبواب النصر وأضواء العودة إلى الحق لا بد أن تبدأ من صميم اليأس ومن ظلام الليل الدامس.

ذلك لأن كلمة الله لا يمكن أن تموت وستحيا وستعود إلى الإشراق تحملها تلك الأيدي الواهنة والقلوب المؤمنة رغم كل محاولات ضربها والقضاء عليها والتيئيس منها.

﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

هذه هي النار المتقدة في الصدور لا تنطفىء.

وهذا هو التحدي المتصل الذي لا يتوقف ليلًا أو نهاراً وذلك هو الديدبان اليقظ الذي له في كل يوم كلمة وموقف وطلقة يطلقها صوب معسكر التغريب والغزو الثقافي.

لقد أشرق هذا الفجر: فجر حركة اليقظة بعد سقوط الخلافة الإسلامية واهتزت النفس الإسلامية في كل مكان للقضاء على هذه العروة الوثقى وكانت صيحات جمال الدين ومحمد عبده قد ارتفعت لتدفع الفكر الإسلامي إلى التحرر من جمود التقليد، وجبرية الصوفية، ولكن إلى أين! إلى الفلسفات وعلم الكلام وأفكار المعتزلة.

ولكن كان لا بد أن تظهر دعوة ربانية قرآنية خالصة بعد هذه المرحلة تدعو إلى مفهوم الإسلام الأصيل المستمد من المنابع الأولى بعيداً عن جبرية الصوفية وعقلانية المعتزلة، إلى القرآن نفسه وإلى فكرة الإسلام: فكر أهل السنة الجامع.

كذلك فقد كانت هناك دعوة فكرية ولكن لم يكن هناك شيء في مجال المجتمع نفسه، ولذلك فقد كان لا بد أن تنشأ فكرة ترد الشباب إلى الإسلام نفسه، على نفس المنهج الذي بنى به رسول الله الجماعة الأولى.

وكان التحدي قوياً، كان يتمثل في الغزو الفكري في تلك التيارات المغلفة بالاستشراق والتبشير في الجامعة والصحافة والثقافة يقودها طه حسين وعلي عبدالرازق ومحمود عزمي وسلامة موسى وكان لا بد من إبراز مفهوم الإسلام الأصيل الجامع.

وهكذا بدا ذلك التيار الأصيل الذي انضممنا إليه من بعد، لقد كان المنطلق الأول إسلامياً، ولكنه الإسلام التقليدي الذي يقصر نظره على أن الإسلام صلاة وعبادة، ثم جاء ذلك الفهم العميق الكامل الجامع: الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع، وكان صاحب القلم قادر على التوجه بفضل الله إلى العمل، لم يكن الارتباط بالتنظيمات هو الوجهة ولكن كان ذلك العمل، ولذلك فإنني مضيت إلى العمل الأكثر إلحاحاً وهو إعزاز موهبة الكتابة وتعميقها وتوجيهها إلى خدمة الهدف الإسلامي الأول في تقديري، وهو إحياء جوانب القوة والبطولة في تاريخنا وتراثنا العربي الإسلامي منذ فجر الإسلام وإلى العصر الحديث. واخترت ميدانين أساسيين في هذا المجال هما ميدان التراجم ودراسة الأدب العربي وكان في أعماق النفس شعور بالغيرة على تلك البطولات المدفونة التي كانت تذهب آثارها في طوايا الدوريات فأحييت تاريخ أمثال أحمد زكي باشا وعبدالعزيز جاويش وفريد وجدي، وأقمت ذلك المشروع الواسع لدراسة ألف شخصية (الأعلام الألف) أما الأدب العربي فقد حاولت به محاربة فكرة الإقليمية فيما أسموه الأدب القومي والإقليمي ورأيت أن أدرس الأدب العربي في أفقه الواسع، وإحياء شخصياته وبطولاته وكان ذلك موضع سخرية بعض الإقليميين بل دهشتهم لذكر أمثال عبدالحميد بن باديس وعبدالعزيز الثعالبي، ثم وسعت الأفق في دراسة العصر الحديث من صحبة جمال الدين وأثرها في الصحافة والأدب، كما أديت ديناً للأدب العربي في شمال إفريقيا وكان مجهولاً مغموراً فدرست جهاد الأدب العربي في المغرب وتونس والجزائر وليبيا في مواجه النفوذ الاستعماري غير أن هذا الاتجاه وإن كان قد خرج بنا عن الإقليمية فإنه قد حجز نافذة في مجال القومية بأخطائه ومفاهيمه القاصرة عن مفهوم الإسلام الجامع، ومن هنا فقد وقعت أخطاء كثيرة حول بعض الشخصيات التي كنّا نقيّمها في ظل المسلمات الضالة التي كانت مطروحة

في ساحة الفكر الإسلامي والتي كان علينا من بعد تصحيحها وكشف زيفها، وكذلك شاركنا مع إخوة أبرار في تعرية هذه الزيوف من ذلك الموقف مع الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية والسلطان عبدالحميد وجلينا الموقف المضبب حول مدحت ومصطفى كمال أتاتورك ومفوم القومية العربية الذي طرحه أمثال ساطع الحصري وميشيل عفلق ومن مفاهيم الإقليمية المصرية التي طرحها سعد زغلول والأحزاب السياسية ومن بعض الشخصيات اللامعة.

وكذلك فقد درست بعض الشخصيات الغربية المعارضة لمفاهيم الإسلام وكشف أهدافها وأخطائها، ولعل هذا هو الذي أزعج بعض أصدقائنا الأدباء الذين تقوقعوا في دائرة الأدب وأغلقوها عليهم ولم يستطيعوا القفز أو الزحف إلى الفهم الأصيل الجامع للفكر الإسلامي بوصفه الدائرة الكبرى التي يجب أن يكون الأدب إحدى دوائرها الصغرى اتصالاً بها وتنسيقاً معها، وليس استعلاء عليها أو الاستقلال بنفسه، لقد كان إخواننا في بعض الظروف والأحوال يواجهون الأمور في بساطة ولم يكونوا قادرين على استيعاب الموقف إزاء تعقد الآراء المطروحة وبراعة عرضها فضلاً عن طابعها البراق الذي يخطف الأبصار ولكن سرعان ما تسلح الباحثون بنفس أسلحة خصومهم وتقدموا إليهم يناضلون بأسلوب العصر الحديث، بل إن بعض هؤلاء كانوا قد تعلموا في الغرب وعرفوا مفاهيم في البحث والجدل فواجهوا القضايا مواجهة قادرة.

لقد برزت أول الأمر المدرسة المنطقية والفلسفية، ثم جاءت المدرسة القرآنية فكانت أكثر عمقاً وأصالة حمل لواءها مفكرون أبرار التمسوا مناهج الفكر وأساليب الرد والجدل والمساجلة من القرآن نفسه وقالوا: إن القرآن هو الأصل الأصيل للفكر الإسلامي فإنه يستطيع أن يقدم الإجابة الحاسمة ويدحض الشبهة الزائغة.

نعم لقد كانت كتابات هيكل والعقاد وطه حسين عن الإسلام لامعة، وكانت موضع إعجاب الكثيرين في أول ظهورها، ولم يلبث الأمر أن تكشف عن أخطاء كثيرة في هذه الكتابات وأنها تصدر على منهج الاستشراق وتنكر

كثيراً من حقائق الإسلام أو تعتمد مناهج الفلاسفة الغربيين في تفسير الإسلام، هذا بالنسبة للعقاد وهيكل، أما طه حسين فقد تكشف عن تبعيته الخطيرة للاستشراق والتبشير الغربي أشد المكر في خداع المسلمين بالأسلوب الموسيقي الذي يخفي كثيراً من السموم وقد أمكن لحركة اليقظة كشف ذلك كله ووضعه في ضوء الشمس.

— ٦ —

كانت دائرة العمل الفكري ضيقة في أول القرن الميلادي، فكانت قاصرة في الحركة الوطنية في مواجهة النفوذ الأجنبي.

وقد تراوحت بين الوطنية والسياسة، وكانت الحركة الإسلامية إلى جوارها قاصرة ضيقة، تكاد تتوقف عند بعض دراسات السنة وتفسير القرآن وكأنها منفصلة تماماً، وكانت أشبه بالمواعظ وخطب الجمع وغيرها يغلب عليها الطابع التقليدي الخاص بالحث على مكارم الأخلاق والتمسك بالدين.

أما الإسلام بوصفه مفهوماً أصيلاً جامعاً: السياسة والشريعة والاقتصاد أجزاء أصيلة منه فإن هذا المفهوم لم يظهر حقيقة إلا بعد ظهور الدعوة الإسلامية، هذه الدعوة التي غيرت المفاهيم وحررت أسلوب العمل الإسلامي فأصبحت دراسات الإسلام ليست قاصرة على العبادات والأخلاق بل متصلة بكل ما يرتبط به الحياة الاجتماعية والسياسية والتربوية والاقتصادية، من دراسات وأبحاث تكشف عن وجهة نظر الإسلام فيها وقربها أو بعدها من أصول الدين الحق، ذلك أن مفهوم الإسلام الذي كان قائماً من قبل فإنما كان عبارة عن أنه دين وصلاة وهو قاصر على حدود المسجد والمعاملات مع الله تبارك وتعالى. أما التعامل بين الناس فقد كان خاضعاً لمفاهيم الاقتصاد الغربي والمصارف والقانون الغربي والمدرسة الغربية والسياسة الحزبية المستمدة في مفاهيمها من الليبرالية والديمقراطية والرأسمالية الغربية.

وفي هذه المرحلة نما مفهوم الأدب، واتسع، وكون له دولة مستقلة بعيدة عن الإسلام وأقام له مفاهيم ومقررات أتاحت له الحق في أن يستعرض كل أمور الإسلام دون أن يواجهها مواجهة صحيحة، كان يتحدث عن القرآن

باعتباره كتاب بلاغة أو لغة، أو أن يتناول الأدب العربي منفصلاً عن خط سير الأدب العربي الإسلامي منذ فجر الإسلام أو أن يتناوله على نحو معين فيعرض لشخصيات معينة كأبي نواس والمعري ويرى أنها من مادة الأدب ويتجاهل ويحجب شخصيات أخرى أمثال الغزالي وابن تيمية وغيرهم على أنها ليست شخصيات أدبية وقصر مفهوم الأدب على ما يسمى النثر الفني أو شعر الغزل والهجاء وبذلك تقوقعت دائرة الأدب وقصرت على تلك الصفحات المسمومة التي قدمها الشعوبيون وتجنبت تلك الصفحات المشرقة المضيئة من القيم والأخلاق والبطولة.

وجرى ذلك المجرى في ضوء إخضاع الأدب العربي لمذاهب الأدب الغربي الوافد وهي مذاهب مادية إباحية لا ترى في الإنسان أكثر من أنه حيوان وأنه ابن بيئته وعصره وليس له قدرة على أن يكون ذا إرادة فردية أو مسئولية أخلاقية أو التزاماً مؤمناً.

ـ ٧ ـ

لا ريب أنه عندما يمتلك الكاتب «العقيدة» التي يعمل لها فإنها تكون بمثابة المصباح الموجه والكاشف للحقائق ومن ثم فقد وضحت الطريق بعد مدة طويلة من عدم الالتزام ومن الاضطراب والتخبط ولقد كان عيب إخواننا أنهم حصروا أنفسهم في دائرة الأدب دون أن يعرفوا لهم وجهة حقيقية لخدمة هدف واضح، ومن ثم فقد عجزوا عن الالتزام بالطريق الأصيل، ومن ثم فقد كان عجزهم عن امتلاك العقيدة، مصدراً لعجزهم عن امتلاك الإرادة القادرة على تحديد المواجهة، ومن ثم فقد بدأت الحياة الفكرية والأدبية تتكشف أمامي عن أخطائها وانحرافاتها. وكيف اعتدل الميزان وبدأت نظرتي تتغير إلى وقائع التاريخ وسير الأعلام، لقد حدث ذلك عندما أخذت أضع تاريخ البلاد المعاصر في ميزان الإسلام، أما قبل ـ وعلى ضوء ما تعلمناه في المدارس وجرت به رياح الصحافة والثقافة، فقد كان تفسيراً قومياً أو إقليميا من ناحية، كان تقدير البطولات قائماً على مقاييس غير صحيحة لأنها مقاييس التبعية للنفوذ الغربي.

كـانت الصحف تكرم سعـد زغلول ولطفي السيـد وكمال أتـاتورك وغـاندي وقاسم أمين من الشرقيين وكانت تكرم لورنس وغوردون وغيره من الغربيين، وكانت الصحف تقدم شبهات تحاول النيل بها من السلطان عبدالحميد والأمير عبدالقادر وثوار الجزائر من بعده وعبدالكريم وثوار سوريا والعراق بعد الحرب الأولى وتصفهم بأنهم مارقون.

وكانت المقاييس إقليمية محضة، تقوم على الوطنية الضيقـة، وتعارض المفهـوم الإسلامي الجـامع، ومفهـوم وحدة العـرب، وكانت تكره الجـامعـة الإسلامية والخلافة لأن الاستعمار يكرههما وتدعو إلى الإقليمية وإعلاء العنصر وإحياء التراث الإقليمي والفرعوني وفي كل بلد تحيي تاريخه القديم السابق للإسلام.

٢ ـ كذلك صحح الإيمان بالفكرة الإسلامية كثيراً من المفاهيم وكشف كثيراً من الزيف وعرّى تلك البطولات الخادعة والحركات الوطنية التي كانت تدور في فلك النفوذ الغربي لأنها كلها تعمل على حجب النظام الإسلامي في السياسة والاقتصاد والاجتماع، وتجري وراء المفهوم الغربي الليبرالي، كما أنها تتنكر للوحدة الإسلامية الجامعة وتقيم بدلاً منها الصراع الإقليمي والخلاف العميق بين العرب والفرس والترك وغيرهم.

* * *

هذا هو مفتاح شخصيتي في التحول الخطير الذي غير مفاهيمي وأحال كثيراً من القيم والمفاهيم والشخصيات من قائمة البطولة إلى قائمة الخيانة، بل إنه امتد أيضاً إلى مجال الأدب والثقافة والفن.

ـ ٨ ـ

كانت الصحف والمجلات الإسلامية تقف عند حدود التفسير والحديث والفقه لا تتعداه حتى فتح لها «المنار»: بعد «العروة الوثقى» الطريق إلى قضايا العالم الإسلامي وصراعه مع الاحتلال والنفوذ الأجنبي وكان سقوط الدولة العثمانية والخلافة هو الذي فجر قضايا الإقليمية والعروبة، ولكن كان قيام الدولة السعودية الجديدة منطلقاً جديداً اتجهت إليه المنار لأنه فتح الطريق أمام

مفهوم الإسلام السني الجامع المخالف والمعارض لمفاهيم الأزهر في ذلك الوقت وكانت خاضعة لتفسيرات الصوفية وجمود النظرة الفقهية التقليدية.

ولقد فتحت صحف الإخوان المسلمين أفقاً جديداً للصحافة الإسلامية والكتابة الإسلامية جرت فيه الأقلام وما زالت تجري دون أن تصل إلى شاطئه أو أغواره، عندما دفعت بفكرتها التصحيحية بأن الإسلام دين ودولة، وأن المسلمين مسئولون عن تطبيق نظام الإسلام على أنفسهم ومجتمعهم، قبل تبليغ الإسلام للعالمين ومن ثم فقد فتحت هذه الدعوة الآفاق إلى تصحيح مفاهيم زائفة كثيرة قدمها المنهج الغربي الوافد في مجال السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية.

ولقد كان على الدعاة المسلمين مدّ نطاق هذا المنهج إلى الصحف التي تكتب عن الإسلام وأن تطرح هذه المفاهيم في كل منبر متاح حتى لا يتوقف الأمر على مفهوم قاصر هو الكتابة عن العقيدة أو الأخلاق وحدهما بل من خلال مفهوم جامع هو أن الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع ليكمل جوانب العقيدة والشريعة والأخلاق وأن المسلم يجب أن يكونها جميعاً مجتمعة لا واحدة منها.

— ٩ —

لا ريب أن أعطت التجربة: تجربة تصحيح المفاهيم وتحرير القيم عدة أضواء كاشفة وتوجهات صادقة.

ومن ذلك أن المفكر المسلم لا يعكس قيم عصره، وإنما ينقل الناس من العصر إلى القيم، ومن الواقع إلى المثل الأعلى، من الصورة التي هي محاولة لتبرير الضعف والتخلف في المجتمعات العامة إلى الصورة التي هي تحقيق لإرادة الله في الأرض ببناء المجتمع الرباني، إلى نقل البشرية إلى الإنسانية وإلى قيم الأصالة التي حرمتها المادية والوثنية والتقاليد وانحرافات الأجيال.

إن كثيراً من الكتاب يفخرون بأنهم يعكسون قيم عصرهم، وهؤلاء ليسوا في الحقيقة إلا أتباع وأولياء وعبيد.

أما المفكر المسلم فهو لا يعكس قيم عصره، وما قيم عصره إلا المادة والوثنية والمطامع والإباحية ولكنه ينقل الناس إلى القيم العليا.

إن المفكر المسلم لا يقر دعوة الأغاني الخليعة والأفلام الإباحية إلى عبادة الحياة، ولكنه يدعو إلى تدليل الحياة والناس إلى عبادة الله تبارك وتعالى.

وفارق بين المسلم الرباني صاحب الرسالة وبين أي إنسان آخر لا يرى إلا ما تحت قدميه حيث يقنع بلقمة طيبة، أو مركب فاره، أما المسلم الرباني فهو في سباق مع الزمن لا يشغله شيء عن ربه ودينه يسمو بمطامحه إلى الآمال الكبيرة ولا يتوقف عند المطامع الصغيرة، في الآفاق الواسعة ويتطلع إلى الأفق البعيد.

وعلى ضوء إيماننا بقيمنا لا بد من إعادة النظر في:

١ ـ مناهج الأدب والنقد الأدبي والتاريخ والاجتماع والنفس، والانحراف هو أن المناهج الغربية تعمل على تعرية الشخصيات وتبحث عن الشبهات وثانياً فصل الأدب عن الدين والأخلاق والاجتماع وتحريره من ضوابط الفن والأدب وتعريض أبطالنا وشخصياتنا وتاريخنا وأدبنا لأسلوب يستهدف تصويرهم بصورة الاحتقار والكراهية والسخرية، وهذا هو هدف التغريب.

إن على الكاتب المسلم إضاءة الطريق أمام الإنسانية لتعرف ربها ولتعرف طريق الخلق إلى الحق وأن علينا دائماً النظر إلى ما وراء النصوص والكلمات.

اللهم اجعلنا هادين مهتدين، لا ضالين ولا مضلين، عوناً لأوليائك حرباً لأعدائك، نحب بحبك من أحبك، ونعادي بعداوتك من خالفك.

إن أخطر ما يحاول التغريب إقراره في الشعور الإسلامي هو الانعزال عن النظر في خلفيات الأمور فهو يستهدف تضييق دائرة الفكر وقصر النظر دون معرفة البواعث وقد تبين أن من خلف المخططات التي نواجه قوى وتنظيمات يجب كشفها ودحض شبهاتها.

فليحذر شبابنا المثقف كتب الأحاجي وأحداث الإجرام والقتل وقصص

العرافين والسحرة وقصص الحب والهيام مما يثير رغبة العامة ويدفعهم إلى قراءتها.

على الكاتب أن يعطي القراء ما يحتاجون إليه، وليس مضطراً أن يعطيهم ما يرغبون فيه، إن الذي ارتفع لا يجوز له أن يهبط، وإن الذي هبط يجب عليه أن يرتفع ويعاب عليه أن يبقى حيث كان.

وعلى دعاة الفكر الإسلامي أن يبقوا بمعزل عن التيارات والأيدلوجيات مع إدراك حقائقها وما ترمي إليه، ذلك لأن دعاة الفكر المادي يبذلون أقصى ما يستطيعون لتركيز أفكارهم في طلائع الشباب المثقف موهمين أولئك أن طريقهم ومبادئهم هي وحدها الكفيلة بتحقيق ما تطمح إليه الشعوب.

على الشباب المسلم الحذر من التباس القوى المتكاملة كالعروبة والإسلام والدين والدنيا والدين والدولة.

— ١٠ —

منذ ١٩٦٠ وسعت أبعاد دراستي فلم تعد قاصرة على الأدب العربي المعاصر والصحافة العربية وأوغلت في مجال أوسع أفقاً وأرحب منطلقاً : ذلك هو مجال الفكر الإسلامي المعاصر وفي لقائه مع الفكر الغربي بشقيه، ومن ثم أصبحت دراساتي تضم الاجتماع والفلسفة والحضارة والتراث.

رجوت العمل على تنقية الفكر الإسلامي من الشوائب التي أثارتها العصبيات والنعرات الطائفية وأزكتها العقلية الشعوبية وتصحح ما دسته مؤامرات التغريب والاستشراق في تاريخ العرب والإسلام من سموم فقد استغل المستعمرون أسباب الضعف بين المسلمين وراحوا يبعثون من قبور التاريخ أسباب الفرقة والبغضاء وينفخون في نار قد خمد أوارها منذ زمن بعيد. وبدأ الغزو من نقطة العقائد، وتقسيم العلوم إلى دينية ودنيوية واستهدف ذلك تمزيق وحدة الفكر الإسلامي وجماعية الرابطة بين العلوم الدينية والدنيوية في طريق واحد. والهدف هو فصل الدين عن المجتمع، وفصل الأخلاق عن السياسة وجعلها علاقة لاهوتية فقط. وهذا هو أخطر

منطلقات التغريب والغزو الثقافي، إن لأمتنا منهج حياة ونظام مجتمع، يدعوها إلى أن تتحرر من التبعية الاجتماعية والثقافية للفكر الغربي وتعرف ذاتها. إن لنا نظرة أصيلة في الاجتماع والنفس والتربية والأخلاق والاقتصاد. نعرض عليها الفكر الوافد، فلننظر في هذا الفكر على أنه يخص الآخرين وأنه مستمد من بيئتهم وعلينا أن نقف في ضوء أصول فكرنا.

إن الفكر الإسلامي لم يستسلم للنظريات الوافدة ولم يقبلها أو يسلم بها تسليماً مطلقاً بل كان معها حاسماً وكريماً في نفس الوقت فهو لم يرفض كل ما قدم إليه ولكنه استصفى منه ما أضافه إلى كيانه مما لا يتعارض مع التوحيد ويخلص مما يتعارض معه.

لقد ظل الفكر الإسلامي دوماً وجيلاً بعد جيل يواجه النظريات الوافدة ويوضح وجهة نظره ولا يتوقف عن المعارضة وعن الاحتفاظ بذاتيته والانتفاع بالأساليب والمناهج والأطر.

ـ ١١ ـ

من أبرز عناصر رسالة الداعية إلى الله هو كشف مغالطات الغرب ودحضها وإعطاء بني وطننا وأمتنا العربية والإسلامية شيئين:

الأول: حقيقة الفهم لآراء هؤلاء الخصوم وكشف تعصبهم.

الثاني: عظمة ثقافتنا الإسلامية العربية والكشف عنها وعن آثارها في مجال العقيدة والتاريخ واللغة.

وقد تأخر هذا العمل بعد مرحلة من العمل في مجال الأدب والفكر على نحو أحرز ثقة القارىء بالإنصاف. وبعد أن أتممت موسوعة (معالم الأدب العربي المعاصر) أحسست أنني لم أكن أقصد إلى هذا العمل بالذات وإنما العمل الحقيقي الذي كان يختفي خلفه والذي برز بعد هو مواجهة الشبهات والتحديات التي طرحها التغريب والاستشراق والتبشير والغزو الثقافي في أفق الفكر الإسلامي وهو موضوع ضخم قدرت ما يمكن أن يكتب عنه بما لا يقل عن تفرغ كامل وعندما بدأت (١٩٦٣) كان أمامي ما لا يقل عن خمسة آلاف

جذادة، تمكنت من جمعها خلال سنوات منذ ١٩٥٩ وأمامي ما لا يقل عن ٢٥٠ كتاباً للمراجعة (هذا ما كتبته للدكتور زكي علي في ١٤/٨/١٩٦٤).

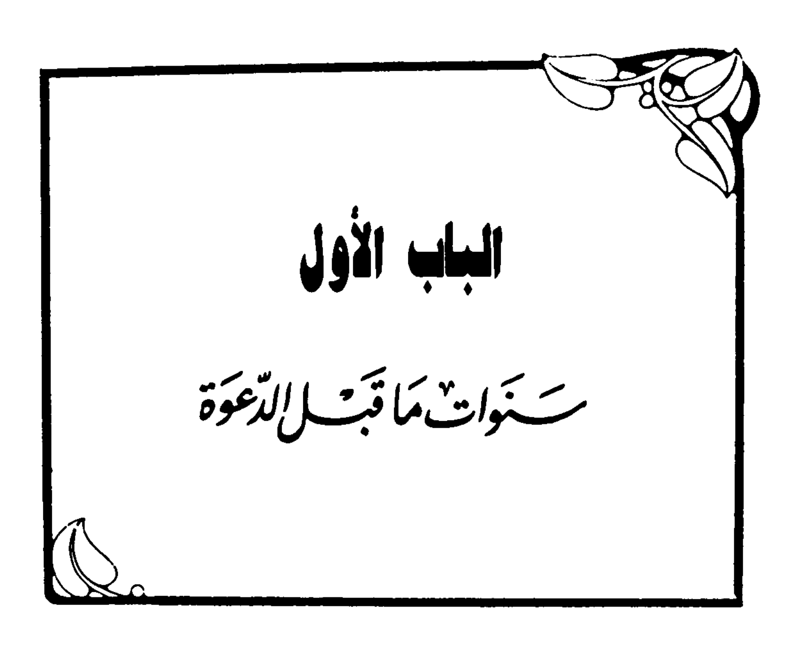
وكان في خاطري أنه يجب أن لا تستغرقنا التفاصيل والتخصصات والفرعيات وأن نظل دائماً قادرين على امتلاك ناصية الأصول العامة والمسائل الرئيسية والمواقف الأساسية، وجمع الخطوط الكبرى في تكوين متكامل يجعلنا قادرين على النظرة الكلية الدائمة وذلك هو مفهوم التكامل الجامع الذي علمنا الإسلام إياه.

وكان علينا أيضاً أن نكون قادرين على استيعاب كل دراسات التخصص والفرعيات والتفاصيل الجديدة والمتجددة دوماً حتى نستطيع أن نكون واعين لأحدث مستحدثات الفكر والفهم دون أن يجعلنا ذلك متخصصين ننفصل عن القضية العامة وعلينا أن ننتفع بمعطيات التخصص كلها في الفروع المختلفة لخدمة الفكرة الإسلامية العامة.

وأستطيع أن أقول أنني عشت مرحلة نقد المجتمع من ١٩٤٠ - ١٩٥٠ ثم عشت مرحلة معالجة الواقع ١٩٥٠ - ١٩٦٤ وفي هذه المرحلة تناولت قضايا الوطنية والقومية وهي مرحلة تقبلت فيها بعض المفاهيم المطروحة قبل أن أعرف خفاياها التي اتضحت لي من بعد.

ثم بدأت مع ١٩٦٤ مرحلة جديدة لتصحيح المفاهيم بعد سيطرة الشيوعية على الإسلام وفي هذه المرحلة استطعت أن أكشف كثيراً من الحقائق فضلاً عن أن الدعوة القومية والإقليمية كانت قد قدمت حقائق خطيرة.

ذو القعدة ١٣٩٨



الباب الأول

سنوات ما قبل الدعوة

كانت صلتي بالدعوة الإسلامية امتداداً لما قبلها من ناحية وفاصلاً لما قبلها من ناحية أخرى، فقد كانت تطلعاتي كلها نحو الأدب والصحافة والعمل بهما قد تحولت لخدمة هدف واضح محدد: هو الدعوة إلى الله والعمل في سبيل أن تكون كلمة الله تبارك وتعالى هي العليا وقد تخلت النفس عن كل مفاهيمها ومطامعها وأهوائها التي كانت تحاول أن تجعل من أمثال: التابعي وفكري أباظة وغيرهما نموذجاً وأصبح القلم أمانة لخدمة الهدف الأصيل الخالد الذي وهبه من قبلنا رجال كثيرون ومفكرون خلدوا في تاريخ الفكر الإسلامي حين هبوا للدفاع عن الحق والكشف عن الزيف وتحرير المفاهيم وتصحيح القيم فقد تبين أننا إنما نمر بمرحلة شبيهة بالمرحلة التي مر بها أعلامنا عند ترجمة الفلسفة اليونانية وما أصاب الفكر الإسلامي خلالها من اضطراب نتيجة سريان مفاهيم المادية والغنوصية والتحلل والإباحة والفكر الباطني على النحو الذي قدمه الشافعي وابن حنبل والغزالي وابن تيمية وأين نحن من هؤلاء.



الفصل الأول

خطوط عامة



كان جدي لوالدتي قاضياً شرعياً يشتغل بتحقيق التراث وكنت أراه وهو يكتب على أوراق من الكاغد يجعل لها إطاراً بالحبر الشيني الأحمر ويكتب في داخلها بالحبر الأسود ما عدا العناوين فيجعلها بالحبر الأحمر أيضاً.

وكان أبي يشتغل بتجارة القطن ولكنه كان حفياً بمتابعة الأحداث الوطنية والعالمية ولذلك كان بيتنا معموراً بالصحف والمجلات وصور الأبطال وأمثال عبدالكريم الخطاني زعيم حرب الريف وأنور باشا القائد التركي الذي اشترك في حرب طرابلس الغرب.

وكنا نعيش في عطور مقدمة ابن خلدون، وإحياء علوم الدين للغزالي وتفسير الجلالين وفقه الإمام مالك وسيرة الشيخ أبو الحسن الشاذلي.

وقد ذهبت إلى الكتابّ ثم رأى الوالد أن يستقدم لنا شيخاً أنا وإخوتي يحفظنا القرآن في البيت وكان بلدنا (ديروط) من أجمل بلاد الصعيد حيث تشقها ثلاثة روافد من الماء: الإبراهمية وبحر يوسف، والدجاوي.

وكنا نخرج في المساء جماعة من الشباب نغذ السير طويلاً بجوار الإبراهمية ونتكأ هناك على بعض القوارب، نقرأ عن ظهر قلب (رواية ماجدولين) للمنفلوطي حيث ترجمها بقلمه الرائع، ومن المنفلوطي انتقلنا إلى الزيات والرافعي (مدرسة البيان العربي الحديث).

وكانت (ديروط) بلدة جديدة على التاريخ تحاول أن تفخر بأسماء من ولدوا فيها وكان فخرها شديداً بمولد شاعر النيل حافظ إبراهيم على ضفافها فقد كان والده مهندساً في بناء قناطر ديروط التي يتفرع عنها (بحر يوسف).

ولذلك فإنه عندما أعلنت مجلة (أبولو) التي كان يصدرها الدكتور أحمد زكي شادي عن إصدار عدد خاص عن شاعر النيل بمناسبة وفاته عام ١٩٣٣ (وكنت حدثاً في السادسة عشر) جردت قلمي لكتابة كلمة عنه باسم واحد من أهل ديروط التي ولد على ضفاف إبراهميتها شاعر النيل وكان ذلك موضع فخري بالكتابة في جريدتي البلاغ وكوكب الشرق قطفاً متناثرة ولما أكن بعد قد عرفت طريقي إلى أين، ولكني عرفت القلم منذ ذلك السن المبكر وكانت هناك مقالات موضع إعجابي في الهلال والسياسة الأسبوعية وكانت ديروط قد خرجت من دور تاريخي حيث اندلعت بها ثورة ١٩١٩ وشاركت فيها برجالها الذين قاتلوا الأنجليز وحوكموا وشنقوا.

ومن حيث خرجت من بيتنا الذي كان يشرف على باحة واسعة من الحقول الخضراء يحدها شريط القطار الذي كنا ننتظره بشوق ولهف لنرى وجوه القاهريين المسافرين إلى الأقصر وأسوان ونترقب الصحف وفي مقدمتها جريدتي البلاغ والسياسة الأسبوعية ومجلة الرسالة، وقد بدأت أجرب خطواتي في عالم الكتابة فكنا نراسل هذه الصحف وغيرها وكان الدكتور زكي مبارك يوصينا بالتريث والقراءة والاستيعاب وقد مرت أيامي في الدراسة مع العمل المبكر في بنك مصر وواصلت الالتحاق بالجامعات الخارجية بالمراسلة حيث كانت الكتابة الأدبية والعمل الصحفي تغلب خطواتي.

وفي مطالع الشباب كانت أوقاتي مقسمة بين مجالس العلم وحلقات الذكر، أما حلقة العلم فكانت بالمسجد الكبير من بين صلاة العصر إلى صلاة المغرب حيث كان هذا الشيخ الجليل يحدثنا عن أصول العبادات والمعاملات، أما حلقة الذكر فكانت تعقد بعد صلاة الفجر حيث كنا نخرج في الغلس إلى المسجد القريب فنذير الساقية التي ترفع الماء من البئر إلى الصنابير ثم نصعد إلى المأذنة فنؤدي الابتهالات التي يسمونها المبادرة قبل أذان الفجر فإذا صلينا انتظمنا في حلقة الذكر حتى تطلع الشمس.

وكنا نتطلع إلى العلماء في بلدنا فنزورهم في منازلهم نسأل عن الكتب فإذا اتجهنا شرقاً فإلى عيادة الدكتور أمين إبراهيم نسأل عن مقدمة ابن خلدون

وإذا اتجهنا جنوباً فإلى بيت الشيخ بكر نسأل عن صحيح البخاري وإذا اتجهنا غرباً فإلى بيت الشيخ طه نسأل عن كتب الفقه.

ولكنا كنا نقرأ فلا نفهم إلا قليلاً، وكان يغلب على المزاج: الأدب والكتابة الذاتية ونحاول أن نربط أنفسنا بالقاهرة في طموح بالغ إلى العمل بالصحافة وكان الأستاذ محمد إبراهيم الديروطي صاحب جريدة الأماني القومية قد أغراني بالعمل معه فغافلت أهلي ذات مساء لأركب قطار منتصف الليل إلى القاهرة لألتحق بالعمل معه لولا أن من أودعته حقيبتي وشا بي إلى الوالد الذي اقتنصني قبل أن أهم بقطع التذكرة والذي وعدني بأن يصطحبني إلى القاهرة في إجازة الصيف وهناك التقينا بالدكتور زكي مبارك في محل (أسدية الحلواني) حيث حطم مطامحي في العمل بالأدب أو الصحافة ودعاني أن أركز على دراسة علوم التجارة والاقتصاد مما يتفق مع عملي في بنك مصر وكان من فضل الله تبارك وتعالى أن تأخرت في الريف عشر سنين قبل أن ألتحق بالصحافة.

وكانت هذه الفترة قد صهرتني وأعادت تشكيلي النفسي وحولتني من هدف وهمي إلى هدف أصيل حيث اختفت مطامع الكتابة الأدبية وزخرف الصحافة الرخيصة وبرزت الوجهة الإسلامية الحاسمة.

نعم كانت السياسة الأسبوعية، قد نشرت ملخصاً لذلك الكتاب الذي أصدره هاملتون جب (وجهه الإسلام) في ذلك الفصل الذي كتبه الدكتور محمد حسين هيكل الذي كان انتهى لتوه من نشر فصول كتابه (حياة محمد) في ملاحق السياسة وكنا نتابعها منذ اليوم الأول ونهش لها وكان ينشرها مترجمة عن كتاب (إميل درمنجم) ولكنه لم يلبث أن أضاف إليها وعدلها ولم تكن مترجماته عن درمنجم إلا مقدمة لها.

ولم يكن الدكتور هيكل غريباً علي فقد كنت أدمن قراءة الهلال والمقتطف وكنت شغوفاً بمقالة له نشرها تحت عنوان (النور الجديد ـ أيان يكون مطلعه) تنبأ فيها بالصحوة الإسلامية التي سيشرق نورها على العالمين بعد أن فقدت الحضارة الغربية هدفها الروحي وغرقت في المادية وكان ذلك عام

١٩٢٦ وسنى قريباً من العشر سنوات وقد نشر بعد قليل من سقوط الخلافة الإسلامية وتطلع المسلمين إلى أفق جديد ربما تمثل في رسالة الدكتور السنهوري عن ما يسمى عصبة أمم إسلامية بديلاً عن الخلافة وهو ما تطور خلال أربعين سنة إلى المؤتمر الإسلامي والتضامن الإسلامي.

وقد هزني حقاً ما أورده في مقاله الخطير الذي لخص به كتاب (وجهة الإسلام) الذي كتبه المستشرقون الخمسة وعلى رأسهم هاملتون جب والذي كشف خطه الاستشراق في تغريب الإسلام والمسلمين من خلال هذه الدراسة. وكان هذا الكتاب هو نقطة التحول في وجهتي من الدراسات الأدبية الخالصة إلى العمل من أجل مقاومة الغزو الاستشراقي والتغريب وكان هذا كله سؤال ظللت أبحث للإجابة عنه حتى التقيت بالإمام الشهيد حسن البنا الذي صحح إسلامي وإسلام عشرات الألوف من المثقفين حين فهمنا منه ولأول مرة أن الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع، وأننا مطالبون بأن نستعيد تطبيق شريعة الإسلام في مجتمعنا لله خالصاً وهي التي حجبها النفوذ الاستعماري، وأن نرفض الحضارة الغربية لفسادها وإن كنا نقبل منها الجانب العلمي والتجريبي لنضعه في إطار مفهومنا الإسلامي الأصيل.

لقد وجهنا الإمام الشهيد حسن البنا إلى الدعوة إلى تصحيح المفاهيم وتحرير القيم في سبيل بناء المجتمع الإسلامي على منهج القرآن وعن طريق هذا الفهم استطعت أن أجد الإجابة على كل الأسئلة التي كانت تملأ علي مشاعري وكان ذلك هو منطلق عملي الذي ما زلت أواصله منذ أربعين سنة ويعد هذا العمل الذي بين يدي القارىء هو ثمرة هذه الوجهة وهذا المفهوم، هذا وبالله التوفيق.

وقد جعلت وجهتي إلى تأصيل المفاهيم وتحرير القيم من التيارات الوافدة والكشف عن المصادر الزائفة والمغالطات التي تحاول أن تجعل للفلسفة اليونانية وما يتصل بها من فكر باطني ووثني من بقية تراث المجوسية القديمة لإحيائه مرة أخرى على نحو مختلف.



الفصل الثاني



الكتابات الأولى



منذ أربعين سنة أو على وجه التحديد عام **١٩٣٢** نشرت أولى كلماتي في البلاغ وأبولو. كانت كلمتي في البلاغ في الصحيفة الأدبية التي ينشر فيها لطفي جمعة وزكي مبارك وعبدالله عفيفي وسلامه موسى والفضل يذكر لذويه فقد كان الأستاذ إبراهيم المصري هو الذي التقط هذه الكلمات البادئة فأولاها الاهتمام. أما أبولو فقد أعلنت عن عدد خاص عن حافظ إبراهيم ولما كان حافظ إبراهيم قد ولد على ضفاف نهر النيل في ديروط وكان والده مهندساً يتولى بناء قناطر ديروط فقد رأيت في هذا السن الباكر أن أشارك عن البلد التي ولد فيها بكلمة، اعتزازاً بمولد شاعر النيل في بلدنا ولقد ظللنا وقتاً طويلاً نفاخر إخواننا في البلاد الأخرى بهذا الميلاد فكانوا يقولون إذا كان المنفلوطي قد ولد في منفلوط والرافعي في طنطا وزكي مبارك في سنتر يس وطه حسين في عزبة الكيلو بجوار المنيا والعقاد في أسوان فإن ديروط قد أحرزت شرف ولادة حافظ إبراهيم شاعر النيل.

ولا ريب أن هذه الكلمات الأولى منذ أربعين عاماً ترسم نقطة البدء لطريق طويل له مراحل ومنعطفات وعلامات ومواقف.

وأن نظرة سريعة إلى ما وصل إليه القلم اليوم من وضع وما يتصل به من اهتمامات ليسخر أشد السخرية بكل تنبوءات الخيال وتوقعاته في تلك الأيام فقد جال القلم جولة طويلة، وتحول تحولات كبيرة، واقتحم مواقع عدة، وجرى أشواطاً موفقة وأشواطاً أخرى منحرفة حتى بلغ مكانه الذي يكتب منه اليوم هذه الكلمات.

لقد كانت النظرة الأولى ضيقة ساذجة غريرة: نظرة سن تنظر فيه العيون ولكنها لا ترى شيئاً: سن السادسة عشرة.

فكيف بهذا بعد أربعين عاماً: نظرة المسئولية والالتزام والتقدير الكامل لأمانة القلم كانت نظرة المجال البسيط المحدود: كلمة تسري عن النفس أو تخفف عنها عبء الأحلام الغريرة في مواجهة الواقع المرير، كلمة النفس المشوقة المتطلعة إلى آفاق الحياة ومتاعها من أجل تأكيد الذات، أو الإحساس بالسعادة، أو الذكر الحسن. كلمة عابرة تقال، ومن حولها شعور باللامبالاة بشيء، حيث تجري الأمور رخاء، وكل ما فيها يسير إلى غايته.

أما اليوم فقد اتسعت الآفاق: أفاق المعرفة.

وتعمقت المسئولية: مسئولية الكاتب وأمانته.

وانكشفت الأبعاد: أبعاد الأخطار التي تحيط بالأمة وفكرها. فليست الأمور رخاء كما كنا نظن، وليست رسالة القلم كلمة عابرة، أو متاع وطموح.

* * *

عندما أتصور في خاطري كيف بدأت أجدني أجترّ نفسي وأسجل عواطفي ومشاعري، وأنظر حولي فلا أجد إلا دنيا صغيرة، وفكر محدود، وتصور ساذج لدنيا تعج بالأخطار والتحديات، ومن حول مصر استعمار وتبشير واستشراق وتغريب وصهيونية نامية وكلمات ذات بريق وهي تخفي السم، وأسماء تلمع وهي من صنع الغاصبين، وصحف ذات دوي وهي خادمة للولاء الأجنبي، ومذاهب وافدة وأخطار وأهوال...

لم أكن أرى تلك الأبعاد، البعيدة، ولم أخترق بعد تلك الآفاق الواسعة، كنت في حدود النظرية التي تقول: أن بسطاء الناس يتعلقون بالأشخاص، وأكثر منهم وعياً يتعلقون بالأحداث وهناك من تنضجه الأحداث فيصل إلى الامتياز: حيث تشغله الأفكار والقضايا.

وأعتقد أني قطعت هذه المراحل حقيقة، كانت تبهرني الأسماء اللامعة والشخصيات ذات الدوي وكان البريق، والأضواء، يبهر النظر ولقد عايشت (تراجم الأعلام) سنوات وسنوات حتى فهمت أسرار البطولة ومصادر العظمة في الشخصية الإنسانية.

ثم انتقلت إلى الانبهار بالأحداث والمواقف، وبالتاريخ والوقائع ومضيت أدرسها سنوات وسنوات، وأذهب شرقاً وغرباً في سير الأمم والدول والانقلابات والثورات حتى استطعت أن أفهم قوانين المجتمعات وخلفيات الأحداث ثم انتقلت بعد إلى القضايا الكبرى، إلى المذاهب والأيدلوجيات والنظم والقضايا المصيرية، الحاكمة ومعضلات العصر.

ولقد كنت أكون ـ في كل هذه الحلقات والدوائر التي تتسع ثم تتسع ـ مضللاً أو مخدوعاً أو واهماً، أو جارياً وراء الفلسفات والتحديات التي تشد المفكرين وراء التحولات ذات البريق، أو التغيرات ذات الدوي، لولا أنني قد رافقت خلال رحلتي هذه الطويلة كتاباً واحداً /هادياً/ هو القرآن الكريم هو منطلق الفكر الرباني والمصدر الإنساني الوجهة ودليله وضوءه وهاديه، وعليه يجري التحاكم مع مئات الألوف من الكتب والمذاهب والدعوات وبه تجري المفاصلة الحقة، فهو في كفة وحده ومعه كل ما يتصل به أو يجري مجراه، أو يلتمس ضوءه وفي الكفة الأخرى ركام البشرية وحيرتها وضلالها ووثنيتها وأوهامها.

إن الخطوات التي يخطوها الكاتب الطلعة معتمداً على عقله وحده، أو ملتمساً هداه من نيتشه أو فرويد أو هوجو أو روسو أو ماركس، هذه الخطوات لن تدفعه إلا في تيه الضلال والوهم وتصل به إلى الظلمات المرتكسة، التي تملأ القلب فتقفله، وإلى العقل فتضله وإلى النفس فتجعلها تعيش في الحرج والقلق والتمزق دون أن تجد بعد مخرجاً أو منطلقاً إلى نور أو هدى.

وإن الذين صادفهم سوء الطالع فألقى في أيديهم هذه الكتب في مطالع الشباب فلقد تبدد أمنهم وبعدوا عن الطريق وضلوا في تيه الصحراء، لقد

بدأنا جميعاً على كلمة الله حفظناها في الكتاب وعرفناها في المكتب وسمعنا صداها في البيت ورأينا ظلها في قدوة الأب والأم والمعلم والرائد.

غير أن بعضنا أعرض وتقاذفته الموجة العاصفة، بعد أن ألقيت في يديه بعض القصص المترجمة أو بطولات الغرب، أو كلمات حكماء وفلاسفة لم يعيشوا في أرضنا ولم يلتمسوا قضايانا ولم يفهموا روحنا ولم ينطقوا كلمتنا، تلك التي وضعها التغريب في أيدينا لينقلنا من هدى التوحيد إلى ضلال الوثنية، ولقد سقط إخواننا ولم يجدوا نوراً.

قد ينتقل البصر من فن إلى فن، ومن أسلوب إلى أسلوب، وكلما ازداد البحث عمقاً اتسعت الآفاق وبدا أن الفكر الإنساني بحر متلاطم، عميق مهيب، وأن الخوض فيه مخوف مرعب.

ولكن ضوءاً كاشفاً لم يلبث أن ومض في أعماق القلب، فتحول الخوف إلى أمن والظلام إلى نور والضلال إلى هدى، والقلق إلى أمن، كان ذلك الضوء خاطراً من هدى الله، إنك لن تجد طريقك إلا بمصباح السماء ووحي النبي، ومن خلال النص الخالد الموثق: القرآن، فالتمس به الطريق فسوف لا يصعب عليك شيء وسوف تفهم وتستوعب وتهتدي إلى الحق المبين.

إن هناك كتاباً حجزوا أنفسهم في أقماع السمسم فما شاهدوا إلا قطاعاً واحداً من الفكر لم يعدوه فكانت نظرتهم قاصرة، لم يستطيعوا أن يستشرفوا الصورة الكاملة فعاشوا في حدود الأدب أو الوطنية أو الأقليمية أو القومية المجردة، وكان أكبر خطأهم أنهم نظروا بعين الغرب المجزئة، واعتنقوا منهج الانشطارية الوافد وغفلوا عن المنهج العربي الإسلامي الذي يؤمن بالتكامل والتقاء العناصر في وحدة واحدة، هي الإنسان وما كان لهم أن يخرجوا عن سجن الجزئية إلا أن يخرجهم الله بإيمان أعمق ونظرة أوسع وضياء من القرآن.

وفي خلال أربعين عاماً خاض القلم معرفة ضخمة وفي كل يوم كانت تنكشف لي حقائق جديدة، وتفيض مسلمات كاذبة كانت تطرح على أنها هي الحقائق وما دونها أباطيل.

في مجال القراءة والكتابة والرحلة ولقاء الناس والتجربة مع ارتفاع السن تجدد كل شيء، وتغير كل شيء، تجدد من حيث أنه التقى بالأصالة، وتغير من حيث أنه التمس الجذور، وأضاء في النفس ضياء الفطرة والإيمان.

فقد كان التطلع في التماس الحق إلى الله وحده واهب الضياء، وخف الإعجاب ببطولات زائفة، وانكشف من وراء أحداث ضخمة، أهواء وأكاذيب، وبان كيف عاش أناس أعواماً وقروناً على أضاليل وأوهام، سرت مسرى الحقائق وتشكلت حولها آداباً وأخلاقاً وتقاليد، وهي في أصلها زائفة وفي أعماقها ضالة.

كانت نظرتنا محدودة بالأدب القومي ولم يكن الأدب القومي إلا الأدب الإقليمي وكانت فكرتنا تقف عند حدود مصر ومجال الوطنية وقد غفلت عن مفهوم الأمة الإسلامية.

وكانت ثقافتنا قاصرة على الأدب الحديث وقد جهلت روابطها واستمدادها من الأدب العربي والفكر الإسلامي الذي هو منشئها والقائم عليها وكان مفهومنا التمصير للقانون والأدب واللغة وكان ذلك كله من صنع المنهج الوافد والفكر المستغرب والغزو الثقافي.

ثم نظرنا فرأينا امتدادنا في الأمة العربية هو الأفق الأوسع، وانتماءنا إلى العالم الإسلامي هو البعد الأعمق.

وارتباطنا باللغة العربية لغة القرآن على طريق الإسلام هو السور العظيم الذي تتحرك من داخله الوطنيات والقوميات.

لقد تحول المثل الأعلى من النماذج الفردية إلى الفكرة العليا، ومن الزعامات المحلية إلى الزعامة الكبرى، زعامة الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يعد الإعجاب بالناس لأنهم مشهورون أو في مناصب الحكم، بل أصبح الإعجاب بالبطولات المؤمنة التي تعرف حق أمتها وقيمها وربها.

كانت الصحافة موضع الإعجاب ثم تبين أن الصحافة لا بد أن تكون لها رسالة في سبيل بناء الأمة وإنشاء الجيل الجديد المؤمن.

وكان هناك الاستعمار البريطاني والفرنسي، ثم انزاح رويداً، لتتكشف من ورائه الصهيونية الغادرة في ضرباتها منذ **١٩٤٨** إلى **١٩٦٧** كنا قد استكشفنا كلمة التغريب منذ **١٩٣٢** عندما كتب (جب) كتابه (وجهة الإسلام) ولكننا لم نكن نعرف مدى ابعاد التغريب في مجتمعنا العربي الإسلامي، من خلال التبشير والاستشراق والإرساليات والشعوبية والغزو الثقافي.

كنا نظن الأدب هو كل شيء ثم تبين أن الأدب ليس إلا قطاعاً من الفكر وأنه حسب مفهوم الإسلام جزء من الكل المتكامل الذي لا تنفصل فيه الروح عن المادة والقلب عن العقل.

كانت القراءة مضطربة فقد وقعت في أيدينا بقايا موائد الغرب وصراعات الفكر المادي الوثني، وصور التحلل وملامح الإباحة وكلمات الغير، بينما اختفى فكرنا وروحنا وتراثنا واختفت قيمنا وراء ركام من الأوهام والأهواء.

أما اليوم فقد انكشفت طوابعنا وبرزت روحنا وأصبحت في أيدي الأجيال الجديدة نماذج من تراثنا وقيمنا تكشف الطريق الصحيح وتهدي الروح الحائر.

إن المسافة بين اليوم الأول، واليوم المتم للأربعين عاماً تبدو وكأنها شريط طويل، وطريق متعرج، حلقات ودوائر تبدو منقطعة ثم تتسع وتتسع حتى تذهب في أمواج البحر المحيط.

هي في البدأ كما تبدو الآن ساذجة بسيطة، متواضعة، محدودة، كأنها حجر في بناء ضخم، ومن ورائها الطموح والتطلع، والمثابرة والموالاة، والقراءة في كل اتجاه.

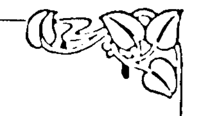
هي في البدأ كما تبدو الآن دعاية ولعبة، وهواية وتخطيط بعصا على الرمال لا هدف له ثم هو اليوم مسئولية كبرى وأمانة عظمى وجهد ومشقة.

هي في البدأ كما تبدو الآن كلمة واحدة، وخفقة قلب، ثم هي اليوم بعد التاريخ الطويل سفر ضخم في أكثر من عشرة آلاف صفحة.

هي في البدأ كما تبدو الآن سطر في صحيفة أو مقال، وربما كتاب ثم هي اليوم بعد ذلك مكتبة تضم عشرة آلاف من كتب جمعت وقرأت.

هي في البدأ مقالة في سطور نشرتها مجلة أو جريدة وهي اليوم مئات المقالات في عشرات الصحف والمجلات وأبحاث تقرأ في الجامعات، ومراجع تذكر في مقدمات الكتب ونهايتها.

* * *



الفصل الثالث

سنوات التهويم

خرجت الفراشة من الشرنقة، بعد أن استقرت فيها حتى بلغت الثلاثين، وفتحت لها الآفاق إلى قلب الكنانة، إلى القاهرة بعد حياة الريف التي امتدت منذ ثارت في النفس رغبة الكتابة والتطلع، ومنذ هرب تحت جنح الليل يركب القطار إلى القاهرة في مجازفة سن العشرين الطموح والمستطلع إلى الغامض المثير، المندفع إلى الإقامة المجهولة بغير زاد، إلا من روح غنية بالإيمان، موفورة الثقة في الهجرة إذا ضاقت الأرض...

غير أن إرادة الحياة ردت المندفع حتى يستكمل، وأعادت الغض حتى ينضج، وحمته في ظلال الريف الحانية فترة أخرى، يقرأ ويتأمل ويعب من جمال الطبيعة، وخبرة الحياة، وينهض بأشق واجبات الحياة، في عمل مليء بالصراع والتجربة ومعاشرة الناس ودراسة الشمائل والأخلاق وقد فتح له باب الكتابة في الصحف التي تصدر قريباً منه فأينع اسمه ولمع، ودرب قلمه واستحصد، ومرن فكره على البحث والقراع، وتفتقت أمامه أساليب الكتابة ومفاهيم الأدب، وكاتب جولاته جولات المس القريب، في متاهات الفكر وقضاياه، ومعارك الصحافة والسياسة وهو يجري هنا وهناك، بين الخاطرة والقصة، والنقد والبحث، لا يعرف أي طريق يسلك ولا أي خط يعمق..

ثم احتواه طابع السن في حديث الداخل إلى الخارج، ومضى يرسم صورة قلبه، ومشاعره، إزاء الحب والحرمان والريف والعقوق، وكأنما ظن أنه لو فتح له الطريق إلى القاهرة لاستطاع أن يشقه غير حاسب حساباً لقوى كثيرة كانت تسيطر على الصحافة، ومفاهيم كثيرة كانت تطوى إليها ذوي

الأقلام، وأن القدرة على التعبير، وسلامة الضمير، لا تكفي وحدها لأن يقول الكاتب الوطني كلمته، وإن وراء الصحف قوى أخرى من الحزبية واليساسة والنفوذ الأجنبي، ما يفرض عليه أن يكون خديماً لها، موالياً، وأن يكون في ركب كاتب كبير أو زعيم، حتى يستطيع أن يظهر ويصل..

لم يكن يعرف هذا كله، ولكنه ظن أن صحيفة صغيرة تصدر في ورقتين وتطبع في روض الفرج مثلاً تستطيع أن تعطيه الشهرة، وغفل عن أنه كان في القاهرة إذ ذاك مائة صحيفة على الأقل مثلها لا يقرأها إلا أصحاب الإعلانات القضائية وفقد الأختام وأن هناك ثلاث صحف أو أربع هي وحدها التي ترسم الصورة وتعطي الشهرة والمال معاً.

ومن هنا كانت الحيلولة دون وروده القاهرة في سن العشرين إلى سن الثلاثين عمل مقدور ومحسوب في حساب المكانة التي ستتاح له حين يصل ويكتب في إحدى خمس صحف كبرى لها مكانها في تقدير الناس، وفي صحيفة يومية وفي ظل هيئة كبرى ترعى وجوده وتحمي كيانه لها طابعها ومن حولها مجموعة ضخمة من القراء.



الفصل الرابع

الحلقة الأولى

لا أدري لماذا أمسكت القلم لأكتب. ثم كيف بحثت عن صحيفة لأنشر كلمتي، وأنا هناك من الريف لست متصلاً بأي أداة من أدوات الكتابة والنشر. كنت أعرف، كنت أحس أن في أعماقي عاطفة معينة أو إحساساً ما، وكنت أجد الراحة أن أفضي به للورق، حيث لم يكن ميسوراً لي أن أفضي به لأحد ممن حولي. لا أدري هل كان فكري قد تهيأ لأقول كلمة في نقد الأدب أو أقول كلمة أصور بها مشاعري وعواطفي. ذلك أنني حين أنظر اليوم إلى الطاقة العريضة التي أعيش فيها مفكراً أو كاتباً، أدهش لسذاجة الفكرة الأولى لإمساكي بالقلم ومدى الأمل الذي كنت أعلقه على كتابة خاطره حول حادث في حياتي أو نفثه حول عاطفة ما. ربما كان خيالي يصور لي أن أكتب هذه الخاطرة كل يوم مصوراً إحساسي إزاء الحياة أو المطالعة أو الحب. حقاً؛ كم كان ضيقاً ذلك المجال أحس كأنما كانت مشاعري خانقة، كأنما تنبعث من فوهة مدخنة طويلة ضيقة إلى الفضاء الرحيب. كم كنت أحس بالراحة بعد أن أكتب الكلمة، النقمة على ضيق المجال في الريف، أو الفقر وقصور جناحي عن التحليق، كان إحساسي بأني أجد الحرية الكاملة حين أقول كلمتي الساذجة في نصف عامود، أو في سطور تمثل يوميات أو خواطر، كان ذلك عام **١٩٣٢** عندما كتبت الكلمة الأولى ساذجة بسيطة، تحمل إحساس الإنسان الحي الذي يريد أن يؤكد ذاته ويقول بين ألوف الأصوات العالية «أنا موجود» وقد تحول هذا المفهوم مع الزمن اليوم إلى «رسالة» ماراً بمراحل طويلة ووقفات خلال ثلاثين عاماً نما فيها العقل، وتأصلت العاطفة، وجرت تجارب وخبرات في مجال العاطفة والعمل والحياة والأدب.

أي بعد بعيد بين تأكيد الذات وبين حمل أمانة رسالة. أي بُعد شاسع بين كلمة عاطفية وبين عمل لبناء أمة، أي بعد واسع بين نفثة شعر وبين رسالة فكر، ماراً بالأدب والصحافة والنقد والتراجم والتاريخ ونافذاً خلال التصوف والفلسفة والدين والعقائد. وجارياً من بين ثنايا المطالعة والدراسة والتجربة والرحلة، وقراءة مئات من آثار الباحثين ولقاء العشرات من المثقفين والدارسين في مختلف المجالات، ودورة كاملة بين فكر الغرب وفكر الشرق وبين القديم والجديد. وفي طريق ممتد من التراث إلى الحضارة خلال ثلاثين عاماً تتصل في رحلة الفكر بين الفراعنة والإغريق والرومان والعرب خلال أكثر من خمسة آلاف عام.

* * *

في مستهل **١٩٣٣** بدأت نفثات بين كلمة عاطفية وكلمة أدبية «حطام» لماذا كتبت تحت عنوان حطام، لعله تأثر بالمازني في عنوان كتابه: حصاد الهشيم أو قبض الريح. هكذا كانت كلماتي تحمل الطابع المهوم المضبب حيث كانت الكلمات تخرج من قرية صغيرة بعيدة عن شريط السكة الحديد، ومن غرفة ساذجة بها سرير سفر، ومائدة صغيرة عليها لمبة جاز نمرة خمسة، والنافذة أمامها متر واحد، هو الطريق ومن بعده غدير ماء يلعب عليه الأطفال وتملأ منه النساء جرارهن..

ذلك وضعي على أحسن حال، بعد الحارة الضيقة، والمنزل المعتم سنوات، الكلمات تخرج من نفس حزينة مليئة بالألم والغربة، والوحشة، متطلعة إلى العاطفة والمجد يتراءى أمامها أشباح حلوة باسمة، ولكنها كالنجوم بعيدة في أغوار السماء، ومن هنا أضفت على الكلمات روح اليأس والحرمان والأشواق المغلفة بالوهم من وراء سبعة عشر عاماً، وكأنما الحياة خضم عريض..

ذلك كان عنوان الكلمات من بعد «في خضم الحياة» ويصدر عدد خاص عن حافظ إبراهيم في أبولو (يوليو **١٩٣٣**) وفيه كلمة تحية من ابن البلد التي ولد حافظ على ضفاف نيلها «ديروط» هذه علامة الارتباط بدنيا

الأدب. وإني لأذكر كيف حاولت من بعد أن ارتبط بجمال الدين الأفغاني فالتقيت مع آخر علم حي رآه وهو الشيخ عبدالقادر المغربي وعشنا ليلة نتحدث عنه وكأنما كان المغربي في تلك الليلة يصل بيني وبينه ويسلمني أمانته، كان ذلك عام ١٩٥٣ وقد توفي المغربي فيما بعد وأحسست أن صلة كبرى قد قامت بيني وبين جمال الدين منذ عرفته وقرأته ولم يكن ينقص هذه الصلة شيئاً إلا أن أسمع حديثه من رجل رآه وحادثه، تلك علامات ساذجة من علامات الارتباط بالأعلام، وفي أعماق الريف حيث الأمل في القاهرة يتبدد مع مرور السنوات التقيت بالشيخ محمد فخرالدين أستاذ العقاد في أسوان في أول القرن فقد جاء الرجل مهاجراً عام ١٩٤٠ من قنابل الحرب العالمية على الإسكندرية وأقام في «القوصية» وبدأت بيني وبينه صلة روحية فقد أحبني الرجل وقرأ بعض آثاري وتمنى لي مكان تلميذه الأول في دنيا الفكر والصحافة..

هكذا كانت الصورة من بعيد، مغلفة بالضباب، ليست شيئاً إلا أن نقول الكلمة، أي كلمة، ماذا كان يجول في العقل أو ما جال في الصدر، أي دعوة، أي رسالة، أي عمل كبير كان يترقب لحظة البروز.

هل كان يكفي أن نجري مع التيار الجاري فنتحدث عن طه حسين والعقاد وهيكل والمازني، عن هؤلاء الذين كانت تلمع أسماؤهم إذ ذاك في بريق خاطف يأخذ بالألباب، أم أن لنا فكرة نقولها أو كلمة نعلنها..

كان لا بد من أن نلتقي بالرجل الذي يهز هذه النفس الغامضة التي تعيش في الضباب، تريد ولا تعرف ما تريد، نعم لم تكن الكتابات التي تنشرها الصحف ولا الأبحاث التي تضمها الكتب، ولا تلك الأحزاب السياسية الصاخبة بمعطية النفس الرائدة شيئاً، هل كنت أريد كتابة كلمة عاطفية، أم قصة، أم مقال سياسي، أم نصف عامود، أم نقد أدبي، أم ترجمة لعظيم.. كل ذلك كان يجول في خاطري ويملأ نفسي.. وقد أمضيت سنوات طويلة أكتب في كل هذه الأبواب، منذ عام ١٩٣٣ إلى عام ١٩٤٠ بين صحف الإنذار والأفكار والوادي والقاهرة والأماني وأسيوط: تلك كانت مرحلة

قضيتها في مناقشات ومساجلات ولم تلبث أن تكونت مدرسة ديروط الأدبية تضم عبدالمتعال الهريدي وأنور الصناديقي ومحمد زكي محمود وأنور الجندي على صفحات جريدة القاهرة التي تصدر في طنطا عام ١٩٤٠.

وهي غير «مدرسة الأفكار» التي تزعمها صديقنا محمد محمود حمدان على صفحات الأفكار وكانت تضم وديع ميخائيل موسى وزينب عبدالرحمن محمد وأنور الجندي وكأنما كنت متصلاً بالمدرستين على بعد ما بينهما من اختلاف طرائق البحث والدراسة فيهما.

أما «مدرسة ديروط» فقد كان طابع الريف واضحاً فيها، كتابها يعيشون تلك الحياة المتطلعة إلى المجد في ظل الأدب يدينون بالحب للرافعي أساساً فهو أستاذهم أو أستاذ أغلبهم (الهريدي وزكي) ولزكي مبارك مكانة وأثر وللمدرسة طابع إيمان بالتراث والفكر الإسلامي وبلاغة الأسلوب ومقومات أمتنا وأمجادها تبرز في كتابات الهريدي والجندي من بعد، والرصانة في العرض هي سمت أسلوب زكي الذي يجنح إلى ابن شبرمة وغيره من أعلام الأدب، أما الصناديقي فهو صاحب أعظم مكتبة في ديروط، كان الأدب بالنسبة له مصدر المتاعب مع والده الثري تاجر الأثاث المشهور، وهو القارىء الباحث الذي يمضي طوال يومه مكباً على كتاب، ولعل أبسط ما يصور هذه المرحلة في حياة الكاتب أنها مرحلة الاندفاع العاطفية المبهمة المهومة وراء مشاعر الذات والحب، ووراء نزق الجدل والهجاء في أقصى صوره، فلقد كانت تشغلنا إذ ذاك معارك السياسة وأهاجيها، وتدفعنا إلى أن نقلدها في خصومات تستمد وقودها من عبارات العقاد وزكي مبارك وطه حسين. . . ولقد وقعت سقطات مع زكي وحمدان، ننظر إليها اليوم في ضيق شديد وتمني لو أنها لم تقع، وإن كانت النفوس قد غفرت هفواتها إلا أنها لا تزال تمثل اندفاعة القلم في سبيل الاستعلاء أو الغلبة بأسوأ وسائل الغلبة. .

ذلك أن الإحساس بالبقاء في الريف، وانسداد الأبواب أمام الآمال المعلقة، وامتلاء النفس بالأزمة والضيق والحرمان كل هذا كان يدفع القلم إلى غير طبيعتة الأصيلة. .

فقد انطوت هذه الصفحة ومضت، وتكشف من بعد أننا كنا تحت تأثير مباشر لحماقات الدكتور زكي مبارك ومعاركه وكلماته القاسية، في مرحلة يتأثر فيها الكاتب الناشيء كاتباً كأن له عليه إثارة فضل في خطاب رفيق أو دعوة تشجيع.

فإذا ما مرت هذه المرحلة تكشفت النفس عن طبيعتها الأصيلة وهي عازفة عن الكلمة المؤذية، كارهة لها، راغبة في أن تقول دائماً الكلمة الطيبة، دون أن يفقدها ذلك قدرتها على الحق والنقد.

ثم يكون ذلك اللقاء العاطر مع الأستاذ الموجه المرشد، هنالك تذوب تلك الفقاعات التي على السطح، وتتبدى الطبيعة الأصيلة نقية مشرقة، كالفضة، تتلألأ بضياء جديد من نور الحقيقة وهدى الجمال والخير. . وتنطوي صفحة كاملة بخيرها وشرها.



الفصل الخامس

نقطة البدء



ـ ١ ـ

إن نقطة البدء في الذهنية التي انبثقت في أعماقي منذ مطالع الصبا، كانت نقطة تحدي. هذه الفكرة ما زالت هي التي تدفعني إلى اليوم، كان ذلك وأنا في سن السابعة عشرة حينما هتفت أدعو إلى مذهب «الرجل الديني المدني».

كانت منابع هذه الكلمة تتصل بقراءاتي المتعددة لحملات التغريب، لم أكن أفهم يومها أنني أحمل لواء رسالة أو أستهدف عملاً معيناً، كنت أظن أن جوهر فكرنا العربي الإسلامي يوشك أن يتبدد أو يضيع أو يختنق تحت ركام من الحملات العنيفة والصرخات المدوية في صحف ضخمة فخمة، ومجلات رائعة الطباعة، كلها مجندة لذلك العمل الخطير «تغريب الشرق» وإنماء حركة شعوبية تمتلىء بالحقد والكراهية وتنفث السم وتضع مخالبها الحمراء الدامية داخل قفازات حريرية لامعة، ذلك النموذج الذي ظل الحقد يملأ نفسه وقلمه يجري على الورقة خمسين عاماً، حقد قوامه تعصب ضد الإسلام والعروبة والقرآن والتراث والشرق والتاريخ واللغة. ولكنه مع ذلك ظل هادئاً دقيقاً يهدم في رفق كل يوم طوبة، يراوغ ويخدع، ويرتفع ويهبط ويندفع ويتهاوت كالثعلب. مثابراً لا يكل ولا يمل، بنقل كلمة من صحيفة إلى مجلة إلى كتاب إلى محاضرة. . . يغلفها بكلمات الحضارة والمدنية والتطور والتجدد. .

وغيره ثان وثالث، (سلامة موسى. طه حسين. إسماعيل مطهر) وهم في مظهر الأمر مختلفون متصارعون، ولكنهم هدامون، ينتقلون من موضوع إلى

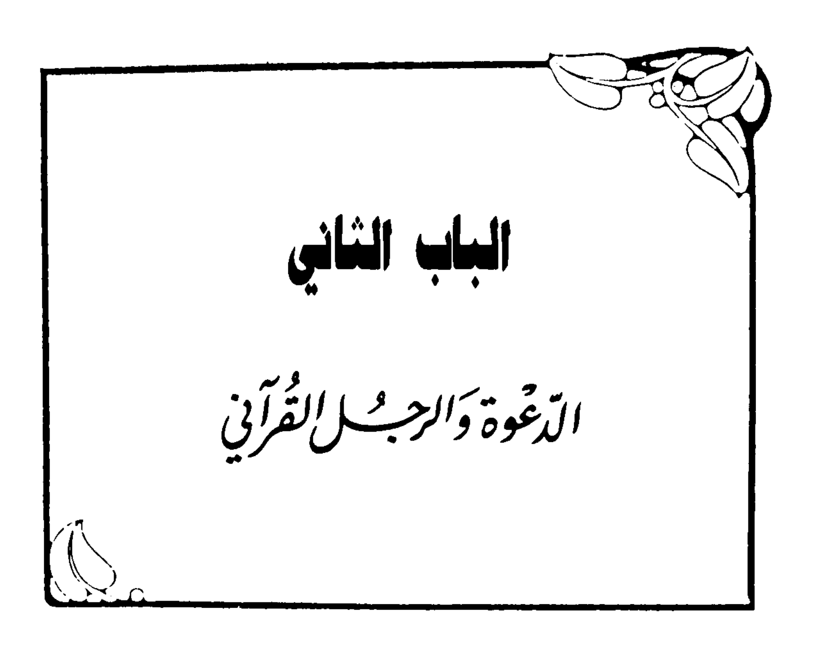
آخر، ومن فكرة إلى أخرى، وقوام الهدف كله القضاء على «أساس» الفكر العربي الإسلامي ونخره والتشكيك فيه وإثارة الشبهات حوله، وتحويل الفكر عنه لأنه قديم وجامد وتراث العصور الوسطى ومعوق عن الحضارة والنهضة.

بدأت نظرتي تتكون عام ١٩٣٢. كانت الرؤيا أمامي ضعيفة، كنت أحاول أن أقول بالأقليمية والأدب المصري ولكني كنت أرى أدبنا كله أدب ميوعة وضعف. حتى عام ١٩٤٠ عندما بدأت نظرتي تستقر على «صوره» و «فكره».

وبدأت أفهم عمق التيار الضخم.

ووقفت على محطة أسيوط أسأل إماماً كبيراً: هل قرأ كتاب جب «وجه الإسلام» ولقد لفت نظري إليه الدكتور هيكل في مقاله الرائع، فأسرعت باقتنائه. هنالك وجدت الحلقة المفرغة؛ هذا الذي يجري كله محاولة لتغريب الشرق، العرب، الإسلام، وعرفت المؤامرة الضخمة، وبدأت أقف في الصف، هذا قلمي عدتي وسلاحي من أجل مقاومة النفوذ الفكري الأجنبي والغزو الثقافي غير أني لم أتبين الطريق فوراً. وكان علي أن أخوض في بحر لجي ثلاثون عاماً كانت وجهتي الأدب ولكني كنت لا أنسى ذلك الشيء الخفي الذي يتحرك في الأعماق، هذه الدعوة التغريبية في مدها وجزرها، في تحولها وتطورها، في كتابات المبشرين والمستشرقين والمستغربين، وكلها تنصب على هدم: الإسلام واللغة العربية وتمزيق وحدة هذه الأمة وتحويلها إلى شيء مبهم غامض ضائع تابع للفكر الغربي.

ولم تذهب كلمة «مذهب الرجل الديني المدني» منذ ١٩٣٢ ولكنها تحولت إلى المدرسة الوسطى ١٩٥٢ وإلى «البناء على الأساس» ١٩٥٩.



الباب الثاني

الدعوة والرجل القرآني



- ١ -

صححت إسلامي:

لقد نشأت أساساً في بيئة قاصرة عن فهم الإسلام فهماً صحيحاً. كان هذا الفهم قاصراً على أساس أن الإسلام دين عبادة ومساجد وأن السياسة منفصلة عن الدين ولم يمنع هذا الفهم القاصر الموروث من أن نضطرب في محيط السياسة الحزبية وتتقاذفنا أمواجها الصخابة، فنتصارع ونفترق ويصل هذا إلى أبعد الحدود في الخصومة والخلاف.

ذلك لأن الاستعمار كان يحرص على أن ينقلنا من الجو الإسلامي الأصيل إلى جو مشبع بالشهوات والآثام والخلافات فيتقلص في أنفسنا ذلك المعنى الإسلامي الصافي الذي وصل إلى حدود ضيقة من العبادات الشكلية فكان قومنا جميعاً في حاجة إلى أن يصححوا إسلامهم سواء من اندفعوا في الاتجاه الحزبي أو الاتجاه الآخر: اتجاه الزهادة والاعتكاف.

كلنا في حاجة إلى تصحيح إسلامنا:

وكذلك الذين اندفعوا وراء مذاهب الغربيين والمبشرين والمستشرقين والذين خدعوا بآرائهم الإلحادية المارقة الخاطفة، فتنكروا للإسلام ولتاريخه وأمجاده ونظامه.

والذين ملأت نفوسهم مغريات الحضارة الغربية بآثامها وشهواتها فاندفعوا وراء مظاهرها وأضوائها واندمجوا في جوها الملبد بالمنكر والفجور وما وراء ذلك.

وكذلك الذين فهموا الإسلام على أنه دين عبادة منفصل عن السياسة والاجتماع والاقتصاد والجهاد.

والذين فهموا القضية الوطنية هذا الفهم القاصر على التنابذ والتناحر ومحاورة الغاصب والتطلع إلى كراسي الحكم ومعالجة القضية المصرية عن طريق المفاوضات.

والفهم القومي المحدود بحدود الوطن الضيقة والتعالي بهذه النعرة المصرية أو الشامية أو العربية.

والفهم الاجتماعي المندفع وراء تلك الحضارة الآثمة المتبرجة والذي كان يعمل على تقبلها جميعها خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يحمد منها وما يعاب.

والفهم الاقتصادي للإسلام القائم على القناعة بالقليل وترك الغنى والثروة لليهود والأجانب.

والعجز عن الدفاع عن الأوطان وحماية الثغور.

كل هذا كان في حاجة إلى تصحيح.

وكانت دعوة الإخوان منذ مطلع فجرها نوراً يهدي إلى الطريق وبلسم يشفي المريض ورياً للصادي وقوة تتقد إلى الجسد الضعيف فتوقظه وتحييه.

لقد قدمت الدعوة مقاييس جديدة في السياسة والاجتماع والأخلاق فقد نظر أصحاب الدعوة الإسلامية ومصنفيها إلى الحياة نظرة مستمدة من دينهم الكريم ونظامهم العظيم فأنكروا كل عرف يتعارض مع مثلها العليا.

هذه المقاييس ما تزال حديثة مع الناس وهي عماد النهضة الجديد ومطلع الفجر الصادق لذلك اليوم الأغر الذي ترقبه الإنسانية يطلع عليها من الشرق.

ـ ٢ ـ

وجاء يوم اللقاء:

كنت إذ ذاك منصرفاً إلى بعض دراسات أدبية واجتماعية حديثة يتصل بعضها بالحضارة الغربية وبالأفكار الجديدة التي بثها حولنا من سموهم كتاب العصر ممن تتلمذوا على بعض المستشرقين وكان قد طال بي المطاف حول هذه المعاني سنوات عدة وأخذت أتابع في عزلتي في الريف بعض صور الحياة التي تنشرها الصحف عن رواد الصالونات والمسارح ممن يدعون أنهم قادة الفكر وزعماء الجيل فيأخذني العجب.

وأسائل نفسي كيف يمكن أن يستقيم الأمر.

وكنت قد اتصلت قبلاً بالطرق الصوفية فلم تشف غليل نفسي، المتطلعة إلى العلاج الواضح للفرد والجماعة معاً وأخذت عليها روح الانكماش والعزلة والقصور في الميادين العلمية.

واتصلت بالأحزاب فترة ثم انصرفت عنها كارهاً ناقماً مما رأيت من أسلوب في الحوار أقرب إلى الهجاء.

أما الكتب القديمة فهي تقبض النفوس والكتب الجديدة لا هم لها إلا جوانب الإباحة وقصص الإثم وفصول التقحم على الإسلام وتاريخه وكنت أبحث عن القائد والزعيم لهذه الأمة يردها عن هذا الطريق الذي كاد يحرفها إلى الهاوية وأسأل أين ذلك «المنهاج» فلا أجد من يدلني، فكنت طالباً يترقب أستاذه وجندياً يبحث عن قائده.

ثم سرت شوطاً طويلاً في دراسة التاريخ الإسلامي ولكن على غير هدى من غاية محددة أو وجهة واضحة.

فلما التقيت به أحسست كأني كنت أعرفه من قبل وقد استقر في نفسي منذ اللحظة الأولى وطغى على مخلفات عشر سنين من الرؤى والخيالات والمذاهب والأفكار.

وجاء دوره على منصة الخطابة.

رجل هادىء يتكلم بلغة فصيحة بليغة سهلة الوصول إلى كل القلوب ترضي المثقفين ولا تعلو على أفهام المتوسطين والعامة، لا يرتفع صوته ولا يضرب بيده، ولكنه مع ذلك يأخذ بالألباب ويملأ النفس تأثيراً ويثير في أعماقها إحساساً بالأمل والحياة ويفتح أمامها باب السعادة والرجاء في الاتصال بالله تبارك وتعالى.

رباه: لقد وجدت الأستاذ وعرفنا الهدف: أن المصباح الذي يحمله هذا الرجل قد كشف لنا عن الطريق فما تردها وعورته ولا طوله وإنما نعرف أن الزمن كفيل بالوصول إليه وأن قلوبنا وأرواحنا رخيصة في سبيله.

ـ ٣ ـ

منذ اليوم الأول الذي التقيت فيه بالأستاذ حسن البنا كان الطريق قد انفتح أمامي للإجابة على الأسئلة الهامة التي كانت تدور في نفسي حول نهضة المسلمين وتاريخهم وعقيدتهم ومختلف مشاكلهم.

ولقد كان من أول ما سألته عنه كتاب «هاملتون جب» وجهة الإسلام بعد أن قرأت ملخصه مترجماً بقلم الدكتور محمد حسين هيكل ثم يتبين لي أن هذا الأمر لم يفاجئه فقد كان قد أعدّ العدة لمواجهة تلك القضية الخطيرة التي أثارها جب وهي قصة تغريب الإسلام والمسلمين. وكان الأستاذ البنا قد ألف رسالة صغيرة متواضعة في حجمها ولكنها غنية في معطياتها تحت اسم (بين الأمس واليوم) تعرض لهذه القضية.

ولما أن بدأت أكتب في صحف الإخوان عام **١٩٤٦** كانت تلك هي قضيتي الأولى التي شغلت بها. جاءني ذات صباح الأستاذ عبده قاسم السكرتير العام للإخوان وأطلعني على كتاب صدر في ذلك الصباح تحت عنوان: (الإخوان المسلمون في الميزان) لكاتب ماركسي مضلل وأبديت رغبتي في أن أدحض أكاذيبه وذهبنا معاً إلى الأستاذ البنا رضوان الله عليه، الذي أسعدتني كلماته وكانت منطلقاً لذلك الخط الذي مضيت فيه حتى اليوم في

مواجهة الفكر الوافد، وقد حملني الأمانة كاملة لدور رآني هو صالحاً لأدائه والقيام به وأشهد الله أنني ما توانيت لحظة منذ تلك اللحظة. وصدر كتابي (الإخوان المسلمون في ميزان الحق).

ولقد انتدبني أكثر من مرة لأواجه مراحل في تاريخ الوطنية المصرية كانت غارقة في التبعية والولاء الأجنبي، فنهضت بها ومن ذلك اليوم عرفت التردد على دار الكتب والبحث في الصحف القديمة ومواجهة هذه المواقف وعرضها على ضوء الإسلام، كانت كلماتي تحت عنوان «يجب أن تعلم» وأثارت ضجة كبيرة وكنت أطلعه عليها يوماً بعد يوم قبل أن تنزل إلى المطبعة فكان يضيف إليها ويحذف منها، وكنت إزاء ذلك أكشف تاريخاً مليئاً بالولاء الأجنبي لأحزاب كانت تدعي الوطنية.

ومن ثم جاءت دراستي الواسعة عن السياسة المصرية وعن قادتها وفي مقدمتهم سعد زغلول ولطفي السيد وعلاقة ذلك بالاستعمار البريطاني وهي دراسة أزعجت دوائر الاستعمار وكشفت عن حقائق كثيرة وكانت القنبلة التي تفجرت هي كتابي «اخرجوا من بلادنا» الذي أزعج السلطات البريطانية التي كانت ما تزال عام ١٩٤٧ جاثمة على صدر القاهرة فذهبوا في عنف شديد يصادرون الكتاب، وقد أزعجتهم الصورة التي رسمها الرسام الدكتور عبدالمجيد وافي لجوال مسلم يلقي بالإنجليز في البحر الأبيض.

ولم أغفل عن أمرين في الدعوة:

أولاً: خطوات الإسلام الكاسحة في العودة إلى الأصالة وتكوين الأجيال الجديدة التي تفهمه على حقيقة منهج حياة ونظام مجتمع فكان كتابي (الإسلام يزحف إلى قواعده).

ثانياً: مهاجمة الحضارة الغربية والكشف عن زيفها ودمارها التي توشك أن تسقط فيه فكان كتابي (انهيار الحضارة الغربية).

ولكن الشيء الذي كان أهم من ذلك حقيقة هو مواجهة التغريب في حلقات متصلة.

الرجل

سأبكيك ما فاضت دموعي فإن تغض   فحسبك مني ما تكن الجوارح

دخل الدكتور عبدالمنعم البهي قاعة المطالعة بمعهد الدراسات العربية العالية للبحث عن نص وكنت موجوداً فيها فإذا هو ييمم نحوي ويقتحم الحديث معي اقتحاماً قائلاً:

ـ هلا كتبت سيرة الإمام الشهيد حسن البنا وأنت أهل لذلك وأعرف الناس به.

ودهشت إذ ما كنت أتصور أن هناك من يعرف صلتي بالإمام الشهيد وقلت ـ وأنا أسرح بخيالي ـ أترى ذلك؟.

قال: نعم، أنت أحق الناس بذلك لعمق صلتك بالإمام الشهيد. وأحسست أنها دعوة من الله تبارك وتعالى إلى آداء هذا الحق للرجل الذي هدانا إلى طريق الله.

وكانت الدنيا حالكة الظلام والدعوة تواجه أخطر امتحاناتها على يد حركة الجيش، من معتقل ومقتول، وكان لا بد من عمل شيء فكان أن جمعت آراء الأستاذ البنا ومناهجه وأعدت ترتيبها من جديد على نحو يشكل (أيدلوجية كاملة) ولما كان نشرها في مصر غير ممكن ونشرها باسمي غير مستطاع فقد عنونتها بعنوان غامض هو (حسن البنا يتحدث إلى شباب الإسلام اليوم) وكان ذلك عام ١٩٦٥ تقريباً.

ولقد ظللت سبعة عشر عاماً وأنا لا أستطيع أن أؤدي حق هذا الرجل

علي فقد كنت أكتب عن كل من حمل القيم وأتحرق شوقاً لأن أكتب عنه وقد كان من المستحيل الكتابة عنه أو إذاعة ما يمكن أن يكتب عنه حتى أرسل لي أخ مسلم من ناشري العرب فأخذت في إعداد هذه الدراسة ولكن بعد أن كتبت عن كل المجاهدين الذين عملوا في هذا الميدان وأنا أطوي في نفسي الشوق والحسرة على عجزي عن آداء هذا الحق للرجل الذي كان له أكبر الأثر في تكويني وتوجيهي إلى فهم الإسلام فهماً حقيقياً وشاء الله أن ينفسح المجال وأن تزول الغمة وأن أكتب عنه مؤلفاً يزدهي ويفوق ما كتب العقاد عن سعد زغلول وأن يتصدر أعلام القرن الرابع عشر.

(إن ربي لطيف لما يشاء).

مهمة الكاتب المسلم

ما هو التحول الخطير الذي أحدثته الدعوة الإسلامية لصاحب هـذا القلم بعد أن اعتنق عقيدتها ومفاهيمها، لقد جاء هذا التحول بعد فترة من الاندفاع في الطريق المرسوم الذي وجدناه قائماً فلم يكن لنا إلا أن نتحرك في إطاره، نعم كانت هناك خلفية وجدانية تشكلت بعد الالتقاء بالرجل الذي حمل لنا هذه الدعوة ودخل بها إلى بيوتنا وديارنا ولم ينتظر حتى نسعى نحن إليه، ولكننا في هذه المرحلة كنا عاطفيين ووجدانيين لم نلمس بعد مدى الخطر الذي يجتاح بلادنا ويجتاح الفكر والثقافة والذي يتطلب منها اتخاذ مـوقف، ويتطلب ذلك أساساً من الكتاب والصحفيين والعاملين في حقل الثقافة فقد كان الخطر كل الخطر، هو الكامن في التعليم والتربية والثقافة.

وقد مضت هذه السنوات القلائل قبل أن تأتي القارعـة التي أطاحت بذلك الوجود الاجتماعي المتمثل في هيئة قويـة لها كيـانها القوي في مختلف مجالات الاقتصاد والاجتماع والصحافة والكتابـة، فكان هـذا الحدث بمثـابة امتحان خطير لهؤلاء المؤمنين بالدعوة الإسلامية والذين كان عليهم أن يقاتلوا في سبيل تثبيت قيمها.

في هذه المرحلة بعد العاصفة كان يغلب علينا أمر واحد هو البحث عن مورد الرزق فكان علينا أن نختلط بالمجتمع المغـرب الملغم في كل جـوانبه بألغام الغزو الفكري وكان علينا أن نمضي على هذا الطريق حتى نثبت أقدامنا وفي هذه المرحلة كـانت لنا أخـطاء في متابعـة التيار الغـالب سواء في فهم الشخصيات التاريخية (أمثال السلطان عبدالحميد أو مدحت، أو الشخصيات

المعاصرة) (أمثال غاندي ونهرو) أو بالنسبة لأناس عرفناهم من أهل العصر (أمثال سعد زغلول ولطفي السيد) أم من العاملين في الصحافة وممن أسدوا إلينا بعض الخدمات (أمثال زكي عبدالقادر ومصطفى أمين) فقد اختلفت الوجهة.

ثم جاء الوقت الخطير الحاسم الذي فرض علينا أن ندع كل العواطف الخاصة والأهواء الشخصية، وأن ننظر إلى واقع الأمة من خلال مفهوم الدعوة الإسلامية، وإعادة تقييم الحركة الأدبية والفكرية والاجتماعية كلها منذ جمال الدين ومحمد عبده والأحزاب وتحرير المرأة ونحقق القضايا المتصلة بذلك كله، وإعادة تقييمها من وجهة نظر الإسلام.

وكان هذا هو المأزق الخطير الذي كان لا بد للكاتب المسلم أن يقف منه موقف الحسم وأن يتجاوز عواطفه وصداقاته في بعض مراحل حياته السابقة.

ذلك أن مفهوم الدعوة الإسلامية لم يكن مجرد تصور يجري في ذلك الطريق الذي رسمه النفوذ الأجنبي والتغريب خلال أكثر من مائة عام ولكنه كان مفهوماً مختلفاً، كانت مقولة الدعوة الإسلامية بأن الإسلام دين ونظام مجتمع، ومنهج حياة، دين ودولة، سياسة وحكم تعرض مفهوماً مختلفاً لعشرات القضايا والمشاكل المثارة بل إنه يقدم تصوراً كاملاً يحملنا على معارضة التصور القائم الذي فرضه النفوذ الأجنبي منذ سيطر على بلادنا وأقام في داخل القوى الإسلامية للآن: المدرسة والمحكمة والمصرف والصحافة والثقافة.

ومن هنا فقد كان على الكاتب المسلم أن يواجه خطراً مسيطراً هو (التغريب) والغزو الثقافي؛ وهو جملة ما حاول النفوذ الأجنبي عن طريق الاستشراق والتبشير إذاعته وفرضه على مناهج التعليم ومن خلال الصحافة ومن خلال الثقافة واللغة والقصة والمسرح وأدوات التسلية في حرب معلنة خطيرة قام بها النفوذ الأجنبي وأسماها (حزب الكلمة) في محاولة لإخراج المسلمين من مفهوم الإسلام واحتوائهم في إطار الثقافة العالمية المسيطرة التي

فرضها الغرب (بشقيه) على بلاد الإسلام والمستمدة عن التراث اليوناني والقانون الروماني، ومفاهيم اليهودية والمسيحية التي تبلورت من بعد فيما يسمى (الفكر الماسوني) التي تصورها بروتوكولات صهيون.

تلك هي الصور التي عاشها الكاتب المسلم والتي كان عليه أن يحمل رايتها ويحارب تحت لوائها عمره كله، لا يتوقف ولا يتردد ولا يتراجع وأن يجرد نفسه لها وأن يجعلها غايته الأولى والأخيرة. فهل استطاع الكاتب المسلم أن يفلح في أن يقوم بواجب العهد والميثاق للعقيدة الجامعة للإسلام بوصفه ديناً ودولة ومنهج حياة ونظام مجتمع.

وإحقاقاً للحق فإن الكاتب المسلم الذي بدأ يعمل بعد الحرب العالمية الثانية **١٩٤٦** والذي تأكدت له مخاطر الغزو بعد سيطرة النفوذ الماركسي على أجهزة الإعلام والصحافة والمسرح في مصر بعد عام **١٩٦٢** لا بد أن يذكر بالتقدير والإعزاز الدور الخطير الذي قام به الأبرار الذين سبقوا على الطريق والذين فتحوا الأبواب أمام حركة التصحيح الإسلامية الكبرى.

فنحن لسنا إلا حلقة من سلسلة طويلة المدى تمتد منذ أيام ابن حنبل والشافعي والغزالي وابن تيمية والتي لم تقطع أبداً، وإن ضعفت في فترة من الفترات ثم عادت إلى الظهور.

ولقد كان يتمثل لي في ساعة من ساعات الفكر والتدبر قصة ترجمة التراث اليوناني في العصر العباسي.



الباب الثالث

المرحلة المضطربة





الفصل الأول

المرحلة المضطربة

بعد أن شكلت الدعوة الإسلامية فكري وحياتي وأقامت لي منهجاً فكرياً وروحياً جامعاً على هذا النحو الذي تكشف عنه كتاباتي في هذه المرحلة السابقة، كان علي أن أواجه جواً عاصفاً مضطرباً كل الاضطراب.

صناعة القلم الموجه إلى أن تكون كلمة الله هي العليا قد فرضت نفسها علي في المرحلة الجديدة.

لقد وجهت إلى الدعوة الإسلامية ضربة قاصمة فأطاحت بهذه المؤسسة الضخمة، صحافتها ومؤسساتها ورجالها ووجهت إليها الاتهامات وأصبح هذا الرعيل الأول كله مقسماً بين جماعة ينتظرون المحاكمات وجماعة محجوزون وراء الأسوار وجماعة اختاروا أن يهاجروا في سبيل الله ليفتح الله عليهم في بلاد الإسلام الواسعة سبيلاً وذهبنا وراء الأسوار عاماً كاملاً ثم عدنا إلى الحياة نحاول أن نلتمس فيها رزقاً وموردا.

وكان علينا أن نتأقلم مع المجتمع وصحافته وتياراته فما زال هو مجتمع الأحزاب السياسية المتصارعة في ظل الملكية المستبدة والنفوذ البريطاني المسيطر..

ولم يطل الأمر إلا قليلاً حتى حدث الانقلاب العسكري الذي قام به رجال الجيش، لقد كنا نتطلع إلى فجر جديد سيحدث في مصر منذ استشهد الإمام حسن البنا وزلزلت الأرض كانت الآمال ما تزال تملأ الصدور بعصر جديد، وكانت الدعوة الإسلامية قد مهدت الأرض لنظام يعلو فيه صوت

الإسلام، دعوة إلى الحكم بكتاب الله، وكانت قوى كثيرة تعمل، وكلها طامعة في أن تحقق السيطرة على الوطن.

وكانت هناك صلات بين الدعوة الإسلامية ورجال الجيش، وقد قام الشراة من الإخوان بحماية الحركة ليلة بدأها وكان معروف أن طريقها هو طريق الإسلام.

ولذلك كانت فرحتنا بها كبيرة، وكان تأييدنا لها في المراحل الأولى بناء على هذه الوعود المعقودة على الحكم بكتاب الله.

ولكن القوم كانوا يبيتون غير ذلك، وسرعان ما غدروا وتكشفت خططهم عن تحول خطير في أسلوب الحكم وفي مواجهة رجال الدعوة الذين عاهدوهم وآزروهم وكان لا بد من خطة تمكن هذا القلم من الاستمرار في دعوته وأمانته دون أن تصدمه الصدمات أو تعوقه المعوقات.

ونظرت فوجدت عشرات من القضايا في حاجة إلى دراسة وعرض وتناول بعيداً عن القضية الأساسية التي توقف الكلام فيها تماماً.

وكان لا بد من الاستفادة من القنوات الجديدة التي فتحت في سبيل العمل لتجديد التراث الإسلامي ودراسة أعلام الوطنية والكفاح والنضال الوطني والقومي والإسلامي، ودراسة الحركات الإسلامية التي توالت منذ دعوة الشيخ محمد عبده إلى المهدي والسنوسي إلى جمال الدين ومحمد عبده والحزب الوطني وحزب الإصلاح والسلفيين وكذلك دراسة حياة وأعمال عشرات من الأدباء والمفكرين والصحفيين وكانت الدعوة إلى الوحدة العربية قد أتاحت لنا العمل على كتابة تاريخ الأدب العربي الحديث والمعاصر من الخليج إلى المحيط بعد أن كان يدرس إقليمياً في كل قطر على حدة.

وهكذا كان تاريخ الأدب العربي، ودراسة أعلام العرب مجالاً واسعاً أتاح لي فرصاً واسعة للعمل وتغطية شاملة، امتدت سنوات طويلة فكنت أواصل عملي في قلعة صلاح الدين حيث توجد دوريات الصحف، وهو ميدان خصب جدير بأن يختص به كل باحث ومفكر ولقد استطاع استدراج

عدد كبير من المصنفين إلى هذا المجال من هؤلاء الأستاذ أحمد حسين مؤسس مصر الفتاة والدكتور محمد صبري السربوني الذي جمع لأحمد شوقي أربعة آلاف بيت من الشعر كانت مبثوثة في الصحف (المؤيد، اللواء، العلم، الشعب.. إلخ) وكان من الضروري أن أدرس هذه الفترة من خلال الصحف لأكتشف هذه المرحلة الخطيرة في تاريخ مصر والبلاد العربية والعالم الإسلامي منذ قدم جمال الدين إلى مصر إلى اليوم واستطعت فعلاً أن أقدم في هذا المجال عدداً من الأعمال النافعة في مقدمتها (الشرق في فجر اليقظة) حيث تناولت فيها مختلف المؤسسات التي كانت تحفل بالنشاط في هذا العصر (الأزهر والمدارس العليا، ومكاتب المحامين، ودور الصحف، والأطباء، إلخ) وأوليت[1] دراسات الأعلام جهداً واسعاً وتتبعت عدداً من هؤلاء في بيوتهم وآثارهم التي خلفوها بين أهليهم، ثم اتجهت إلى أعلام الإسلام فأخذت أدرس قممها.

أما عملي في الصحافة فقد كان شيئاً غريباً كل الغرابة لقد التحقت بالصحافة اليومية، ولكني عجزت أن أحقق فيها تقدماً واضحاً، فإني لم أستطع أن أنطوي مع أجواء الصحافة ولذلك ظللت سنوات طويلة على هامشها، لا أستطيع أن أحرز مركزاً مرموقاً فيها، ذلك أنني عجزت عن التحرر من القيم إلى شكلتني ففضلت أن أعمل في الأعمال التي لا تتطلب مني تعبير مفاهيمي وكانت الصحافة في ذلك الوقت ميداناً خطيراً حافلاً بالتيارات وكان على الذين يريدون التبريز فيه أن يكتبوا على الوجهة التي يطلبها الحاكمون.

لم أستطع أن أعق فطرتي وعقيدتي ووجهتي فعشت في الظل طويلاً مجهولاً، لا أكتب إلا حول التراجم والأدب من خلال الاتجاه القومي الذي كان يذهب إلى غاياته وقد أفدت من ذلك أنني وسعت دائرة الأدب ودراسة الأعلام فجعلتها حول العروبة بعد أن كانت قاصرة على الإقليم.

---

(١) راجع: (صفحات مجهولة من الأدب العربي المعاصر).

ولكن ذلك لم يمنعني من أن أكتب عن القومية العربية وأعالج مشاكلها وقضاياها ومستقبلها.

وهو عمل أظهرني أمام كثير من الباحثين على أنني من القوميين ولكني فصلت الأمر في ذلك من بعد وكشفت عن الفوارق العميقة بين مفهوم العروبة القومي الأصيل الذي ظهر بعد سقوط الخلافة وتبناه كبار الدعاة أمثال شكيب إرسلان ورشيد رضا ومحب الدين الخطيب وهو مختلف تماماً عن المفهوم الذي سيطر من بعد وهو مفهوم ساطع الحصري وميشيل عفلق.

ولما سألني شيخنا العالم الجليل الشيخ عبدالعزيز بن باز قلت له: لقد كانت العروبة هي الطاقة الوحيدة المفتوحة لنا كمسلمين لنتناجى منها ونتحدث عن تاريخنا وقيمنا وتراثنا ولم يكن لنا نافذة غيرها ولكن الأمور لم تستمر طويلاً على هذا النحو فإن تجربة امتلاك الماركسيين للإعلام (صحافة ومسرح وإذاعة وتلفزيون) كانت قد فتحت ثغرة إسلامية في جدار الحكم فكانت مجلة (منبر الإسلام) هي الملاذ الذي لاذ به هؤلاء العاملون في الحقل الإسلامي في مصر في ذلك الوقت حيث رؤي أن يكون هناك تيار موازن.

ولقد اقتحمت هذا الميدان بقوة وكشفت عن المؤامرات التي تواجه الإسلام وبدأت أعاود الكتابة عن التغريب عام **١٩٦٣** بعد أن توقف ذلك الحديث منذ **١٩٤٨** (خمسة عشر عاماً) واتسع النطاق فواجهنا معركة الغزو الفكري وكان ذلك بمثابة استعادة للدور الذي وهبته قلمي فكتبت خلال عشر سنوات تفاصيل واسعة لمختلف القضايا الفكرية الإسلامية.

ولكني كنت حذراً خلال هذه المرحلة فكنت أكتب تحت عنوان (الفكر الإسلامي) وتلك مرحلة أكثر سعة وفسحة من مرحلة (الفكر العربي) التي سبقها ولكني في كل ذلك كنت أمضي في حدود الخطة التي رسمتها في المرحلة السابقة لم أخرج عنها وكان أبرز معالم هذه المرحلة:

أولاً: أنني وسعتها وعمقتها إلى أبعد مدى.

ثانياً: وهذا هو الأهم أنني نقلتها من دائرة الوجدان والعاطفة إلى

الدراسة العلمية (لا أقول الأكاديمية) ولكن وفق أسلوب الدعوة الإسلامية الجامع بين الوجدان والعقل.

فحياتي بهذا المعنى قد جرت في هذا المجرى الواسع لم أتخلف عنه ولكني ربما وقعت في خلال هذه الفترة الحرجة في أخطاء كثيرة ومتعددة ولكنها أخطاء حسن نية، فلم يتغير القلب المؤمن بالدعوة الإسلامية والجهاد في سبيلها لحظة ولكن ربما شاءت بعض الظروف أن تدفعني إلى قبول التعاون مع بعض الأصدقاء في شأن هذا النظام الذي كان يظلنا والذي كان يفترض التضحية من أجل الاستمرار، فقد عملت مع الأستاذ أبو الفضل الجيزاوي في أعداد دراسة عن عبدالناصر وحركة الجيش جمعناها من كثير مما نشر في الصحف ونسقناها، وكذلك عملت مع المرحوم الأستاذ أحمد عطية الله في سبيل تنسيق القضايا التي أثارتها الحركة وكان من وراء ذلك أمرين:

الأمر الأول: أننا كنا نكشف عن زيف العصر الملكي والحزبي وقد توسعت في ذلك فكشفت عن فساد الحياة السياسية وتضارب الكتاب السياسيين (العقاد وطه حسين وغيرهما) وتنقلهم بين الأحزاب.

الأمر الثاني: إننا كنا نتطلع إلى هذه القوة الجديدة على أنها ستحقق لهذه الأمة شيئاً مما كانت تتطلع إليه وتطمح فيه، وهذا الأمل سرعان ما تحطم وتحول الأمر إلى محاصرة كاملة للدعوة ورجالها.

ولقد كان من إيماني أن يكون هناك صوت متصل وإن لم يكن مرتفعاً بالقدر الكافي ليقول كلمة الإسلام ولو تحت أي اسم آخر، ولم يكن مطلوباً من أصحاب الدعوة أن يصمتوا جميعاً وراء الأسوار.

وفعلاً فقد استطعنا تطعيم الصحف الرسمية بكثير من مفاهيم الإسلام، وقد قدر ذلك إخواننا وراء الأسوار، فلم يكن هذا الموقف ممالأة للظالمين أو نكوصاً عن العهود، ولكنه كان محاولة لكي يستطيع هذا القلم أن يستمر في إعداد هذا العمل الكبير الذي نشأ وتكون تحت اسم «الموسوعة الإسلامية».

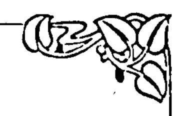
وقد ظلت تلك طريقتي: الانتفاع على أوسع مدى بالمسموح، وأؤجل الممنوع حتى تأتي الفرصة للتعامل معه، والمراحل تختلف بين القبض والبسط، والتعقيد والسماح، ولقد كانت هذه المرحلة مظلمة شديدة القسوة فقد سيطر فيها الشيوعيون سيطرة كاملة، وأصبح الكلام عن الإسلام بمفهومه الحقيقي أشبه بالشيء الممنوع، وأصبحت أي إشارة يمكن أن تؤول، وكانوا يخيفون الناس بأولئك الذين استشهدوا، وقد علمتني الأيام محاولة التأقلم مع ما تتيحه الفترات المختلفة من وسائل في سبيل تبليغ كلمة الله دون الاجتراء على الممنوع أو غير المسموح به، ودون بلوغ أقصى المراحل، فإني كنت بطبعي أنفر من العنف والتعصب وكل ما يشتم من رائحة التحدي، ذلك أن هذا لم يكن ليؤدي إلى شيء إلا إلى شيء واحد، هو قصف هذا القلم أو تغييبه لفترة قد تطول وقد تقصر، وكنت حريصاً أن أمضي في إعداد موسوعتي في هدوء، وأن أحمي وجودي من عوامل الاضطراب والقلق، حتى أتمكن من أداء واجبي الأساسي وهو إعداد قاعدة أساسية للفكر الإسلامي بمفهومه الجامع.

وكنت أؤمن بأن كلمة الله (تبارك وتعالى) واسعة مرنة وقادرة على البقاء في كل العصور والاستمرار دون أن تصطدم بأي محاولة لمنعها أو توقيفها، لأن النية في الأساس خالصة، ليس فيها مطمح من أي نوع كان، لا تتطلع إلى تسلط ولا تصدر عن خفه، ولا تطمع في ممنوع ولا ترغب في طفرة، وإنما تجري مع الزمن وتنمو معه حتى تستوي على الطريق شجرة مثمرة، كل المطلوب من الدعاة استمرار تبليغ الدعوة وإبقاء إيقاعها مستمراً في حدود المسموح به، والمتاح من الفرص، ما دامت الخطوط الأولى قائمة وهي أن دين الدولة الإسلام ولغتها العربية وأن الشريعة الإسلامية هي المصدر الأساسي للقوانين، ما دام ذلك كذلك وهو مكسب كبير زاد عما كان مع الدعاة السابقين نصاً جديداً عن الشريعة، فإن الأمور تكون مشجعة على تحقيق خطوات طيبة في سبيل تطبيق منهج الإسلام وإقامة نظام الله الحق في المجتمعات.

ولقد طُلب إلي في فترة من الفترات الحرجة أن أكتب عن الدعوة الإسلامية فكان علي أن أصور المثل الأعلى الذي نتطلع إليه دون مساس

بالواقع الذي كان مختلفاً اختلافاً شديداً وكانت كتابتي تمثل الحوار الذي كان يدور في أعماقي أحياناً لو أنني أتيح لي أن أجري (نقد الذات) للدعوة وربما عدّ ذلك في بعض التصورات خروجاً عن المعتقد الأصيل ولكني وجدت في الإسلام فسحة من التقية.





الفصل الثاني

عايشت الأحداث بقلم متيقظ



في هذه الفترة (فترة ما قبل حركة ١٩٥٢) كان موقفنا موقف المقاومة الواضحة للنفوذ الاستعماري والاستبداد الحاكم: خصومة واضحة صريحة للإنجليز المحتلين وكشف لمخططاتهم ودعوة متجددة لمقاومتهم وعرض واضح لما تلاقيه القوى الوطنية في (الأقطار الإسلامية) من عنت واضطهاد، ظهر ذلك واضحاً عندما صدر كتابنا (اخرجوا من بلادنا) الذي هز القوى المحتلة في القاهرة ودفعهم إلى مصادرة الكتاب وتقديم مؤلفه للمحاكمة.

كذلك فقد كان مما يزعج القوى الحاكمة، ذلك الاهتمام بالثورة العرابية وعمر مكرم وجمال الدين ومحمد عبده، فقد كان هذا يزعج القصر هذا فضلاً عن المقاومة الواضحة والكشف المستمر عن فساد الحزبية وممالأتها للقصر والاستعمار وعجزها عن تحقيق آمال البلاد في الحرية والاستقلال: كان مؤلفا (بين لاطوغلي وقصر الدوبارة) و(تاريخ الأحزاب السياسية) واضحاً في تقديم الصور الصحيحة لموقف هذه الأحزاب من التضامن حول المطامع والمغانم وعجزهم عن مواجهة الخطر الحقيقي وهو النفوذ البريطاني الذي كان يحركهم جميعاً من وراء الستار.

فلما جاءت المرحلة التالية على غير ما كانت تطمح إليه الفكرة الإسلامية ولم يتحقق هدفها الذي سعت إليه عشرين سنة كاملة وحشدت له العقول والقلوب، كان الموقف من الكاتب المسلم أن يواجه القضايا الجديدة المثارة ويكشف رأي الإسلام فيها في الوقت الذي يتاح له ذلك فيه فقد استقلت الدعوة إلى القومية، وكانت في مطالعها مرتبطة بالإسلام ثم انحرفت انحرافاً

شديداً حين احتضنت مفاهيم ساطع الحصري وميشيل عفلق وقامت الوحدة
بين مصر وسوريا على هذا الأساس حتى أنه رفع من دستور الوحدة مادة
(الإسلام دين الدولة).

غير أن التجربة لأنها انحرفت عن مفهوم الأساس فقد سقطت،
وانهزمت تماماً، وكان علينا أن نكشف هذا، كذلك فقد كشفنا هزيمة التجربة
الغربية ثم هزيمة التجربة الماركسية من بعد.

في خلال سبعة عشر عاماً من الانحراف الخطير، فقدت مصر
مصداقيتها الإسلامية الحقيقية، ثم كانت نكسة ١٩٦٧ علامة على أن
الخطوات العلمانية كلها منذ أول المراحل كانت فاشلة وفاسدة.

فقد تحقق في هذا الموقف شيء واحد هو احتلال إسرائيل للقدس
وانهيار الأنظمة القومية والعلمانية وفشلها.

كان سقوط النظام الملكي علامة على سقوط التجربة التي نقلها
المصريون من الغرب وكان سقوط القدس علامة على سقوط التجربة الماركسية
الشيوعية.

وكذلك كان موقفنا من الغزوة الصهيونية واضحاً منذ اليوم الأول، منذ
حدثت المواجهة وشهدنا قوافل المجاهدين وهي تخرج من المركز العام زاحفة
إلى فلسطين لتواجه الصهيونية التي لم تنتصر إلا بالتآمر، والتي لو تركت
لقوى المجاهدين المسلمين الذين كانوا يقتحمون أول معركة لهم بائعين
أنفسهم لله تبارك وتعالى ـ لما حققوا أي انتصار ولكن القوى الغربية بالاشتراك
مع الأنظمة الفاسدة الخاضعة حققت الخدمة التي مكنت لهم بالبقاء، وكانت
خطتهم من بعد القضاء على القوة الإسلامية حتى يأمنوا الاستمرار وقد حققت
لهم الأوضاع التي قامت من بعد هذا الأمل، فقد استراح السلطان الظالم في
الداخل، ووجدت إسرائيل حريتها في النماء والتمكن، حتى حققت هزيمتها
للعرب في معركة ١٩٦٧ واستولت على القدس وأتمت ما بدأته عام ١٩٤٨.

وكان لا بد للكاتب المسلم أن يرجع إلى الجذور، إلى دراسة واسعة
للقوى الغربية المتآمرة من خلف المظاهر والأوضاع، هذه القوى الغربية

والشيوعية والصهيونية، وكان العمل في مجال حرب الكلمة أقوى الأعمال، فقد زحفت إلى آفاق الفكر الإسلامي والعربي دعوات ونظريات مسمومة من مختلف الجوانب، الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية التي فرضت على مناهج التعليم وعلى الصحافة والثقافة.

وكانت المؤامرة التلمودية الممثلة في بروتوكولات صهيون قد صيغت في مناهج ثقافية وتعليمية مسيطرة من خلال دارون وماركس وفرويد ودوركايم وسارتر.

ثم كانت التجربة الشيوعية الماركسية التي سيطرت على الفكر الإسلامي العربي في مصر أكثر من عشر سنوات، استطاعت أن تدفع سمومها إلى مختلف مجالات الصحافة والأدب والمسرح والإذاعة المسموعة والمرئية.

هذه القضايا المسمومة جميعاً كشف عنها النقاب وهوجمت جوانبها الفاسدة وكشفت أمام الرأي العام الإسلامي وكان على الذين حملوا أمانة القلم أن يذهبوا إلى أقصى المدى فيكشفون عن زيف الاستشراق وسمومه ومؤامرات التبشير الغربي ومخططاته وأن يكشف الموقف كله من النكسة وأسبابها وآثارها.

لقد كانت سيطرة الماركسيين على الإعلام والصحافة والمسرح عام ١٩٦٢ في مصر من أخطر الأحداث التي ألمت بصاحب هذا القلم وهزته هزاً من الأعماق وفتحت له آفاقاً جديدة من العمل بعيدة المدى، فقد أخذت على نفسي أن أقدم عملاً حقيقياً يختلف تماماً عن كل الأعمال التي كنت أقوم بها، كان علي أن أعيد كتابة تاريخ الإسلام في مواجهة التحديات في كتاب صدر تحت اسم (الإسلام وحركة التاريخ) وكان علي أن أعيد صياغة القيم الأساسية في الفكر الإسلامي على نحو مكنني من بعد من تقديم (معلمة الإسلام) في مائة مادة من مواد الفكر والتحديات عقائد وعبادات واختلاف ودراسات للعلوم الإسلامية.

ولما كنت قد أوليت الأدب العربي دراسة واسعة لتراجم أعلامه في مختلف مجالات: النثر والشعر والقصة، والترجمة واللغة العربية، والمعارك الأدبية وغيرها فقد كان علي أن أقيم تجربة الأدب العربي المعاصر في موقعه من

التبعية للأساليب الغربية التي وفدت إليه ومن ثم كشفت هذا الجانب وقصدت رأساً إلى رأس التغريب وعاموده (طه حسين) فقدمته في دراسة أقمتها على أساس المنهج العلمي كشفت فيها عن الأخطار التي أوقع هذا الرجل الأدب العربي والفكر الإسلامي فيها نتيجة تبعيته وولائه للفكر الغربي ومحاولته المتصلة خلال أكثر من خمسين سنة في مختلف مجالات الفكر الإسلامي لتغريبه وإخراجه عن أصالته ومنابعه الحقيقية.

ولما كنت قد أوليت أعلام النهضة الإسلامية في العصر الحديث اهتماماً واسعاً (إلى جوار الأدباء الذين كتبت عن ٢٦٠ شخصية منهم) فقد تناولت هؤلاء الأعلام في مختلف مجالات الوطنية والفكر والثقافة من المغرب العربي إلى حدود العراق في دراسة واسعة في أربعة مجلدات تحت اسم عام هو (أعلام القرن الرابع عشر الهجري) وتحت أسماء مختلفة أعلام وأصحاب أقلام، أعلام الدعوة والفكر، تراجم الأعلام المعاصرين... إلخ.

كذلك فقد أوليت تاريخ الصحافة العربية اهتماماً كبيراً وأصدرت كتابين يكشفان عن تموجات الأسماء اللامعة بين الأحزاب والآراء، ثم قصدت إلى الصحافة نفسها في دراسة تناولت أخطارها وآثارها على نكسة ١٩٦٧ تحت عنوان (الصحافة والأقلام المسمومة).

وتناولت إلى ذلك الشيوعية والصهيونية والاستعمار الغربي في دراسات متصلة مفصلة، كشفت فيها عن آثارها وأخطارها. كما كشفت عن فساد نظريات العلمانية، القومية، المادية، البهائية، الماسونية وكذلك تناولت مختلف الدعوات الهدامة.



الباب الرابع

أمانة القلم





الفصل الأول

المصَادر التي أَلهَمتنيْ الكِتابَة



سألني سائل: ما هي المصادر التي ألهمتني الكتابة، فأقول:

لا مشاحة أن «الكتابة» سليقة طبيعية لا سبيل إلى خلقها واصطناعها أو الإغضاء عنها إذا ما برزت وأرادت أن تؤكد وجودها. غير أن هذه السليقة الطبيعية تظل ساذجة غضة إذا لم تجود وتنمى وتجد المجال لظهورها وتجد المادة الوفيرة التي تعطيها الخصب والحيوية.

ولقد يحس الكاتب الموهوب بطاقة مذخورة في نفسه تتطلع إلى التحرير والكتابة، منذ مطالع الصبا ترافقها طاقة ضخمة من التطلع إلى القراءة والثقافة واختزان الرؤى والأحاسيس ونفس راغبة إلى معرفة الكون والحياة، والنظر فيما وراء الظواهر، ومعرفة الناس والجلوس إلى أصحاب الندوات، واكتناه أسرار المجتمعات، في علاقات الرجل والمرأة، والتطلع إلى الصحف، ومتابعة الأحداث العالمية والوطنية، ولقد كنت في مطلع حياتي شاباً طلعة ولكن في حياء بالغ وحصر وعي شديد، أستمع أكثر مما أتكلم، وأقرأ أكثر مما أكتب، يشدني تطلع غامض إلى مجالات الفكر والأدب والصحافة دون أن أستكمل الأداة.

ولقد دنوت من آفاق الثقافة على مهل وفي بطء شديد، ولم تتسع دائرتي إلا على مراحل طويلة، وطال بقائي في الريف وكنت ضائقاً به ولكنه كان بمثابة التمهيد والإعداد لتكوين أداة الكتابة وأداة الفكر والبحث على السواء.

كانت طاقتي إلى الكتابة هي الأدب، وكان أول ما كتبت خواطر النفس ومشاعر المراهقة، وظلت دائرتي قاصرة على تراجم الأدباء وحيواتهم في كل ما

يتصل بالعواطف والمشاعر، ثم اتسع الأفق ثمة من خلال مشاعر نفسية أقرب إلى التصوف والزهادة والاتصال بآفاق الروحانيات ثم كانت الوطنية والسياسة هي الشغل الشاغل لقراء الصحف والمجلات، غير أني لم أكد أبلغ العشرين من عمري حتى انفتح أمامي أفق التاريخ الإسلامي ثم الإسلام نفسه من خلال مطالعات منوعة لا تقف عند شيء، ولكنها تحوم تحويم الطائر القلق الذي يندفع من خلال إحساس داخلي عميق غامض لم يتبينه بعد.

ولم تلبث عواطفي أن شدت إلى الورد النمير: «القرآن» والعهد به قديم منذ ما طالعت العين وقرأ اللسان وحفظ القلب من آيات بينات، ثم شغلتنا عنها الدراسة المدنية القاصرة، حتى دارت النفس دورتها عائدة مرة أخرى إلى ذلك المصدر الأصيل.

كنا نظن القرآن كتاب دين أو كتاب بلاغة أو كتاب قصص، حتى عرفنا أنه كتاب الإنسانية كلها: دينها ودنياها، أدبها وعلومها، قصصها وواقعها، وأنه هو المصدر الأول للفكر الإسلامي نفسه، وإنه هو الذي هدى المسلمين إلى أصول العلوم التي بلغت مئات العلوم ومن بينها العلم التجريبي الذي ابتدعه المسلمون وكان هو قاعدة بناء الحضارة والتكنولوجيا الحديثة.

ولكن ذلك لم يكن من اليسير أن نعرفه من أنفسنا وكان لابد أن يرودنا إليه ذلك الإمام الجليل الذي مر كالشهاب الساطع في حياتنا، ذلك الشيخ الذي عرفناه يوماً ثم مضى.

كان القرآن هو في الحق على رأس المصادر التي ألهمتني الكتابة الحقة، بعد تهويمة طويلة، على أطراقه وحواشيه من كل ما كتبه الكتاب من علوم وآداب.

ثم كان «الفكر الإسلامي» هو المصدر الثاني: ذلك الذي أنشأه القرآن من خلال علماء المسلمين ومفكريهم في مختلف مجالات الفقه والتشريع والأخلاق والتربية والتفسير والاقتصاد والاجتماع والسياسة، حيث قدم لنا أولئك الأبرار تراثاً ضخماً ثراً، حافلاً بالضياء والنور، فيه عصارة الفكر وذوب

القلب، من كل ما تحتاج إليه الإنسانية في حل معضلاتها وترشيد مجتمعاتها والتسامي بأفرادها وجماعاتها إلى بناء المجتمع الإنساني الفريد.

وكان التاريخ الإسلامي هو المصدر الثالث: بما يرسم من طريق طويل لذلك النهر العتيد: نهر الإسلام وهو يخرج من الجزيرة العربية ثم يمتد شرقاً وغرباً فيصل إلى حدود الصين، ويصل إلى نهر اللوار، ثم يمتد إلى أسوار فينا، ثم ينتشر بقوته الذاتية فيصل إلى الفيلبين وأندونيسيا في أقصى الشرق، وإلى السنغال ونيجيريا في أقصى الجنوب، ماضياً يفتح الآفاق باسم الله وبكلمة (لا إله إلا الله).

وكانت تراجم الأعلام وبطولات النوابغ والقادة مصدر من أعظم المصادر، فقد رسم الإسلام نموذجاً جديداً من البطولة يختلف اختلافاً كبيراً عن نماذج البطولات في الشرق والغرب، تلك البطولات التي قامت على المطامع والأهواء بينما قامت بطولات الإسلام على مفهوم واضح صريح: «الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً».

واللغة العربية بتراثها الحافل وإيماءاتها الحية مصدر ثر من مصادر الكتابة، فلقد كانت تلك اللغة الكريمة قد استحصدت ونضجت قبل نزول القرآن، فلما اختارها الحق تبارك وتعالى لكتابه كان ذلك شرفاً لها أي شرف، بل كان علامة على الخلود: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾. فقد عاشت اللغة العربية بفضل القرآن هذه القرون، أمدها بروحه وبلاغته، ووسع آفاقها، وذهب بها إلى كل مكان استعلنت فيه كلمة الله، فقد كان على كل مسلم في أقصى الأرض أن يقرأ العربية، لأنه يقرأ (القرآن) وحافظت العربية على بلاغتها حتى يظل العقل الإسلامي في مستوى القرآن، ولما كانت اللغة هي أداة الفكر، فإن اللغة العربية هي أداة الفكر العربي الإسلامي وفيها طابع النفس العربية الإسلامية وروحها ومزاجها.

* * *

أمدتني هذه المصادر بالرصيد الأصيل، وبالقاعدة العريضة التي انبعثت

منها أكتب، ولكن هل وقفت مصادري عند هذا التراث العربي الإسلامي وحده؟.

في الحق إنني قرأت الكثير في آداب اللغات وفلسفاتها، سواء في لغته الأصلية أو مترجماً إلى اللغة العربية، وألممت كثيراً بعصارة الفكر الأوروبي الحديث والفكر اليوناني القديم وفلسفات الهنود والفرس والصين القديمة.

ولعلنا في مطالع الصبا قد ألقي إلينا، في الثلاثينات، كثير من المترجمات عن الفرنسية والإنجليزية مما غمر به المستعمرون بلادنا من القصص والروايات ومن تراجم أرسطو وأفلاطون وفرجيل ونابليون وداروين وفرويد، وكان لدينا كتاب تخصصوا في ترجمة آثار هؤلاء الكتاب وتقديمها إلينا، على أنها هي الفكر والثقافة، وأن كتب الأزهر القديمة هي الأوراق الصفراء التي يجب أن يغضي عنها كل مثقف متمدن!

وصدق هذه الفرية كثير من زملائنا وإخواننا، عزفوا عن الغزالي وابن تيمية وكلفوا بترجمة تاييس للصاوي، والكونت دي مونت كريستو، وغادة الكاميليا، وظنوا بذلك أنهم قد بلغوا قمة العصرية وأنهم تساموا إلى هيكل وطه حسين والعقاد والمازني! فإذا قيل لهم أنتم عرب، ومسلمون، قيل لهم فلتقرأوا ألف ليلة وكليلة ودمنة ومقامات الحريري وشعر أبي نواس وبشار بن برد.

وكنا نعجب لمثل هذا التوجيه، يغري به جيلنا في العقد الثالث، وكنت أسأل لماذا لا تقرأ: (مقدمة ابن خلدون) وفي سن السابعة عشرة، حمل إلي أبي «المقدمة» بعد أن ألححت على قراءتها، ولكن هل حقاً فهمت شيئاً!

إن لم أكن قد فهمت فقد كان ذلك علامة الطريق على الخط الذي أجدني قائماً عليه اليوم وأنا أتجاوز سن الخمسين بأعوام!

كانت هذه المترجمات التي قدمها (طانيوس عبده) وغيره عندما ترجموا مئات القصص الفرنسية المكشوفة، وأغرقوا بها السوق فكان أترابنا يشترونها بمليمات قليلة، إنما تهدف إلى غرض واضح، وكان كتاب ألف ليلة وهو يطبع

ويباع عند (الكتيبة) بأسعار رخيصة إنما يهدف إلى قصد مبيت، فقد كان الغرض هو «توسيد» أرضية نفسية فاسدة مدمرة لهذا الشباب الذي يتطلع إلى التبريز في مجال الكتابة والفكر لهدمه وتحطيمه، أو لاحتوائه داخل أطر الفكر الغربي بانياً حياته على وثنياته وإلحاده. فمادة قصص طانيوس عبده بالإضافة إلى ألف ليلة تحاول أن تصور له المجتمع في أقصى صور انحلاله وفساده، مع إعلاء شأن الأدب الغربي وأبطاله بتراجم نابليون وشكسبير، وبوضع الفكر اليوناني فوق قمة الفكر البشري بتراجم أرسطو وأفلاطون، وكان شعر بشار وأبو نواس إنما يهدف إلى إكمال الحلقة حول النفس العربية والعقل العربي ليفقد أصوله ويذهب في غربة غريبة عن جذوره وقيمه.

فلقد كان الفكر الإسلامي منكوراً وكان الأدب العربي في نظر علماء مذاهب النقد الغربي الوافد هو هذه الحصيلة من شعر الإباحيين بالإضافة إلى مقامات الحريري، مع الإغضاء عن إنتاج الأعلام الكبار الذين مروا في تاريخ الفكر الإسلامي عبر عشرات السنين، أما اليوم فقد تحقق لنا أن بشاراً وأبا نواس لا يمثلون إلا أنفسهم وإن ألف ليلة لا تمثل النفس العربية في جوهرها وإن قصص طانيوس عبده إنما هي صورة دخيلة من مجتمع غريب لا تمثل أمتنا ولا تعبر عن مزاجنا العربي الإسلامي، الذي صنعته أخلاق الإسلام وقيمه والذي كان يعرفه العرب في الجاهلية حيث يقول شاعرهم:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي حتى تواري جارتي مأواها

لقد كانت هناك محاولة لإزاحة القرآن والسنة النبوية وحكمة الإمام علي بن أبي طالب التي تمثل أول خيط للبلاغة العربية والنثر الفني الذي سار على نهجه الأدب العربي من بعد وما زال يسير، ولكن هذه المحاولة قد فشلت وعجزت عن أن تحطم كيان هذا النتاج الإسلامي العربي الباهر وانكشفت هذه المخططات بعد أن أغرتنا زمناً وبعد أن خدعتنا طويلاً وكنا ضحاياها، فترة من الزمن، ثم عدنا نلتمس الحقائق وكشف لنا الأبرار الطريق وأضاؤوا لنا السبيل، لقد كشف التغريب عن خططه وأعلن عن هدفه، وجاء كثيرون يحررون فكرنا ويزيحون من طريقنا ما غفلنا عنه وتبين لنا أن الأدب لا

يستطيع أن ينفصل عن المجتمع ولا عن الفكر، وأنه حر كل الحرية في نطاق القيم الأخلاقية الإسلامية، وأنه يستطيع أن يعبر عن نفسه دون أن يخرج عن دائرة التكامل مع قطاعات الفكر المختلفة وأن الفكر في أساسه خادم لبناء الجماعة وأن الفرد له شخصيته وله أيضاً وجوده داخل الجماعة التي يعيش فيها وأن حرية كل فرد تنتهي إلى حيث لا تكون عدواناً على حرية فرد آخر.

وإذا كان العقل في أوائل الشباب قد يصادف شيئاً ما فيحتضنه في أعماقه وقتاً طويلاً ثم يقذف به من بعد كعلامة على اكتمال نمو المزاج النفسي، وكدليل طريق، ونور كاشف فإنني أستطيع أن أقول إن كلمات ثلاث: هي المثل الأعلى، والشجاعة الأدبية، والنور الجديد إيان يكون مصدره، كانت تعتمل في عقلي وقلبي ومن وراء كل الصور والرؤى والظواهر لتشكل هذا الاتجاه الذي سيطر على متطلبات الكتابة وأهدافها.

* * *

وإذا كان لإلهام الكتابة مصادر غير القراءة والثقافة، فإنها تتمثل عندي في النظرة إلى الأفق البعيد، وتلك علمتنيها السماء المكشوفة الممتدة أمام دويرتنا في ديروط، تصل بالطرف إلى آخر الأفق حتى تصطدم العين بجبال المقطم، مارة بالسندس الأخضر، ومن حوله العصافير تزقزق والنخيلات العالية تميل، وحيث تزدهي قناطر ديروط في المساء ونحن ننتقل بين روافد النيل: الإبراهيمية وبحر يوسف والديروطية حيث تشكل شجيرات الجميز خميلة رائعة، بينا طواحين الهواء تدور لتنقل الماء من حقل إلى حقل.

لعل هذه الطبيعة الحافلة قد دفعتني إلى التأمل الطويل، حتى إذا غادرت الريف إلى القاهرة قصدت ضاحية الطالبية بالهرم لأستبقي ذلك الأفق الطليق، والسماء المكشوفة، من حولها الزهور والطيور.

* * *

لقد كانت مطالع الكتابة متواضعة محدودة في أفق أدب المشاعر والعاطفة، ولكن النفس الطموح ما زالت توسع آفاقها حتى هديت إلى

طبيعتها الأصيلة ومرماها الطبيعي، كانت تطمع في أن تقول شيئاً جديداً، أو تكمل عملاً ناقصاً، أو تصحح خطأ مدفون.

وكان تعلقها بتحرير الثقافة العربية مما اختلط بها من أخطاء الأمم أكبر مطامحها حين نضج العود وأوفى على الأربعين حتى لأستطيع أن أقول إن مهمتي قد جعلتها في تصحيح المفاهيم ودحض الشبهات. وحتى لأحسب أن هذا العمل لن ينتهي ولن يستقصي.

وإن مهمتي فيه ليست مرحلية ولكنها أساسية، وتلك مهمة حمل لواءها الكثيرون من رجال العروبة والإسلام على مراحل التاريخ، ذلك لأن مصدرها هو ذلك «التحريف» المقصود، وغير المقصود الذي واجه الفكر الإسلامي منذ مطالع الإسلام إلى اليوم، وتلك مهمة عسيرة تحتاج إلى جهد وصبر وجلد.

لقد واجه الفكر الإسلامي غزوات متعددة من غزوات «التحريف» رماه به خصومه، ومن تضامنوا معهم من بعض أهله، وكان هذا الفكر حفياً بأن يدفع عن نفسه، ويصحح مساره، ويرد هذا الغشاء الذي يراد أن يطفىء نوره، أو يجرفه عن مداره، أو يضعه في دائرة الظل، وكانت أصالة هذا الفكر هي التي تبعث من أعماق حماته ومصححيه.

ولقد نظرت فوجدت تلك رسالة دائمة لم تتوقف، وتلك حملة مستمرة لم تنقطع، وفي عصرنا هذا، جدد الغزو والتغريب كل الشبهات القديمة ونثرها من جديد وأغرى بها، فأثار شكوكاً وشبهات، وسيظل ذلك أمراً لا ينقطع: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدفعه فإذا هو زاهق﴾ و «ستظل طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم».

* * *

لقد كشفت لي المطالعة الواسعة للثقافات الغربية والشرقية من يونانية وغربية وفارسية وهندية قديمة، أن هناك خطأ واضحاً لا سبيل إلى تجاوزه بين فكر الإسلام وقيمه ومفاهيمه، وبين هذه الثقافات جميعاً، فقد تلتقي هذه الثقافات وقد تتقارب وقد ترى بين بعضها وبين البعض الآخر مشابه لا حد لها، والجديد منها يستمد من القديم، وتراث الهند الوثني القديم يبدو واضحاً

في *التراث الفرعوني وفي التراث الغربي الحديث، أشياء كثيرة*، وقضايا كثيرة، ومفاهيم كثيرة، تتلاقى ولا تختلف، إلا من حيث الصياغة والتطور.

أما الفكر الإسلامي فيقف وحده بكل قيمه ومفاهيمه ليمثل نظرة إنسانية متحررة عن الوثنية وعن عبادة الفرد وعن عبادة القوة وعن الظلم الاجتماعي وعن التفرقة العنصرية.

نظرة شاملة متكاملة تلتقي فيها العناصر جميعاً وتقوم على الأخلاق وتستهدف بناء الفرد الصميم صاحب الشخصية الممتازة القوية المؤمنة، كجزء في بناء مجتمع الطوبيا الإسلامية الذي تتطلع إليه البشرية.

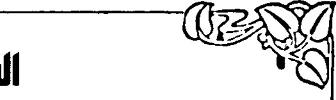
ومن ثم فقد كنت أرى هذه القيمة من القيم وهي تختلف بين نظرة الإسلام إليها ونظرة الفلسفات والثقافات والتراث الشرقي والغربي على السواء.

لاشك أن مصدر المعرفة واحد، ومصدر الأديان واحد، ولكن جاء الانحراف من خلال المطامع والأهواء، ولا شك كل الدعوات تتطلع إلى الحرية والعدل وخير الإنسانية، ولكنها خلطت حقها الأصيل بباطل أهواء الأقوياء، أما الإسلام فما يزال نقياً، وقد ظل كتابه «القرآن» نصاً موثقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولذلك فالإسلام مرجو في أن يقدم للإنسانية ضياءً جديداً بل إن طال بها الاضطراب والقلق باحثة عن مصدر النور، من خلال محاولاتها وإيديولوجياتها المتعددة، **فهل يستطيع أهل الإسلام أن يقدموه للناس، ليتهم يفعلون صادقين.**

* * *

لقد كانت مصادر الكتابة عندي ساذجة متواضعة في مطالع الصبا، حتى التقيت بالقرآن الكريم، وقد طوفت ما طوفت بالفلسفات والمذاهب والعلوم والنظريات حتى أوفت على الغاية من المعرفة، حين تحقق لها أن هذا الكتاب هو مصدر الضياء والهدى لكل نفس حائرة وعقل متطلع، وأمة تنشىء الحياة، وللإنسانية جميعاً في غدها المرتقب.

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.



الفصل الثاني

أعقد مَا يُوَاجه البَاحِث المؤرِّخ المصَادر الحَيَّة

ليست هي مبالغة، وإنما هي الحقيقة الصريحة، إن أعقد ما يواجه الباحث والمؤرخ هو «المصادر الحية»، أي الناس، أهل ذلك العلم: العظيم أو المفكر الذي تحاول أن تدرسه وتستقصي كل ما كتب وما كتب له وعنه، وأهل هؤلاء الأعلام هم أكثر الناس صداً وتعقيداً لمحاولة دراسته أو الوصول بدراسته إلى قمة البحث العلمي الصحيح، ولقد واجهت هذه المسألة مرات عديدة وفي كل مرة كنت أخرج بذلك الانطباع: أن أعقد ما يواجه الباحث والمؤرخ هي: المصادر الحية.

لفت نظري منذ وقت بعيد اسم «إبراهيم اللقاني»، أي قارىء لسيرة جمال الدين الأفغاني يجد هذا الاسم واضحاً، قريباً إلى نفس هذا العالم الجليل، حتى ليكاد يقول المؤرخون إنه كان في الدرجة التالية للشيخ محمد عبده، فقد وكل إليه الأفغاني تحرير صحيفة مرآة الشرق عامي ١٨٧٨ و١٨٧٩، ويذكر المؤرخون أن جمال الدين كان جالساً في حدائق الجزيرة عندما مرت سيدة أجنبية تمتطي جواداً فقال: ما تتمنى يا لقاني!

ولقد حاولت أن أجد للقاني ترجمة حياة أو دراسة مستوعبة فلم تقع عيناي إلا على كلمات قصار، وذكرت ابنه «سنى اللقاني» الذي توفي منذ سنوات وكان من رجال الاقتصاد وتمنيت لو وجدت عند أسرته ما يشفي الغلة ويفتح الآفاق أمام دراسة واسعة عن رجل من رجال القانون دافع عن مسجوني دنشواي وأتعبه المرض بعد رحيل جمال الدين من مصر، وعلمت أن

لدى أسرة اللقاني (بدروما) في الروضة تحوي كتباً وأوراقاً ما تزال منذ سنوات طويلة مهجورة مضيعة.

وكدت أصل إلى ذلك لولا ما قام في نفس بعض الأهـل من تخوف خشية أن يكون ذلك أمراً يتصل بالميـراث أو الضرائب أو غيرهـا، أو ربما لشبهة لحقت ببعض أصحاب القلم وخاصة من الصحفيين، جعلت الكثيرين يعزفون عن الاتصال بهم أو تحاميهم. وضاعت الفرصة للوصول إلى أكبر قدر ممكن من تراث هذا العالم الكبير.

وقد وقع لي شبيه بهذا الأمر مع خلفاء المرحوم أحمد زكي باشا شيخ العروبة، عندما أعددت دراستي الجامعية عنه في سلسلة أعلام العرب، فقد قدرت أن هناك رسائل ومذكرات وأوراقاً قد تكشف أمامي جانباً من حياة هذا العلامة الكبير الذي ظل يكتب في الصحف أكثر من خمسين عاماً دون أن يكون له كتاب كبير أو مبحث جامع، والذي ظلت أثاره مدفونة وتبلغ أكثر من ألفي مقال مفرقة في صحف المؤيد واللواء والأهـرام والمقطم منـذ عام **١٨٩٢** إلى عام **١٩٣٤** تقريباً.

وما زلت أذكر كيف شقيت بدراسة العـلامة محمـد مسعود، وكـانت لمسعود أضابير مرتبة بها قصاصات وبطاقات قيل إنه كان يستعمل عليها موظفاً في الثلاثين يعطيه بضعة عشر جنيهاً، فأين ذهبت هذه الأدراج التي كانت تسعفه في مراجعة الألفاظ ووقائع التاريخ، وبفضل ما تحـويه كـان يدخـل المعارك الحافلة مع شيخ العروبة أحمد زكي باشا ويصاوله، ولم يكن زكي باشا بأقل من ذلك أضابيراً وأدراجاً غاية في الدقة (ومع الأسف ذهب كله بموتهما ولم ينتفع به أحد).

فلما اتصلت بأكبر أبناء المرحوم مسعود لم أجد عنده إلا القليـل، ثم اتضح لي أن الورثة قد اختلفوا وتشاكوا إلى المحاكم، وأن االقضيـة ظلت بضعة عشر عاماً حتى فصل فيها، وأن الأوراق التي كانت في البدرومات قد غرقت مرة ومرتين وثلاثاً بسبب فيضان النيل وأن كثيراً منها قد ذهب.

ولقد كان أهل الكثيرين من الكتاب والباحثين هم أزهد الناس في مكتبات أبائهم وأهليهم فقد حدثني المرحوم محمد أحمد برانق وكان من مؤلفي قصص الأطفال وكتب المدارس الإسلامية وكنا في مكتبه جلوساً ومعنا الدكتور أحمد الحوفي، عن حيرته في إهداء مكتبته لإحدى الهيئات بعد موته، نظراً لأن أبنائه من نهج آخر في الدراسة لا يحفلون بالأدب ولا اللغة وكانت مكتبة المرحوم برانق هي مكتبة صهره المرحوم أحمد السكندري مضافاً إليها مكتبته هو فهي حافلة قيمة تمتد إلى أوائل القرن ومضى الأستاذ برانق بعد قليل ومضت مكتبته، لا أدري إلى أين.

وكانت مكتبة الدكتور زكي مبارك حافلة عامرة تحوي بضع عشر ألفاً من المؤلفات، وكان يجلس أحياناً على الأرض كما ظهر في كثير من الصور وأمامه الكراس من الكتب ثم ذهبت المكتبة ربما إلى سور الأزبكية أو غيره حتى انتهت.

ولقد أتيح لي وأنا أعد دراستي عن العلامة فريد وجدي أن أشاهد آثار ذلك التصرف العجيب الذي يحدث لآثار كتابنا بعد وفاتهم، كان فريد وجدي علامة متخصصاً في علوم الدين والروح وله دائرة معارف، ولابد كانت له مكتبة حافلة، غير أني عندما زرت بيته بعد موته بسنوات لم أجد شيئاً، أين رسائله، أين مذكراته، أين مسودات كتاباته، أين القصاصات، لا شيء لا شيء.

وكان السابقون أكثر منا علماً واهتماماً بمثل هذه الآثار فقد قامت ذات يوم شركة بين أحمد تيمور باشا وأحمد زكي باشا والخانجي الوراق الشهير على شراء آثار كل علامة يذهب، حتى لا تضيع آثاره، أما اليوم فإن الأبناء لا يولون اهتماماً لآثار أبائهم ولا يحفلون بهذه الأوراق فلا تلبث أن تتبدد ويضيع معها تاريخ كثير، وعلم كثير.

إن مآل الكتب أمر هين ويسير، ذلك لأنها مهما سرقها الخدم أو أهمل في شأنها الأبناء فسوف تصل يوماً إلى يد يهمها أمرها، أما الأمر الجلل والخطير فهو تلك الوثائق والأوراق والجذاذات والمذكرات والرسائل، هذا الأستاذ

الزيات الذي فقدناه منذ قليل، لقد حاولنا وحاول معنا الأديب محمد البنا قريبه وصفيه للحصول على رسائله فلم نجد شيئاً، وما زلنا نبحث عن الرسائل التي أرسل بها إلى أصدقائه في مصر وسوريا والعراق وغيرها، ولكن ذلك ربما تيسر، أما العسير حقاً والمؤسف حقاً فإنما هو ضياع أوراقه وجذاذاته، كنا نريد أن نعرف مثلاً ماهي الموضوعات التي كان العقاد والزيات والمازني يحاولون معالجتها قبيل الوفاة، لقد وجدت في مكتبة العقاد حافظة لأوراق عن الأديرة والكنائس ربما كانت هي آخر الموضوعات التي كان معنياً بها، فأي الموضوعات التي كان يعدها العلامة محمد أحمد الغمراوي آخر من فقدنا من الباحثين وكان موضوعه عن المجاز في القرآن الذي واصله أكثر من ثلاث سنوات في مجلة الأزهر ولما يكتمل بعد.

أين الموضوعات التي كان يدرسها ويعدها هذا الباحث أو ذاك؟

ولكن إذا كان لنا من باب الإنصاف أن نذكر أن بعض خلفاء العل والباحثين كانوا يولون اهتماماً كبيراً لآثار آبائهم فإنا نذكر في هذا المجال أ هيكل ابن الدكتور محمد حسين هيكل صاحب حياة محمد فقد حرص الشاب النابه في دأب وصبر شديدين سنوات طوالاً على جمع آثار والده الصحف والمجلات حتى استطاع أن يحتفظ بما يخرج عشرة كتب على الأق وما زال يواصل إخراج هذه المقالات بعد تصنيفها في مؤلفات فاخرج الآن ثلاثة أو أربعة منها.

وما زلت أذكر في هذا المجال تلك الثروة الضخمة التي خلفها المر عبدالقادر مختار وهو رجل لم يكن أديباً ولا كاتباً ولكنه كان حريصاً على يسجل يومياً كل ما يقرأه في الصحف وقد عمل في هذا الحقل أكثر أربعين عاماً، وأتيح لي يوماً أن أشاهد إحدى كراساته الثلاثين، وهي أ بسجل حافل للأحداث.

وفي السنوات الأخيرة مات كثيرون ممن هم أضابير حافلة أذكر م «محمود أبو رية» فقد كان هذا الرجل حريصاً على جمع القصاصات على ن دؤوب صابر حتى أوفت عنده على مجلدات، وكنت أداعبه في السنوات الأخ

وأسأله عن هذه الأوراق فيضحك، ونحن في الشرق لا نستطيع أن نقول لأحد: كيف سيتصرف خلفاؤك في هذا التراث النافع بعد الموت.

وما زلت أذكر المرحوم أحمد خيري وكانت مكتبته من أحفل المكتبات بالوثائق والأضابير وله مذكرة يومية يلخصها من الصحف، وكان لدى المرحوم عبدالرحمن الرافعي أضابير كثيرة وكذلك ممن فقدنا في السنوات الأخيرة الدكتور محمد عبدالله العربي وعبداللطيف حمزة، وأسبير وجسري والدكتور غلاب ومحمد فتح الله بدران ولهم جميعاً مكتبات عامرة بالأوراق والآثار.

الحق أن هناك ثروة ضخمة ضائعة، وأن هناك مصادر حية قد تدفن بين لحظة وأخرى بوفاة صاحبها، وبالموقف العجيب الذي يقفه خلفاء هؤلاء الأعلام بالنسبة لتراثه الفكري ووثائقه ومذكراته.





الفصل الثالث

الكاتب ومراجع الكاتب

كان البحث عن المراجع أول هذا القرن هواية كبرى من هوايات الكتّاب والمؤلفين وكان تكوين خزائن الكتب رغبة تملأ قلوب كثيرين ممن تصدروا للبحث والتوجيه في العالم العربي، واستطاع كثير من ذوي النفوذ والثراء البحث عن المخطوطات والكتب وجمع المئات منها وكان أحمد زكي باشا الملقب بشيخ العروبة وأحمد تيمور باشا في مقدمة العاملين المتنافسين في هذا الصدد، أعانهما على ذلك إيمان عميق بالتراث العربي، وغيرة بالغة عليه وكان لمواردهما الضخمة أثر كبير في ذلك الجهد الذي بذلاه خلال أكثر من ثلاثين عاماً من أجل الحصول على أكبر قدر من الكتب الأمهات، سواء أكانت مخطوطة أو مطبوعة، والسياحة في شتى بلاد الشرق والغرب من أجل الحصول على المخطوطات سواء بنسخها أو بتصويرها، وقد تحقق لهما فضل كبير في هذا الاتجاه، واستطاعا أن يصورا بالفوتغرافيا عشرات من المخطوطات الموجودة في مكتبات استانبول ولندن وباريس حتى استوت الخزانة الزكية والخزانة التيمورية تتنافسان في هذا المجال وقد غلب على كل منهما ذوق صاحبها ومزاجه وثقافته فكان أحمد زكي أقرب إلى دراسات التاريخ والجغرافيا وأحمد تيمور أقرب إلى دراسات اللغة والإسلام.

ولقد استطاع أحمد زكي أن يجمع سبعة عشر ألفاً من المجلدات منها أكثر من خمسة آلاف مخطوط، كما جمع أحمد تيمور اثني عشر ألفاً منها سبعة آلاف مخطوط. ولقد استعان زكي وتيمور بوراق لامع هو (الخانجي) فكانوا يراقبون أعمدة الوفيات في الصحف يوماً بعد يوم. فما أن يسمعوا عن كبير

توفي حتى يذهبوا للعزاء ثم يتحدثون عن شراء مكتبته فيأخذ منها زكي وتيمور كل ما يشاء في الفنون التي يريدها، ويخلص الخانجي بالباقي.

وكان لهما من يسافر إلى أوربا وإلى الآستانة من أجل تصوير المخطوطات التي تحفل بها المكتبات، فضلاً عن أعمال البحث في الأضرحة والمساجد القديمة للحصول على مخطوطات أخرى.

وقد شكلت الخزانة لكلا الرجلين هموماً ومتاعب من حيث الاستيعاب والعمل، أما أحمد زكي فكانت دار العروبة على النيل في الجيزة في مواجهة مصر القديمة مقراً لمكتبته التي سرعان ما أهداها لوزارة الأوقاف فأفسحت لها مكاناً ثم نقلها بعد ذلك إلى قبة الغورى، ثم سلمها لدار الكتب المصرية، واحتفظ لنفسه بالمكتبة السريعة المتنقلة في بضع ألوف من المراجع التي كان يستعين بها على العمل السريع، فإذا شاقه بحث رجع إلى مكتبته في دار الكتب فأقام فيها أياماً وليالي يبحث ويقلب، أما أحمد تيمور فقد كانت خزانته بقصر في درب سعادة قريبة من باب الخلق، ثم رأى أن ينقلها إلى ضيعته في (قويسنا) فأقام سنوات عليها هناك بعيداً عن الناس، يراجع ويصنف، ثم لم يلبث أن أعادها إلى قصره الجديد الذي بناه في شجرة الدر بالجزيرة، وهي ما يطلق عليه اليوم (الزمالك).

ولقد أشار تيمور في رسائله إلى أصدقائه عن مدى الجهد الذي تكلفه في أعمال النقل حتى يقول في خطاب له إلى الأب انستاس الكرملي (وصلني خطابك حين وصول النقلة الأولى من الكتب وهي ربع الخزانة تقريباً (عشرون صندوقاً) فوصل (أي الخطاب) وأنا غارق في الأتربة مستغرق الأوقات في الترتيب ومراعاة الأرقام ولا أدري متى أخلص حتى أسافر لجلب النقلة الثانية فالثالثة فالرابعة).

ولقد كان لكلا الرجلين أسلوبه في مراجعة هذه المصادر.

أما زكي باشا فكان يعمل بطاقات بالكلمات والمصطلحات والرؤوس العامة، ويودعها في أدراج، فإذا احتاج الأمر سارع فأحضر صفحات المصادر

أو النصوص المنقولة منها وكان هذا هو سر سرعته الفائقة في الرد على ما ينشر في الصحف من أخطاء في بعض أسماء البلدان العربية أو الأندلسية أو وقائع التاريخ.

أما تيمور فكان رجلاً لا تهزه مطامع الشهرة، ولا يحرص على قرع الطبول في كل حين، بل كان يعمل في صمت ويضع تعليقاته على حواشي الكتب حتى لقد أثر عنه، أنه ما كان من كتاب من هذه الألوف إلا راجعه وعلق عليه وقد زاره الأستاذ محمد كرد علي وكتب بحثاً مطولاً عن خزانته في المقتبس عام ١٩١٣ وأشار إلى أن تيمور أقام لمكتبته ثلاث فهارس: فهرساً فنياً وفهرساً معجمياً وفهرساً لأسماء المؤلفين، وأنه كان لا يتوقف عند جمع الكتب بل كان يصنفها ويطالع كثيراً ويحسن الاختيار ويقارن وينقد ويكتب بالهوامش ولا يستغلي عليها أي مبلغ.

ولقد ظل كتّاب الشرق والعاملون في حقل الدراسات اللغوية التاريخية يتعاملون معاً، ويتراسلون وقد انعقدت بينهم صلات وكان أبرزهم: محمود شكري الألوسي، وطاهر الجزائري، وانستاس الكرملي: يقول كرد علي: لقد كان من العادة أن يضن غلاة الكتب بكتبهم، أما تيمور فقد تعود بسط الكف بها لأن غايته نشر العلم وإحياء آراء السلف ويروى من ذلك أن صديقاً له استعار كتاباً في التراجم فظل عنده ثلاث سنوات فكان تيمور كلما احتاج إلى ترجمة ما، يذهب إلى صاحبه وينقل منه، دون أن يطلب إليه رد كتابه.

كما أشار إلى تواضعه الجم حتى أنه بعد أن عاونه معاونة أكيدة في موسوعته (خطط الشام) رفض ـ أي تيمور ـ أن ينص كرد علي في المقدمة على هذا الفضل أو يوجه إليه الإهداء.

وقد جنح إلى العزلة في خزانته بقويسنا بعد وفاة صديقه الشيخ محمد عبده وظل يعمل في صمت ولما عاد بخزانته إلى القاهرة بعد ذلك، واصل عمله دون أن يفكر في النشر كثيراً فلم تطبع له في هذه الفترة إلا رسائل صغيرة وكل ما أعده للنشر من مؤلفات إنما طبع بعد وفاته.

أما أحمد زكي فقد نشر أكثر من ألف مقال في صحف الأهرام والمقطم والمؤيد وغيرها عن اكتشافاته وتصحيحاته المتوالية التي كان يصدرها بمقدمات تحمل كثيراً من الازدهاء، مثل قوله:

«عني وعني وحدي خذوا الخبر الصادق. . . إلخ».

نشأت بعد ذلك مكتبات كثيرة، واهتم الجيل الذي ظهر بعد الحرب العالمية الأولى بإنشاء المكتبات، فكانت مكتبات العقاد ولطفي السيد وزكي مبارك وطه حسين وأحمد أمين ومحمد صبري السربوني ومحب الدين الخطيب وعشرات أخرى من المكتبات التي تفرقت وضاعت بعد أن تركها أصحابها.

وتختلف هذه المكتبات عن مكتبات الجيل الأول في عدة أمور منها:

أنها كانت مكتبات للمراجعات الصحفية السريعة التي تتطلب الوصول إلى بعض التفاصيل عن حادث من الأحداث أو قضية من القضايا، ولذلك فقد غلبت عليها دوائر المعارف وكتب الموسوعات وخاصة الأوربية، وقل تبعاً لذلك فيها كتب الأمهات والأصول والمخطوطات.

ذلك أن أعمال المخطوطات كانت قد أصبحت من اختصاص دار الكتاب ولها رجالها والمهتمون بها، بينما غلب طابع الترجمة على العاملين في الحقل الأدبي في هذه الفترة، كما غلب طابع الكتابة الأدبية والسياسية والصحفية السريعة ولقد جاهد كثير من أدباء هذه الفترة في الحصول على الكتب واشترى العقاد عند إنشاء مكتبته للمرة الثالثة كثيراً من مخلفات المكتبات القديمة، وكان بيته في مصر الجديدة بحجراته الخمس الواسعة مكتبة متفرقة موزعة على صواوين مختلفة الأحجام والأشكال، ذلك أن العقاد لم يكن حريصاً على الأناقة بقدر ما كان حريصاً على ترتيب المواد على النحو الذي يمكنه من الحصول في أقرب فرصة على النصوص المطلوبة.

ولقد كانت مكتبة لطفي السيد وطه حسين من آنق المكتبات فقد أعدت لها غرف خاصة فنضدت من الأرض إلى السقف بالرفوف المقسمة

ووضعت فيها الكتب ذات المجلدات الأنيقة في ترتيب تشعر منه أنها لا تمس وإن صاحبها لا ينظر فيها.

أما مكتبة الدكتور زكي مبارك فقد كانت غاية في الفوضى والاضطراب وقد شوهدت صور للدكتور وهو جالس القرفصاء ومن حوله أوراق كثيرة وهو يبحث عن شيء منها.

وقد استطاع الذين سافروا إلى أوربا أن يجلبوا عشرات من المجلدات بل مئاتها فقد كانت الكتب الإفرنجية في الثلاثينات رخيصة جداً ومن هنا فقد تكونت مكتبات كثيرة من المراجع الأجنبية الخالصة، ومن ذلك مكتة الدكتور محمد صبري السربوني التي تغطي معظم حوائط ردهات منزله الواسعة.

وتعد مكتبة السيد محب الدين الخطيب من أعظم المكتبات الخاصة الموجودة في الوقت الحاضر، فقد أربت على أكثر من عشرين ألفاً من المجلدات وقد جمعها صاحبها منذ عام ١٨٩١ تقريباً واستمر على ذلك حتى عام وفاته ١٩٦٩ وأعانه على ذلك أنه كان يعمل في الطباعة والوراقة والنشر، وكان كبير العناية بكتب التراث وخاصة في مجال الدراسات الإسلامية والتاريخ الإسلامي واللغة العربية.

ولا شك أن لكل مكتبة من هذه المكتبات: «تاريخ حياة» يرتبط بصاحبها وبالهموم التي تهمه والقضايا التي يعالجها، فهي تمثل حلقات فكره وتطورات عقله، وتضم الجوانب التي تمثل مراحل نشاطه.

فإذا أخذنا مكتبة العقاد التي بلغت بضعة عشر ألفاً نجدها تمثل أربعة أقسام:

- الشعر وقضاياه في الأدب الغربي والعربي.
- الفلسفة ومذاهبها.
- السياسة ودراساتها.
- الدراسات الإسلامية وكتب السيرة والتراث.

وهذا التقسيم نفسه هو تقسيم حياة العقاد واهتماماته فقد بدأ حياته

بالشعر ودراساته ونقده ثم اتصل بالفلسفة والسياسة، ثم أولى الدراسا
الإسلامية في السنوات العشر الأخيرة من حياته اهتماماً واسعاً.

وكذلك نرى مختلف المكتبات الخاصة، التي تغلب عليها طابع ك
كاتب ومزاجه والدراسات التي يشغل بها، والدكتور صبري السربوني مثلاً الذ
يعمل منذ خمس سنوات في دراسة الحضارة العربية في أفريقيا تضم مكتبته
يزيد على ألف مرجع في هذا الموضوع.

ومن هنا يمكن القول أن هناك مكتبة الصحفي ومكتبة الأديب ومك
الموسوعي ومكتبة الباحث التاريخي أو اللغوي ولكل منها طابع خاص، و
تشكل المكتبات الخاصة إنما يتم وفق طبيعة فكر الكاتب وعمله، وهمـ
الاجتماعية أو السياسية أو الأدبية.



الفصل الرابع

تجربة العمل الأدبي

إن تجربة العمل الأدبي تكشف عن كثير من المشقة والمعاناة فليس هي من اليسر بحيث يمكن أن يقال إنها قدرة على الصياغة وبناء الدراسة.

ذلك أن الحقل الأدبي ليس مفتوحاً على النحو الذي يحقق العمل ببساطة. وبالرغم من كل ما قدم إليه من دراسات فإن هناك جوانب ما تزال غامضة، ومعقدة وفي حاجة إلى مجهود ضخم للكشف عنها ذلك أن أغلب الأعمال الأدبية والفكرية قد بدأت على أيدي أصحابها دراسات أو كلمات نشرت في الصحف، ثم استطاع عدد قليل من الكتاب جمع أثارهم وإبرازها على هيئة مؤلفات أو كتب أو دراسات حتى أنه يمكن القول بأن آثار أغلب الكتاب الكبار أمثال طه حسين والعقاد والمازني والزيات وجبران وميخائيل نعيمة وهيكل وسلامة موسى قد بدأت في هيئة مقالات نشرت في الصحف والمجلات ثم جمعت في كتب ولذلك أمكن لبعض الباحثين أن يقول إن أدب الثلاثينات وما بعدها كان أدب مقالات مجمعة. وربما امتدت هذه الظاهرة إلى اليوم وإنه فيما عدا الدراسات الجامعية والرسائل الأكاديمية فإن كل أثارنا الأدبية مقالات مجمعة وإن كان بعض الكتاب قد استطاع في ذكاء أن يربط بين المقالات المنوعة وأن يبرزها في وحدة وانسجام، وإن بعضهم الآخر عجز عن هذه المحاولة. هذا رأي قريب من الحق فيما أعتقد عن تجربة، وهو موصلي إلى الحقية التي أردت أن أكشف عنها، بأنه فيما سوى عشرة أو عشرين أو ثلاثين من الكتاب على الأكثر جمعوا أثارهم، فإن هذه الآثار ما تزال مدفونه في بطون الصحف والمجلات وإن في هذه المرحلة التي انتعشت

فيها المقالة الأدبية والسياسية والاجتماعية يمكن أن يقال إنه في خلال ستين عاماً (١٨٧١ - ١٩٣٩) باستثناء فترة الحرب العالمية الأولى عندما توقفت الصحف أو انقطعت قد كتب ما لا يقل عن مائتي كاتب ممن لم يجمع أحد منهم آثاره، وإن كل كاتب من هؤلاء قد كتب في عشر موضوعات منوعة، فإننا إذ ذاك، أمام حصيلة لا حد لها تضم ألفي بحث أو ألفي كتاب.

هذا بالإضافة إلى عشرات الكتب الملخصة، والمترجمة، وذلك باستثناء المقالات الصحفية السياسية ذات الموضوع المحدود أو مقال الساعة أو الفكرة العارضة.

وإذا ظن بعض الكتاب أن في ذلك شيء من المبالغة فإني أذكر بالإضافة إلى ذلك أن هناك أكثر من خمسين كاتباً قد كتبوا خلال سنوات بلغت العشرين والثلاثين، كل يوم، أمثال داود بركات وفارس نمر وعبدالقادر حمزة وأمين الرافعي، وهيكل والعقاد وطه حسين وحافظ عوض وعباس حافظ وأحمد وفيق وخليل ثابت ومحمد مسعود وسيد علي ومحمود عزمي وأحمد نجيب وإذا أردنا أن نجتزىء بمثال واحد أو اثنين قلنا مثلاً إن داود بركات رأس تحرير الأهرام ٤٠ عاماً ونفترض أنه كتب افتتاحية الأهرام ٣٠ عاماً بواقع (ثلاث مرات كل ٤ أيام) فماذا تجد؟ نجد أنه كتب ١٠٩٨٠ مقالاً وهناك مثال العقاد أو طه حسين أو المازني أو هيكل ١٩٢٢ - ١٩٥٢ المازني (١٩٢٢ - ١٩٤٩) هيكل (٩٨٠٠ مقال لكل منهم ضاعت في بطون الصحف وهي غير المقالات الأدبية التي جمعت.

وبعد هذا الاستطراد نعود فنقول إن صحفاً كالمقطم واللواء والمؤيد والأهرام والسياسة والمنبر وكوكب الشرق والوادي والبلاغ والجريدة، ومجلات كالنار والضياء والمقتطف والجوائب والزهور والبيان والجامعة والعصور والمشرق والزهراء والسياسة الأسبوعية والعصور وأبولو والفجر والنهضة الفكرية والرسالة والثقافة (وهذا في مصر وحدها) قد أعطت محصولاً ضخماً لا حد لضخامته من الأبحاث والدراسات المنثورة المضيعة، ولذلك فإن مجال العمل الأدبي الحقيقي فيما اعتقد للكشف عن حقائق التطور الأدبي في

العالم العربي في العصر الحديث مرتبطة إلى أبعد حد بالكشف عن هذه الآثار التي حاولت أن أصور أهميتها وخطورتها. ومن هنا فإن تجربة العمل الأدبي كما قلت تكشف عن كثير من المشقة والمعاناة، لمن يريد أن يرسم صورة كاملة أو قريبة من الكمال للفكر العربي المعاصر في جوانبه المختلفة (الأدب. التاريخ. الاجتماع. الدين، السياسة، الاقتصاد) فليس هناك فهارس كاملة لهذه الصحف والمجلات. وليس من اليسير أن يراجع الباحث في موضوع واحد كل هذه الصحف والمجلات.

وإنه لابد من أن تعد فهارس كاملة (١ ــ للصحف اليومية) للأهرام والمقطم واللواء والمؤيد والبلاغ وكوكب الشرق والسياسة والجريدة و (٢ ــ للمجلات كالهلال والمقتطف والرسالة والثقافة والسياسة الأسبوعية والمنار وهي أطول هذه الصحف والمجلات عمراً.

* * *

هذا جانب من تجربة العمل الأدبي، أما التجربة الأخرى فهي في مجال دراسة أعلام الفكر العربي المعاصر. فإن كتابة التراجم فن يحتاج إلى حصيلة ضخمة من الخامات التي تمكن من فهم نفسية الشخصية التي تدرس وآثارها وأعمالها. وهناك بضع عشر شخصية هي التي تستأثر بكتابات الكتّاب وقد صدر عن إحداهما كتاب وخمسة بل وعشرة... مثال ذلك جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وقاسم أمين وشوقي وجبران ورفاعة الطهطاوي والشدياق ومي ولطفي السيد وطه حسين والعقاد والمنفلوطي.

أما باقي شخصيات فكرنا العربي المعاصر فإن الكتاب يتحامونها مع تقديرهم لفضلها وأثرها، أما السبب فهو أن المادة الخام الموجودة عنهم قليلة، في مجال الكتب المؤلفة، والحق أن المادة الخام كثيرة وكثيرة جداً ولكنها مدفونة في بطون الصحف والمجلات كما ذكرت.

وإن لدينا كما قلت أكثر من مائتي شخصية كاتبة نشرت آثارها في الصحف وتركت أثرها في السياسة أو الاجتماع أو الأدب أو الشعر أو الدين

وفي مجال الرحلة أو الترجمة أو الرسالة أو البحث، غير أن عجزنا عن العم
المجهد من أجل الحصول على هذه الآثار هو الذي يقف بنا دون العمل.

ولقد نظرت فرأيت مثلاً أحمد زكي باشا وله أكثر من ألف مقال
الصحف خلال أربعين عاماً أو أكثر منثورة في الأهرام والمؤيد واللواء والمقط
والهلال والمقتطف، وهو بدون ترجمة شاملة، وكذلك عبدالعزيز جاويش وفري
وجدي وأحمد وفيق وأحمد تيمور، وحافظ عوض، والصحافي العجوز صاحب
الهامش (توفيق حبيب) الذي كتب هامشاً يومياً لمدة لا تقل عن سبعة أعوا
فله أكثر من ألفي خاطرة يمكن أن تصور خلاصة تجاربه وذكرياته رسم ب
(صورة المجتمع) في عصره.

وكذلك هناك عشرات آخرون جديرون بالدراسة والترجمة، آثارهم
تزال في بطون الصحف.

* * *

وإذا كان الكشف عن هذه الآثار قد يصبح يسيراً بالمعاناة والعمل
الشاق بين أضابير دار الكتب بالقلعة وبين صحف قد علاها التراب الذي
يدخل في الخياشيم، وبين صحف قد تآكلت لأن لها أكثر من ٧٠ عاماً مثلاً
تقلب، فإن المشقة الكبرى والمعاناة الضخمة هي في البحث عن «أسر
المترجم له» وهذا أمر بالغ القسوة.

وأستطيع أن أقول إن كثيراً من كتابنا الذين عاشوا هذه الفترة والذين
ماتوا في السنوات العشرين الأخيرة، قد خلفوا مكتبات ضخمة عامرة، تض
من ١٠ إلى ٢٠ ألف مجلد فأين هذه المكتبات، إن أغلب هذه المكتبات قد
ضاعت وبيعت وصفيت بطريقة مؤلمة للنفس، وقديماً كان المرحومان أحمد
تيمور وأحمد زكي يقرآن كل يوم عامود الوفيات بالصحف اليومية فإذا قرء
نعياً لعالم أو أديب أسرعا فاشتريا مكتبته، أما الآن فقد أصبح اعتماد الناس
على المكتبات العامة. ومن هنا ضاعت مكتبات كثيرة بالتسرب ولو أن هذ
التسرب بلغ إلى (سور الأزبكية) فإنه يكون نافعاً، ولكن المظنون أن بعض

هذه الكتب تبيعها الخادمات إلى بائع البقول والترمس والبطاطا مع الأسف بثمن بخس.

وإذا كان بعض أدبائنا قد تنبهوا لذلك اليوم وأخذوا في التوصية بمكتبات لدار الكتب أو الجامعة أو الأزهر، فإن الأمر الشاق هو «الأوراق الخاصة، فإن هذه الأوراق قلما يعثر عليها الباحث. وإني لأذكر أنني أوليت اهتماماً كبيراً لشخصية غامضة مجهولة في تاريخنا هي شخصية «إبراهيم اللقاني» كان الرجل من تلاميذ جمال الدين الأفغاني حتى وصفه الشيخ رشيد رضا بأنه التلميذ الثاني بعد محمد عبده لموقظ الشرف، وقد أحببت أن أكتب عنه دراسة فلم أجد إلا بعض كتاباته في جريدة «مرآة الشرق» عامي ١٨٧٨ و ١٨٧٩، وقبل هذا، وبعد هذا لا شيء إلا مقال في رثائه لصاحب المنار، وكنت أعرف أن نجله «سني اللقاني» قد توفي منذ أمد، فأردت الاتصال بأهله، فماذا علمت! علمت أن مكتبة إبراهيم اللقاني لها أكثر من أربعين عاماً في «بدروم» إحدى البيوت القديمة، وإن هذا البدروم يغرق كل عام، وما تزال أوراقه هناك!

أما فريد وجدي فقد حاولت أن أحصل على بعض كتاباته أو رسائله أو مذكراته أو أصول مقالاته فلم أعثر عند أهله على شيء مطلقاً، أما (كامل كيلاني) فقد تفضل رحمه الله فأوصى لي قبل موته بهذه القصاصات والرسائل التي انتفعت بها وأذعتها في دراسة عنه كشفت كثيراً من الجوانب الغامضة في عصره وأدب رصفائه.

وكذلك عجزت عن الحصول على بعض آثار «عبدالعزيز جاويش» عند أهله ما عدا قصيدة واحدة ورسالة إلى أحد أصهاره.

وهناك نوع آخر من هذه المشقة، واجهتني في دراسة «أحمد زكي باشا» فقد كنت أعرف أن له آثاراً وملفات وقصاصات وغرفة كاملة لآثاره عند أحد معارفه، ولقد قصدته في ذلك وظللت أتردد عليه أكثر من ثلاثة أعوام آملاً في أن أستكمل صورة الرجل ببعض كتاباته وخطاباته ومذكراته، والرجل يراوغني على نحو عجيب، حتى صدر كتابي، وهنالك اتصل بي معتذراً بأعذار واهية،

وهكذا إما أن تضيع هذه الآثار أو يبخل بها أصحابها، ولذلك فإن إبـراز رسائل الباحثين التي تصل إلى معارفهم، وإذاعتها هو عمل بعيد الأثـر في إغناء حصيلة العمل الأدبي وكذلك التوسع في إعداد الفهارس عن الصحف والمجلات الكبرى والشخصيات البارزة، ولا شـك أن العمل الـذي قدمـه الأستاذان كحالة وداغر في كتابيهما معجم المؤلفين، ومصادر الدراسة الأدبية، نافع إلى أبعد حد، وإن كنا ما نزال نترقب أن يفي الأستاذ يوسـف أسعد داغر بوعده بإصدار الأجزاء الأخرى من موسوعته وهي معدة فعلاً وجاهزة للنشر.



الفصل الخامس

تجربة القراءة وصحبة الكتاب

إن نظرة واحدة إلى الكتاب في حياة أي باحث، إنما تمثل خيطاً طويلاً ممتداً، له مصاعده ومهابطه، وله تعرجه واستقامته، وله انحناءاته المتعددة، وجريانه شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً دون أن يتوقف.

كنت في هذا الأسبوع من عام ١٩٧١ أراجع دائرة معارف فريد وجدي مادة مادة، فعادت بي الذكرى إلى عام ١٩٣١ عندما قرأت في دائرة وجدي لأول مرة، وبينهما تاريخ طويل وعمر طويل. كانت تلك المدة لشاب في مطالع الصبا، يخرج من دارتهم، فيمضي إلى اليمين طويلاً حتى يجد قصر الدكتور محمد أمين إبراهيم، وهناك كانت أضخم مكتبة مفتوحة، وكان الطبيب رقيقاً، يعطيني مجلداً بعد مجلد، وكنت أقرأ وأحاول أن أفهم ولكني الآن وأنا جالس على مقعدي في دار الكتب في باب الخلق، أنظر فإذا هذه الموسوعة وكاتبها وبعض موادها له في نفسي تاريخ تكون مع الزمن وتشكل، وهو خيط من خيوط المعرفة المتشابكة نتيجة تجربة واسعة مع المراجع ودوائر المعارف العديدة المختلفة.

كانت دائرة معارف فريد وجدي في مقدمة قراءاتي منذ مطالع الصبا، وكذلك مقدمة ابن خلدون بين عديد من مراجع وأعمال كبرى منذ أربعين عاماً، أما اليوم فإنني حين أحصي قراءاتي فإنها قد اتسعت وتعمقت وامتدت، ولم يكنها شيء، ولم نقف عند حد، لا عبرة بالعدد أو الأرقام وإنما العبرة بأن يكون الكاتب يعرف أغلب المصادر العالمية وأسماء المؤلفات الكبيرة، وأن يكون قد نظر في ذلك وشكل له حصيلة تعينه على البحث في أي المراجع

ليجد حاجته في الوقت المناسب ولقد كان ذلك من أهم ما عنيت به، قرأت
بطاقات دار الكتب وهي تربو على مليوني بطاقة وأحصيت في كراريس بعض
أسمائها، راجعت فهارس المجلات الكبرى كالهلال والمقتطف والمشرق والمن
والرسالة والثقافة وأحصيت منها بعض رؤوس موضوعات. راجعت جريد
الأهرام على مدى عشرين عاماً بين الحربين، وراجعت المقطم والمؤيد واللو
والبلاغ وكوكب الشرق والجهاد وغيرها من الصحف وعشرات من المجلات
العديدة والدوريات التي عرفتها بلادنا في خلال هذا القرن، كل ذلك م
أجل تقدير موقف القدرة على التعرف على (موضوع) معين في وقت ما.

كان بجواري أمس أستاذ جليل يبحث عن فيلسوف غربي هو «هيجل
وكنت أعرف أن هناك كتاب لعبدالرحمن بدوي وبحثنا عنه في مكتبة كبر
دون أن نظفر به، وشعرت أن صاحبي في حاجة إلى أن يلم إلماماً سريعاً بفك
هذا الفيلسوف، هنالك عدت إلى مراجعي المحفوظة، ولم ألبث أن أحضر
له مجلدين من المقتطف في كل منهما بحث عن هيجل وكانوا في الثلاثينات
يقولون (هيكل) ودهش الرجل ولكني لم أدهش فقد قدرت حاجتي في أ
وقت للوصول إلى مرجع عن «موضوع ما» أن صحبة الكتاب في سبيل
الثقافة، أو في سبيل القراءة، أو في سبيل المراجع والبحث أمر يكلف كثي
من القدرة على الاستيعاب، وهناك من إخواننا من يفوقني في هذا المجال كثي
وما زلت أذكر هلال ناجي ومحمد عبدالغني حسن ووديع فلسطين وخبرته
العجيبة في حفظ مئات من أسماء الكتب في موضوعات مختلفة.

ومعنى ذلك لاشك أن القراءة فن رفيع، وأن صحبة الكتاب سعا
ومشقة في آن فإذا ذهبت أبحث في مكتبتي عن أقدم كتاب وجدته، كتاب
صغيراً تحت عنوان (الأخلاق) للأستاذ صادق...

وكان أجمل ما يشغلني فيه الباب التاسع عن (المثل الأعلى) لم أكن يوم
قد عرفت شيئاً عن فلسفة الأخلاق، ولم أكن قد وصلت إلى مفومي اليوم ف
وأنا أجد المؤلفين ينقلون مفاهيم اليونان وآراء أرسطو، بينما للفكر الإسلامي
العربي مفهوم في الأخلاق جد مختلف.



الفصل السادس

تعلمت من قوائم الكتب



من ألطف ما يكان يلفت النظر في سن السابعة عشرة لجيلنا سطر صغير في الصحف، يكمن في اسم مكتبة من المكتبات وقد كتب تحته «ترسل قائمة المكتبة مجاناً لمن يطلبها» إذن فليس هناك بيني وبين الحصول على كتاب ضخم في أربعمائة صفحة من أن أرسل خطاباً في البريد يحقق لي هذا الأمل. ومادام الريف لا يقدم لنا إلا تلك الخزائن التي تحوي الكتب الصفراء ولم نكن نعرف قيمتها وما فيها من جواهر وذخائر هي سر عظمة أمتنا وخلاصة فكرها، وبعد أيام قليلة يرد البريد إلى قريتنا وفيه هذا الكتاب الضخم «قائمة مكتبة». وقد أصبحت عادة، ما أن تعلن مكتبة عن نفسها حتى نسارع بالإرسال طالبين القائمة

ومن حق، لقد كانت مطالعة هذه القائمة في هذه السن في الثلاثينات من هذا القرن متعة لا حد لها. وهي عوض مسعد عن مطالعة هذه الكتب أو رؤيتها في رفوفها الزجاجية بألوانها الخلابة وأغلفتها المنوعة.

كانت هذه القوائم تبدأ دائماً بالتعريف بالمكتبة وحسن معاملتها واستعدادها لتلبية رغبات عملائها، محددة أسعار العملة وطريقة التحويل وخصم الجملة للمكتبات والمدارس وطلبات الجملة. وهناك نص أساسي هو أن جميع الطلبات يجب أن تكون مصحوبة بعربون لا يقل عن ثلث الثمن.

وكانت هذه القوائم مقسمة إلى أبواب تبدأ بالقرآن الكريم وطبعات المصاحف المختلفة على الورق الأبيض والورق الأصفر، والمجلدة تجليداً مذهباً

وتجليداً عادياً، والأحجام الكبيرة والأحجام المتوسطة والصغيرة، ثم يليها كتب التفسير والحديث النبوي والفقه ثم التصوف والزهد والعقائد والمواعظ، ثم يلي ذلك التاريخ والسير والتراجم ودواوين الشعر واللغة بقواميسها العربية ومعاجمها ثم دوائر المعارف والموسوعات والقصص، والفلك والرياضيات، والهندسة، والزراعة، والمنطق، والاجتماع، والأخلاق، والعلوم، ثم التربية، وعلم النفس، والمحاسبة، والاقتصاد.

وكان يلفت نظري بوجه خاص كتب التراجم والسير والتاريخ ثم كتب الأدب، وأتمزز ببطء تلك السطور القليلة المكتوبة تحت اسم كل كتاب، تصف مضمونه وما يحويه من أبواب وفنون، وكنت أعاود قراءة هذه الكلمات بين حين وحين، رغبة في الحصول على أكبر قدر من المعلومات التي عجزت عن الحصول عليها بقراءة الكتاب نفسه.

ومن الحق أن هذه القوائم وأنا لازلت طالباً في أول الشوط، قد أمدتني بكثير من المعلومات العامة إن لم تكن عميقة فإنها على الأقل متسعة تتصل بفنون مختلفة من الثقافة العربية والفكر الإسلامي العريق. وإذا كان لي أن أحدد اليوم ـ وبعد حوالي أربعين عاماً ـ الانطباع الأساسي الذي انعكس من بعد على كتاباتي وانتاجي، فإنني أقول بحق أن الإدمان على قراءة قوائم الكتب في مطالع الصبا قد أعطاني طابع التكامل والشمول في مجال الثقافة والفكر، فلم يعد تقديري قائماً على لون واحد هو «الأدب» ولكني أصبحت أحس بأن الأدب ليس إلا قطاعاً من الفكر العربي الإسلامي الواسع الآفاق الذي يضم الاجتماع والاقتصاد، والسياسة، والدين، والأدب، والعلم، والتربية، والفن، والأخلاق، وأن هذه القطاعات كلها لا يمكن أن تدرس في الفكر الإسلامي والثقافة العربية منفصلة أو مجزأة، ولكنها تتكامل وتتداخل ولا يأتي التخصص فيها إلا في المراحل العليا، أما القيم الأساسية فيها فإنها تمثل كياناً متكاملاً يدور حول الإنسان والكون والمجتمع ويحاول أن يحقق له العدل والحرية، وتلك عظمة الفكر الإسلامي العربي في تكامله حيث يشمل قطاعي الثقافة الإنساني: الروح والمادة.

وإني لأذكر كيف كانت مطالعة قوائم الكتب تجعلني في مقدمة زملائي الطلاب في الصفوف المختلفة، وكيف كانت موضوعات الإنشاء تتسم بطابع يلفت النظر.

وقد هداني ذلك إلى أن ألقي محاضرة عام ١٩٣٢ في المدرسة الابتدائية عن «الأدب العربي الحديث» أعرض فيه للعقاد، والمازني، والزيات، وطه حسين، وهيكل، وشوقي، وحافظ، وأحمد محرم، وأتحدث عن مؤلفاتهم وموضوعاتهم وخاصة كتاب «ساعات بين الكتب» للعقاد، و «قبض الريح» للمازني، و «روفائيل وآلام فرتر» للزيات، و «الأيام» لطه حسين، و «في أوقات الفراغ» لهيكل. ويومها عدت إلى درجي في الفصل فوجدته مقلوباً مضطرباً، فقد عنّ لبعض الأساتذة أن يبحث عن كراسة الإنشاء ليقارن بين ما ذكرته في المحاضرة وما أكتبه في هذه الكراسة ظناً منه أنني «سرقت» هذه المحاضرة من بعض المجلات.

وما زلت أذكر كيف أنني دعيت لمرافقة بعض الفلاحين يوم قطع الفيضان جسر بلدتنا حيث أقيم لي عريش صغير في أحد الحقول لنقل الحطب إلى الجسر لحمايته، وكيف أن هؤلاء الفلاحين قد ذهبوا يجنون بقايا الأقطان من الحطب ويضمونها إلى عبوبهم، ثم رأوا في آخر اليوم أن يشركوني في حصيلة ما جمعوه فقدموا لي مبلغاً من المال، وقد رفضته على الفور، غير أن بعضهم كان يعرف هوايتي في قراءة قوائم الكتب، فأسرع وقد عرف عنوان هذه المكتبة، فاشترى حوالة بريد باسمي بالمبلغ الذي رفضته، قائلاً: «إنك تحب الكتب ولذلك فإن هديتنا إليك ستكون بعض هذه المؤلفات» وما زلت أذكر كيف تلقيت بعد أيام «ربطة» ضخمة كانت تحوي بعض مؤلفات هؤلاء الكتاب. وقد فرحت بها فرحاً لا حد له وكانت هي نواة مكتبتي، ولا تزال بها حتى اليوم.

وما زلت أذكر إلى اليوم عن ذلك الكاتب الأديب المجهول الذي كان يكتب في قوائم المكتبات تلك السطور القليلة تحت كل كتاب في التعريف به، ويبدو أنه كان أحد رجال الأزهر الذين يعملون في هذه المكتبة أو تلك، غير

أن هذا الفن، فن التعريف بالكتب، قد تقدم في السنوات الأخيرة تقد
باهراً، وأصبح يقوم به رجال متخصصون، أذكر منهم اليوم الأستاذ محم
عبدالغني حسن الذي أشرف على قوائم عدد من دور الكتب الكبرى، ول
أعد نوعاً من فريداً من القوائم السريعة الشبيهة بالمجلات تحت اسم «بر
الكتاب».

ولقد كانت تجارة الكتب في العقود الأولى من هذا القرن عملاً مرب
للناشرين وأصحاب المكتبات بينما كان إيرادها ضيئلاً جداً بالنسبة للمؤلفين
ولقد كان أمثال العقاد والمازني يبيعون مؤلفاتهم للناشرين لقاء جنيهات قلي
لا تتجاوز أحياناً أصابع اليد الواحدة ويحصلون عليها قروشاً وأنصا
ريالات. ويشترط الناشر أن يكون له حق طبع هذه الكتب وإعادة طبعه
مدى الحياة.

فضلاً عن ذلك، فقد تنبه أصحاب المكتبات إلى طبع الكتب التي ليس
لأحد حق فيها، فطبعوا عشرات الكتب القديمة في وقت كانت أسعار الور
زهيدة جداً، وإنني لأذكر كيف سافرت من بلدتي في الريف إلى القاهرة، و
تجمع لي بعض الجنيهات، في سبيل الحصول على مجموعة من الكتب، ف
ذهبت إلى المكتبة المرموقة في مكانها المعروف في قلب القاهرة، قال لي البا
إن هذه الكتب ليست عنده ولكنها في المخازن الموجودة قريباً من الأزهر، ف
ذهبت إلى هناك إذ بي أجد قبواً مهيباً مظلماً تحت الأرض وقد علا عليه نظ
الشوارع الجديد فاختفى وأصبح يضاء بالفوانيس والكهرباء، وإذا بي أمـ
مدينة كاملة تحت الأرض تتكدس فيها الكتب على اختلافها بأعداد ضخ
وفي غرف واسعة، وحواصل عديدة. وذكرت كيف تنبه هؤلاء الناشرون إلى أ
مثل هذه الكتب ستصبح فيها بعد ثروة ضخمة لهم ولأبنائهم وقد كان.

وهكذا كان شغفي بقوائم الكتب مقدمة لخط واضح ما زلت أسير ف
إلى اليوم، هو خط الكتب والتأليف والطبع والنشر، وما زلت كلما وقعت
يدي قائمة من قوائم المكتبات أذكر مطالع حياتي الأدبية منذ أربعين عاماً و
قابع في الريف، أحلم برفوف الكتب وواجهات المكتبات التي لم تكن زجاج

في ذلك الوقت، وكان يمر بخاطري يوماً أن يكون لي كتاب معروض، فلما قدمت القاهرة وأقمت بها، قرأت عشرات من هذه الكتب، وأصبح لي منذ بضع وعشرين سنة موقعاً في دار الكتب لا أغيب عنه إلا لماماً، وقد قرأت به مئات من الكتب، بل لقد اضطررت، وأنا أعد «الموسوعة الإسلامية العربية» الجامعة، أن تكون لي قائمة تضم أسماء الكتب التي تلزمني وأرقامها، حتى لا يضيع الوقت كل يوم في البحث عن هذه الأرقام. ومن ثم عكفت على دراسة ما يزيد على نصف مليون بطاقة أخذت من الوقت أكثر من خمسة أشهر راجعت فيها بطاقات يحويها أكثر من ١٨٠ صندوقاً، وأعددت من خلال ذلك مجلداً ضخماً يحوي أكثر من خمسة آلاف كتاب، هذا بالإضافة إلى فهارس ضخمة للصحف والمجلات التي صدرت منذ ١٨٧١ حتى اليوم، ومنها فهرس خاص لأعداد صحيفة الأهرام التي صدرت في الفترة الممتدة ما بين الحربين العالميتين، يحوي مواد الأهرام الأدبية والفكرية والاجتماعية والأحداث التاريخية.

وقد علمتني قوائم الكتب كثيراً، علمتني حاجة الباحث الملحة إلى متابعة كل ما يصدر من مؤلفات، فكل يوم يصدر كتاب جديد، ولعل كتاباً يصدر في موضوع، أو عن شخصية ما، يغنينا عن ساعات طويلة من البحث قد تكفل لها هذا الباحث.

ولقد ظهرت في السنوات الأخيرة بعض المؤلفات الجامعة التي تعين الباحث على الوصول إلى المراجع التي تحتاج إليها وفي مقدمتها «قوائم المكتبات العامة»، وقوائم الدوريات الصحفية، وهناك «معجم المؤلفين» للباحث العلامة عمر رضا كحالة، و«المصادر الأدبية» للباحث المكتبي يوسف أسعد داغر، بالإضافة إلى الأعلام للزركلي.

ومن حق، أن قوائم الكتب، كانت ولا تزال، نافذة ثرة تطل على عالم الفكر العربي الإسلامي وتعطينا أول ما تعطينا انطباع التكامل والشمول الذي يتمثل به هذا الفكر جامعاً بين العلوم والفنون والآداب في سمت واحد متصل لا ينفصل.



الفصل السابع

العقيدة الفكرية للكاتب المسلم

تتمثل عقيدة الكاتب المسلم الفكرية في إيمان صادق عميق بتكامل الإسلام وقصور المفهوم الوطني والقومي والأدبي، وبتكامل المواجهة، ليس إزاء الماركسية وحدها ولكن الفكر الوافد جملة وتقرر هذه النظرة خطر المفهوم الجزئي والانشطاري الذي تنطلق منه النظريات الوافدة وكل منها يتوقف عند بعد من الأبعاد لا يتعداه بينها يستقطب المفهوم الإسلامي جميع الأبعاد؛ من حيث الزمن وأحواله ومن حيث البيئة وتنوعها ومن حيث جمع العناصر كلها في منطوق واحد متكامل.

كذلك فإن مهمة الكاتب المسلم: هي جزء من مهمة الدعاة إلى الله عليهم أن يحرروا الشخصية الإسلامية من التبعية بكل صورها وألوانها للتوصل إلى تأسيس وتأصيل مدارس واتجاهات إسلامية تسعى وتستوعب العلوم الحديثة وتفرغها في إطار إسلامي، وتعمل على تأصيل الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

ومن عقيدة الكاتب المسلم الإيمان بأن حركات التحرر من الاستعمار في العصر الحديث لم تنجح إلا عندما ارتكزت على الإسلام، وقد انتصر المسلمون في كل معارك الغزو بالمفهوم الإسلامي لا بالمعنى القومي وكل قضاياهم التي عالجوها بالمفهوم القومي لم تحقق نجاحاً.

ومن عقيدة الكاتب المسلم: الإيمان بأن: لانهيار الأمم أسباباً كثيرة من أخطرها قطع الصلة بالماضي (التاريخ)، أو قطع الصلة بما وراء الطبيعة (الغيب) أو قطع الصلة بالمجتمع، فإذا انقطعت الصلة بواحدة من هذه جاء

الخوف والقلق والتمزق. وإن علاقات الإنسان بربه وبنفسه وبالكون وبالناس هي مصدر قوته وأصالته.

ومن عقيدة الكاتب المسلم: الإيمان بأن الحياة ليست منفعة أو مادة ولكنها جماع المعنويات والماديات وأن الإنسان تحركه إرادة حرة ولكنها حرية غير مطلقة لأنها تتحرك داخل إرادة الله. وإن للكون قوانين ثابتة وسنناً طبيعية ولكنها تخضع للمعجزة الإلهية وأن الله تبارك وتعالى قادر على نقض هذه القوانين متى شاء وإيقافها متى أراد. وأن في الفكر الإسلامي عقلانية ولكنها ليست هي كل شيء فهناك الوجدان، وأن هناك مادية ولكنها ليست كل شيء فهناك الروح، وأن حرية الإنسان مقيدة بالضوابط الأخلاقية والمسئولية الفردية التي أقامها الدين وهناك ضوابط وحدود والاقتصاد عامل مؤثر في مجرى التاريخ ولكن ليس الأكبر أو النهائي أو الوحيد.

ومن عقيدة الكاتب المسلم أن الفكر الغربي قد سيطرت عليه الفلسفة المادية فأصبح لا يعنى بالروح أو المعنويات وأصبح انشطارياً غير متكامل، وأن حضارة الغرب تمر الآن بمرحلة الأزمة فقد عجزت عن أن تعطي سكينة النفس وأن الفكر التلمودي أصبح الآن مصوغاً في مناهج وفلسفات منها الوجودية والفرويدية والماركسية ومدرسة العلوم الاجتماعية وأن فرويد ودوركايم وسارتر وماركس يمثلون سيطرة التلمودية على الفكر البشري.

ومن عقيدة الكاتب المسلم التفرقة بين الشريعة الإسلامية وتاريخ الإسلام فهذه هي رسالة السماء وتلك هي تجربة الإنسان في محاولة إقامة المجتمع الرباني على الأرض، والتفرقة أيضاً بين التقاليد والأخلاق، فالأخلاق جزء من العقيدة المنزلة. والتفرقة بين الأصيل والوافد، بين الفكر الرباني والفكر البشري الوالغ في الوثنية والمادية والإباحية.

ومن عقيدة الكاتب المسلم أن يواجه ثلاثة تحديات خطيرة في المجتمع الإسلامي:

الأول: التحدي المنبعث من واقع المسلمين، الجمود والجبرية وكبت البدع والخرافات.

الثاني: التحدي المنبعث من الغزو الفكري والتغريب والشعوبية.

الثالث: التحدي المنبعث من الهزيمة النفسية إزاء إباحيات الحضارة.

وأن يؤمن بأن هدف التغريب (في خدمة النفوذ الأجنبي والشيوعية والصهيونية) هو هزيمة العقل الإسلامي بإذاعة الإلحاد وتعريض المجتمع والأسرة بنشر الإباحية وتكوين مركب نقص في أعماقنا يشعرنا بالهزيمة إزاء حضارته المادية.

وأن نتمثل أنفسنا كأمة لها تراثها وتاريخها وعقيدتها التي تتميز على كل العقائد والقيم بأنها ربانية وأنها سبيل الرشاد والهدى إلى الحق.

ومن عقيدة الكاتب المسلم: رفض التطور على حساب الأصالة ورفض التقدم على حساب التفريط في الجذور والقيم الإسلامية، كما رفض تضحية القيم العليا في سبيل التقدم المادي وأن الإسلام لم يخضع مفاهيمه للحضارات وأهواء الأمم ذلك أنه ليس في المناهج والدعوات والإيدلوجيات المطروحة من شيء إلا وعند المسلمين في ميراثهم وتراثهم نظيره أو خير منه وهو في الغرب مقطوع الصلة بالله ولكنه في الإسلام متصل بالحلقات، هو في الغرب انشطاري ولكنه في الإسلام جامع متكامل.

ومن عقيدة الكاتب المسلم أن كلا من التجربتين الغربية والشيوعية مرفوض في أفق المجتمع الإسلامي وأن التجربتين كانتا لمجتمعين مختلفين عن مجتمع الإسلام وأن الماركسية ما هي إلا جزء من نظام غربي وأنها رد فعل لواقع الرأسمالية الغربية التي عجزت عن إقامة مجتمع سليم وأن كلاً من الرأسمالية والماركسية من مصدر واحد قوامه سيطرة الربا على الاقتصاد العالمي.

وأن الفكر الغربي محاصر الآن بثلاث نظريات: هي النظرة المادية والدوافع الاقتصادية والدوافع الجنسية وأهواء الوجودية وكلها تحتقر الإنسان احتقاراً شديداً، وهناك الجبرية التي تريد أن تخلي الإنسان من المسئولية الفردية وتلقي هذه المسئولية على المجتمعات وتلقي هذه النظريات على المجتمعات

الغربية طوابع المتع الحسية والقسوة والحقد والبغض والاهتمام بالكم وتضحية النوع والكيف وأن ذلك كله يقوم في نظام مفهوم مادي خالص.

على المفكر المسلم أن يكون على إحساس واع بالنوافذ والأبواب الخارجية وما يهب على المسلمين منها من رياح وتيارات وأن لا يغلق الباب عليه ويظن أنه أصبح في مأمن وأن لا يمنعه قضاء أو رأي ارتآه في يومه ثم هدي إلى الحق فيه من بعد أن يعود إلى الحق وأن يواجه الأمور والقضايا في أسلوب الإسلام الجامع، واقعياً في دراسة المشكلات والقضايا متكامل النظرة في علاجها يجمع بين المثالية والتجريبية، بين خطرة الفكر ونفثة الروح بين العقلانية والوجدان ويجب أن يعي بأن هناك أخطاراً دخلت على المسلمين من شأنها أن تحطم الشخصية أو تدمر الأسرة؛ هي أخطار عبادة الحياة واللذة والصور المعلقة فوق السرر وليعلم أن أعلى درجات الرقي والثراء والغنى هي أعلى درجات التمرق والإلحاد والغربة وأن المجتمع المتحضر الآن في ذروته يعكف على الموبقات والمخدرات أو الانتحار ويواجه أزمة النهاية ليفسح مكانه لتجربة أخرى.

وعلى المفكر المسلم أن يؤمن بأنه لم يخلق ليندفع مع التيار ويساير الركب البشري حيث سار بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والحضارة ويفرض عليها مفهوم لا إله إلا الله وأن يوقن بأن النظرة الإسلامية هي النظرة الجامعة التي لا تقف عند الجانب المادي أو الدنيوي في أي من تجارب الحياة فهي تجمع العصر والعلم والتحضر والأخلاقيات بمقياس ذلك كله وأن يعلم بأن الجسم الإسلامي مازال يرفض العضو الغريب وأن الكيان الإسلامي مازال يرفض الجسم الغريب.

وعلى المفكر المسلم أن يؤمن بأن من أخطر المحاولات التي تجري هي ضرب الإسلام بالإسلام أو ضربه من الداخل أي ضرب الإسلام الأصيل ببعض الفرق الضالة والطوائف الدخيلة مثل القاديانية والبهائية وكلها تتلقى التوجيه والمعونة من المستعمرين والمبشرين واليهود هذه الفرق التي تشرع لأتباعها من الدين ما لم يأذن به الله مستغلة اسم الإسلام لهدم الإسلام ولقد

خدعت هذه الفرق بعض كتاب الإسلام وظنوها أنها من علامات اليقظة والنهضة.

وبعد: فإن هناك قدراً ضخماً من المعلومات والأخطار والأخبار يطرح يومياً في أفق المجتمع الإسلامي عن طريق الصحافة والإذاعة والكتب المترجمة أو وسائل الإعلام المختلفة، هي وجهات نظر متراكمة لمجتمعات أخرى فيها مادة نافعة قليلة وفيها زيف كثير فكيف يكون موقفنا منها نحن كتاب المسلمين والصحفيين المسلمين وهي تمثل وجهات نظر تختلف في الأغلب وتتعارض في الأكثر مع مفاهيمنا الأساسية وقيمنا الثابتة، ذلك لأن كل ما يطرح من خبر أو فكر إنما يشتمل على جزئين متداخلين: حقيقة ما: هي عبارة عن خبر ووجهة نظر أو تعليق أو تحليل لهذه الحقيقة تمثل رؤية الذين بثوا هذا الخبر. ونحن نعرف أن هناك غرابيل دقيقة جداً لا تنفذ منها الأخبار حين تبث في العالم الثالث إلا وهي مطعمة بوجهة نظر الصهيونية أو النفوذ الأجنبي أو الشيوعية فكيف يكون موقفنا نحن المسلمين من هذا الإعصار الضخم المدمر الدائم المستمر يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة.

لقد علمنا الإسلام أن نقف من المعرفة المعروضة علينا موقف اليقظة والحذر: وأن نتعرف عليها في ضوء قيمنا وعقيدتنا وأن نفرق بين العلوم وبين الثقافات وبين المعارف النافعة والمعارف الضارة من لهو الحديث ليضل الناس بغير علم.

ونعرف أن هذه المحاولة في طرح معلومات علينا بوجهات نظر تختلف عن وجهة نظرنا إنما يهدف إلى احتوائنا والسيطرة علينا وإدخالنا في دائرة الأممية. ومن أجل هذا فإن علينا أن نفرق تفرقة واعية ودقيقة وعميقة بين وجهة نظر الإسلام في كل الأمور وبين وجهة نظر الفكر الغربي بشقيه على أساس أصيل ثابت: هو أننا نقوم على أمانة الفكر الرباني القائم على التوحيد الخالص والرحمة والعدل والإخاء الإنساني وأن ذلك الإعصار الجائح الذي يتحرك نحونا هو من الفكر البشري القائم على المادية والعلمانية والوثنية.

هذا وبالله التوفيق.

الفصل الثامن

عندما يكون الإسلام منهج الحياة

أعطانا فهمنا للإسلام على أنه نظام مجتمع ومنهج حياة تفسيراً واسعاً ومختلفاً لكل معطيات الفكر المطروحة في الساحة، ولكل قضايا الثقافة والأدب والاجتماع، أنه يكاد يكون عاملاً خطيراً يفرق بين الحق والباطل ويكشف زيف تلك المسلمات المطروحة والتي أصبحت وكأنما هي حقائق لكثرة ما رددتها أقلام التغريبيين، لقد كانت هذه الدعوة، بمثابة الضوء الكاشف للحقائق والنور الهادي إلى الطريق الصحيح والصراط المستقيم، ذلك لأنها استمدت هذا المفهوم من منطلق القرآن الكريم ففرقت به بين طريقين مختلفين جد الاختلاف، طريق الله تبارك وتعالى الرباني الأصيل وطريق الفكر البشري، ولما كانت هذه الدعوة قد جاءت لتصحيح طريق الفكر الإسلامي أولاً والمجتمع الإسلامي ثانياً، بعد فترة طويلة استشرت فيها فكرة أن الإسلام دين عبادة وصلاة ومساجد، وقد مضى النفوذ الغربي يُوصل هذه الفكرة الضالة ويذيعها فلا يجد أحد تصحيحاً لها، لا من كتب المدارس التي يقرأها الشباب ولا في الصحف التي يكتبها التغريبيون ولا في الكتب والمؤلفات المترجمة من الغرب، و لما مضى الأمر على هذا النحو طويلاً فقد جاءت هذه الصيحة لتغير العقول والقلوب وتثير ذلك السؤال الخالد الذي لا يتوقف عند التردد: ما هو موقف الإسلام من هذه القضية.

لقد حاولوا أن يقولوا: إن الإسلام هو الدين والعقيدة، وأن قضايا المجتمع والسياسة والاقتصاد أشياء أخرى وجاء المبعوثون من غرب البحر ليقولوا لنا على لسان طه حسين ومحمود عزمي وغيرهم أن الدين شيء

والاقتصاد شيء آخر، وأن المسلمين لم تكن لهم نظرية سياسية وأن الأدب العربي لم يكن إلا ممثلاً في أبي نواس وبشار وأن الفكـر الإسلامي مـأخوذ ومترجم من الفكر اليوناني وأن وسيلة التحرر والاستقلال لا تتحقق إلا بأن نأخذ هذه الحضارة الغربية (اللعينة) خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يحمد منها وما يعاب، وهكذا مضى (التغريب) يصبغ كل شيء بصبغته، ويـرمي الوجه الإسلامي الناصع الأصيل بالجمود والضعف والتخلف والرجعية حتى في بناء العمارة وفي لغة القرآن وفي مفاهيم التاريخ والتراث، هنالك كـانت الدعوة الإسلامية في انبثاقها، ضوءاً جديداً كاشفاً يختلف عن السياق فهو منه حلقة جديدة ولكنها حلقة زائدة غنية خصبة، أضافت الشيء الكثير وغيرت الشيء الكثير وكانت بمثابة التحول الخطير والمنحنى الواسع لحركة التطور التي كان معلوماً بالضرورة أنها بدأت قبل ذلك بكثير وأنها بدأت بتحرير العقيدة الإسلامية من قيد التقليد منذ دعا الإمام محمد بن عبدالوهاب ثم تبعه الرواد المصلحون وإذا كانت كل مرحلة من مراحل اليقظة الإسلامية لها طابعها فإن طابع هذه المرحلة التي قادها الإمام الشهيد حسن البنا كان هو بناء الجيل المسلم القادر على حمل الأمانة والمؤمن بأن يبذل روحه في سبيل حماية الوطن والعقيدة.

ولم تلبث أن وجدت الدعوة على طريقها تلك الغشـاوة السوداء التي ظهرت بعد سقوط الخلافة الإسلامية في تركيا وهي دعوة التغريب التي قادها العلمانيون في تركيا بعد أن خلعـوا رداء الإسلام ووضعهم النفـوذ الأجنبي صورة ومثلاً أمام البلاد العربية ومصر بالذات حتى يخوضوا نفس التجربة أو يواجهوا هذا التحدي.

وكان أن حملت الدعوة لواء المواجهة بالتحدي وكشف هذا الزيف.

وكنت قد قرأت ما كتبه هاملتون جب في كتابه الخطير (وجهة الإسلام) منذ **١٩٣٣** تقريباً وكان صدمة شديدة لي قد أطلعني على حقيقة خطيرة أشد خطراً من الاحتلال البريطاني الذي كان جاثماً على بلادنا، ذلك الشيء الخطير الذي كان يريد لنا ولأمتنا في خفـاء شديـد، وهو تحـويلنا إلى أمـة أخرى

وصيغنا بصبغة أخرى غير صبغة الله تبارك وتعالى، وهو ما كشف عنه هاملتون جب في كتابه هذا الذي لخصه الدكتور محمد حسين هيكل، كان ذلك وأنا في سن السابعة عشرة لم أعرف بعد كيف تجري هذه المؤامرة الواسعة الخطيرة التي بدأت منذ أعلن لويس حرب الكلمة على الإسلام بعد هزيمته في الحملة الصليبية السابعة في المنصورة.

وعندما نرجع إلى تاريخ الغزوة الثقافية في بلاد الإسلام نجد أن الكتاب الخطير الذي سبق هذا الكتاب هو (الغارة على العالم الإسلامي) الذي ترجمه السيد محب الدين الخطيب قبل ذلك بأكثر من عشرين عاماً والذي كشف عن خطط التبشير الغربي لإخراج المسلمين من الإسلام عن طريق الإرساليات التبشيرية، والمعاهد والمناهج التعليمية.

أما هذا الكتاب فإنه يتحدث عن مخطط آخر أوسع وأعمق، وأكثر غموضاً وخفاء، ولكنه تبارك وتعالى شاء أن يكشف أصحابه ليعدّ الله له رجالاً يقفون حياتهم عليه، وأشهد أنني عشت أفكر في هذا الأمر، وأحاول أن أفهمه، ولم تكن الصحافة ـ وهي النافذة الوحيدة المفتوحة لي ـ تستطيع أن تلقي الضوء على هذا التحدي الخطير فظل هذا السؤال يعتمل في نفسي إلى أن لقيت الأستاذ البنا عام ١٩٤٠ ومنه فهمت الإجابة التي كنت أنا مهيأ لها حقيقة حتى جعلتها من أوائل ما كتبت في صحف الأخوان عام ١٩٤٦ عندما عملت في الصحافة، لقد انفتح أمامي باب واسع خطير ما زلت أقتحم فيه، حتى يومنا هذا، أكتب فيه هذه الكلمات خلال أربعين عاماً كاملة لم أتوقف يوماً عن أن أجعل قلمي في اتجاه القذيفة المسددة إلى التغريب والغزو الثقافي في كل ميدان من مصادر الكتابة؛ ولقد أراني على طريق هذا الجيل من الدعاة الكرام البررة العاملين في هذا الميدان أشبه بذلك الجيل الذي واجه ترجمة الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية في القرن الثالث الذين وجهوا مخاطر الفلسفة اليونانية وعلم الأصنام والباطنية والوثنية والمادية، فقد طرح الفكر الغربي في أفق الفكر الإسلامي في هذه السنوات عشرات من السموم والأضاليل والأكاذيب التي أراد بها أن يصبغ فكرنا بلون غير لونه وأن يخرجه

من إطاره ومساره وهدفه، وأن يحاول أن يفرض عليه طريقاً غير أسلو
الرباني الخالص، ليحتويه ويصهره في بوتقة الأممية، وكان علينا أن نكش
ذلك وأن ندل أجيالاً متوالية عليه حتى لا تقع في شرك الصيد البارع بإخ
الشباك وراء رقائق مضللة وتزاويق بارعة، كان الفكر الغربي والتغريب يهد
إلى احتواء الإسلام وروحه وطابعه الرباني فيصبح ركاماً من ركام ال
البشري. وكان التغريب يهدف إلى طرح مسلمات أراد أن يجعل ق
ضرورياً موقناً بأن المتصدرين من رجاله سيقبلون بها ويذيعونها في النا
الدعاة الحق فلن يستطيعوا أن يجدوا لها حلاً أو مخرجاً. وبذلك يصب
حسين وغيره هم مشايخ الإسلام وقادته الذين يرجع إليهم الأمر، ولك
تبارك وتعالى رحمة منه بهذه الأمة كشف هذه المؤامرة وعجز هؤلاء التغر
أن يثبتوا فكشفوا أنفسهم بحماقتهم وظلمهم فنبذتهم الأمة ولم يستمع إ

وسرعان ما تحول اتجاه الريح، وانفتح الطريق أمام المد الإسا
وبعد أن كانت دعوتهم (إعادة النظر في القيم الإنسانية في ضوء الواقع ا
تصحح المسار وأصبح (إعادة النظر في المجتمعات في ضوء القيم الربانية

ولقد وقف رجال الدعوة الإسلامية أمام التيارات الجديدة وقفة
كما وقف أسلافهم أمام غنوص الشرق (فارسياً وهندياً) وكما وقف أمام
الغرب (الأفلاطونية المحدثة) موقف العداء والبغضاء يجالدها أشد
ويجاهدها أعنف جهاد ولما ركز التغريب على استخدام الأساطير والفكر ا
(العطار والسهروردي والحلاج) كشفوا زيف ذلك كله، وتطوع أعلامهم
على ما قدمه التغريبيون وكشفوا زيف عبدالله بن سبأ وابن المقفع والق
وإخوان الصفا والباطنية والحلاج وابن عربي وتناولنا ذلك في بعض مؤل

ومن ثم كانت صيحة الدفاع عن العقيدة في وجه الخرافات والأ
التي نشرتها البهائية والقاديانية والبهرة ورواسب الاتجاه العلماني والما
والوجودية والماسونية التي تآزرت كلها على الفكر الإسلامي لتهوينها أو
منها.



الفصل التاسع

منطلقات الكاتب



لكل كاتب منطلقات أساسية فما هي منطلقاتكم خلال رحلتكم الطويلة في عالم الكتابة ورسالة القلم خلال خمسين عاماً.

نقول وبالله التوفيق ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾.

بدأت كما يبدأ أي متطلع إلى التعبير عن النفس بالكتابة في الريف في الفترة الحافلة بأعلام الكتابة (الثلاثينات من القرن الميلادي) حيث كانت تطالعنا كتابات العقاد وهيكل والزيات والمازني، وكانت الصحف طاقات ضخمة في الأدب والكتابة وكانت هناك موجات ضخمة من التغريب يحمل لوائها طه حسين وسلامة موسى وعلي عبدالرزاق ولم نكن بعد نعرف الفاصل العميق، فإن دراستنا الدينية كانت قاصرة على الصلاة والخلق، وقد جرينا شوطاً مع هذا التيار أو ذاك حتى تكشف لنا ذلك التيار الخطير عندما تحدث عنه الدكتور هيكل عام ١٩٣٣ وبقي السؤال بلا إجابة حتى عرفنا مفهوم الإسلام الصحيح بعد ذلك بسنوات، حين استحصدت حركة اليقظة وتعرفنا إلى دعاتها وقائدها ووجدنا أن هناك تياراً قوياً تحمل لوائه حركة الإصلاح التي استمدت من دعوة التوحيد، ونمت في صحف المنار والفتح وكتابات أعلام الدعوة الإسلامية التي استطاعت أن تقول الكلمة التي تفجر القلوب: الإسلام ليس ديناً فحسب ولكنه إلى ذلك نظام مجتمع ومنهج حياة ومن وراء ذلك تحول كبير في كل المجالات، في الأدب وفي الصحافة وفي مفاهيم الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية، هذا هو التحول الحقيقي الذي طرأ

على كثير من أبناء جيلنا فصاغ نفوسنا من جديد ودفعنا إلى أن يكون للقلم رسالة حقيقية وأن نجد الإجابة على التساؤل الذي أثاره الدكتور هيكل، حين ترجم ولخص كتاب المستشرق هاملتون جب (وجهة الإسلام) الذي كشف فيه لأول مرة أن الغرب يسعى من أجل «تغريب الإسلام» هذا الخطر الزاحف من وراء الاستشراق والتبشير واحتواء مصادر الثقافة والتعليم والصحافة. ومن ثم فقد بان الصباح لكل ذي عينين.

المنطلق الأول: الأدب العربي:

ولقد كان منطلقي الأول هو الأدب، التعبير عن النفس وقد كان الأدب في هذه المرحلة «شيء ضخم» قائم بذاته يقول دعاته أنهم أحرار في أن يعبروا عما يريدون ولا يخضعون لأحد فقد هداهم عميدهم إلى أن الأدب العربي يجب أن ينفصل عن الفكر الإسلامي، وأن يتخوض في كل مجالات الحياة حراً لا يستطيع أحد أن يوقفه، وأن يدعو إلى الحرية والكشف وإحياء ذلك التراث السخيف من شعر أبي النواس والضحاك وغيرهم من الزنادقة في العصر العباسي، وأنه يترجم من الأدب الفرنسي روايات الجنس المكشوف وأنه يجعل ألف ليلة وكتاب الأغاني مصادر لدراسة الحياة الاجتماعية الإسلامية وكان مما توصل له طه حسين أن القرن الثاني للهجرة كان عصر زندقة ومجون وامتد العمل إلى إحياء تراث إخوان الصفا والحلاج وكل فاسق وملحد وزائف وإنكار فضل الأعلام أمثال (الغزالي) الذي يعالجه زكي مبارك في أطروحة دكتوراه، وابن خلدون الذي هاجمه طه حسين في أطروحة فرنسية، وهكذا تكشف لنا أن هناك محاولة ضخمة لإفساد الفكر الإسلامي وإشاعة روح الزندقة والإباحية خاصة بعد أن أعلن طه حسين «نظرية الشك» في كل الحقائق القائمة في الفكر والحياة العربية الإسلامية فأنكر نزول الدين من السماء ووجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وأنكر الشعر الجاهلي وقال إنه منحول وضع بعد الإسلام، وأنكر عروبة مصر وقال أن العرب فاتحون كالرومان والفرس، إلخ.

وهكذا فقد كان لا بد من إعادة النظر في جميع قضايا الأدب العربي في

ضوء الإسلام وخاصة بالنسبة للمنهج الغربي في نقد الأدب وتاريخه وهو مذهب وافد يستمد مفاهيمه من نظرية دارون وفرويد وأوجست كونت و«دوركايم» وهي تقوم على المادية المطلقة وعلى أن الإنسان حيوان خاضع لشهوتي الطعام والجنس وهي المفاهيم التي صاغها تين وبرونتير والتي ما تزال تدرس في كليات الأدب في العالم العربي.

كذلك فقد كان الأدب يدرس على أنه أدب إقليمي خاضع لتيارات قديمة كانت قبل الإسلام كالفرعونية في مصر والفينيقية في لبنان والأشورية والبابلية في العراق وكان علينا أن ندرس الأدب العربي المعاصر: أدب أمة عربية دينها الإسلام وكتابها القرآن من المحيط إلى الخليج ومن منطلق عربي وليس من منطلق الإقليمية وكان أبرز ما قدمت في هذه الناحية: «خصائص الأدب العربي في مواجهة مذاهب النقد الوافد».

المنطلق الثاني: التراجم:

كان المنطلق الثاني هو دراسة أعلام العرب والمسلمين في المرحلة الممتدة من جمال الدين الأفغاني (مطالع اليقظة) إلى الحرب العالمية الثانية. وكنت أرى أن هذا العمل من أضخم الواجبات الملقاة على عاتق الكاتبين وذلك لإحياء تراث هذه المرحلة الذي كاد يضيع في دوريات الصحف التي تآكلت في دار الكتب، وفيهم أعلام كبار قدموا لأمتهم في مرحلة المقاومة وفي مجال الوطنية والعلم والثقافة الكثير وقد تبلور هذا المفهوم إلى دراسة جوانب المجتمع العربي كله في مجالات الطب والمحاماة والاقتصاد والجامعة والأزهر وكان أبرز ما قدمت في هذه الناحية (تراجم أعلام القرن الرابع عشر الهجري) وتضم أكثر من مائتي شخصية (وذلك غير أعلام الأدب من شعر وقصة ونثر وترجمة).

المنطلق الثالث: الصحافة:

وكان لي في مجال الصحافة تجربة ضخمة وواسعة امتدت أكثر من أربعين عاماً وكان علي أن أدرس موقف الصحافة في مرحلتين: في ظل الاحتلال وفي

ظل الاستقلال دراسة كاملة. ولكن صحافة مصر خلال سنوات ١٨٧٥ إلى اليوم تمثل تجربة ضخمة - تصل إلى قرابة قرن كامل، تكشفت فيها تيارات ومخططات بعيدة المدى، وقد وضعت في هذا الباب دراستين:

تطور الصحافة العربية، الصحافة السياسية في مصر.

وحاولت أن أدرس صحافة النكسة خلال الفترة من ١٩٤٨ - ١٩٦٨ (من سقوط فلسطين إلى سقوط القدس) في دراسة خاصة تحت عنوان (الصحافة والأقلام المسمومة).

المنطلق الرابع: التحديات التي تواجه الفكر الإسلامي:

وكان هذا هو المنطلق الحقيقي بعد أن تنازعت بلادنا العربية الإسلامية أخطار النفوذ الغربي والنفوذ الماركسي والنفوذ الصهيوني. وخاصة الفكر الماركسي في عقد الستينات اللعين على حد تعبير الدكتور عبدالعزيز الدسوقي.

وفي هذا المجال حاولت دراسة الأخطار التي واجهت الفكر الإسلامي عن طريق مؤسسات التبشير والاستشراق والإرساليات ومفاهيم التعليم والصحافة والثقافة كالديمقراطية والاشتراكية والماركسية والوجودية والفرويدية وغيرها.

المنطلق الخامس: دراسة الفكر الإسلامي الأصيل:

وكان لا بد بعد ذلك من تقديم الفكر الإسلامي الأصيل من منطلق مفهوم السُّنة الجامعة والتوحيد الخالص وذلك عن طريق «معلمة الإسلام» التي أخرجت خمسون حلقة صغيرة إلى الآن وقد استكملت إلى مائة وذلك لإضاءة الطريق أمام المنهج الإسلامي الجامع في الاقتصاد والسياسة والاجتماع والتربية.

* * *

ولا أعتقد أنني من خلال هذا العمل الممتد الذي بدأ بصورة عامة منذ أربعين عامًا وبصورة صحيحة في إطار التحدي الحقيقي الذي واجه الأمة

العربية في الستينات، حتى اليوم على النحو الذي يجعلها نـافعة للمسلمـين مقبولة عند الله.

من هذا يمكن القول بأن التحدي بدا فعلاً في مطالع الشباب ممثلاً في كلمة «التغريب» وكان رد الفعل بفهم الإسلام مفهوماً جامعاً: هذا المفهوم الذي غير طريقي تماماً وكشف لي عيوب الفكر الواقد وأخطائه، فقد كنت لولا ذلك أراه كما رآه الكثيرون وأسير في نطاقه دون أن أتبين مدى الخطر الذي يحمله، ولكن الجولة الحاسمة في حياتي حقاً كانت بعد سقوط القدس وانتشار الماركسية وتغلغلها. فقد أعادت أمام نظري الحساب، والتقدير، وبدا لي أنه من الضروري العمل في مواجهة هذا الفكر الغربي الوافد وكان هذا كله من تقدير الله تبارك وتعالى وهدايته.

من هنا بدأت تلك النقطة المضيئة التي دفعتني إلى «إعادة النظر» في كل المطروح في مجال الفكر الإسلامي إيماناً مني بأن أي منهج من مناهـج الفكر سواء أكانت الأدب أم الفلسفة أم التاريخ، لابد أن يبدأ منطلقاً من النظرة الإسلامية الجامعة الأساسية القائمة على أنه منهج حياة ونظام مجتمع وبذلك تبين لي مدى عمق الفارق بين فكر جامع كالفكر الإسلامي الذي كون هذه الأمة خلال أربعة عشر قرناً وبين الفكر الغربي بشقيه وهو فكـر انشطاري يقوم أساساً على مفهوم المذهب المادي الذي لا يؤمن إلا بالمحسوس والذي فقد من أجل ذلك شطراً ضخماً من تشكيل النفس الإنسانية القائمة على جماع الروح والمادة والعقل والقلب والمحسوس والغيب والدنيا والآخرة.

من هنـا بدا لي أن المفهـوم الإسلامي أو التصـور الإسـلامي يحمـل تحفظات كثيرة على ما كتب ويكتب في صحفنا وكتبنا في العصر الحديث من مفاهيم، وكان لا بد من النظر في تلك المفاهيم المطروحة والقضايا المسلمة الخاطئة مثل نظرية ارتباط الفكر الإسلامي بالفلسفة اليونانية، ومحاولات تمزيق جبهة الأمة الإسلامية القائمة على الوحدة والتوحيد إلى فكر فارسي وفكر تركي وفكـر هندي بينـما صاغ الإسـلام عقليـات البـيروني والغـزالي والـزمخشري

وعشرات من كتاب الإسلام وأخرجهم من ضيق العنصريات والـدماء وعصبيتها إلى سماحة الإسلام ووحدته فهو الذي صنع هذه العقليات وغذاها بمفهومه الجامع، فلم تكن تنظر إلى هذه النظرة التي طرأت على الأمة الإسلامية بعد أن بسط النفوذ الأجنبي سلطانه على بلادنا واستهدف القضاء على الوحدة الجامعة الممثلة في الخلافة الإسلامية والدولة العثمانية التي تجمع العرب والترك وسائر المسلمين خارج نطاق الدولة ومن هنا كان لابد من تصحيح تاريخ الإسلام الحديث والمعاصر إزاء عشرات الشبهات والكتابة الزائفة له التي قام بها خصوم الإسلام ممن تولوا أمر الصحافة العربية في إبان الاحتلال البريطاني والفرنسي وخصوم الدولة العثمانية وخاصة فيما يتصل بموقف السلطان عبدالحميد عن قضية فلسطين وصموده في مواجهة اليهود وتآمر اليهود عليه وخلعه وما تبع ذلك من خطوات حول الاتحاديين والماسون وغيرهم في سبيل تمزيق الوحدة الإسلامية بالدعوات الإقليمية والقومية الضيقة المفرغة من مفاهيمها الإسلامية، وهو ما سيطر خلال فترة ما بين الحربين على المنطقة كلها وبدأ بالنكبة وانتهى بالهزيمة والنكسة.

كذلك لابد من مواجهة أخطار الاستشراق في موقفه من مفهوم الإسلام ومحاولة إثارة دعوى (عبادية الإسلام) وفق مفهوم العلمانية والماركسية وما يتصل بقضايا الصهيونية واليهودية، وما يتصل بقضايا الفكر النفسي والاجتماعي والأخلاقي ومفاهيم فرويد وسارتر ودوركايم وغيرها كل هذا كان مطروحاً في أفق الفكر الإسلامي على أنه علم خالص بينما لم يكن أكثر من نظريات فلسفة - لا علمية - قابلة للخطأ والصواب وفروض قدمها علماء الغرب الماديين في غيبة المنهج الرباني الجامع الذي عرفه الإسلام.

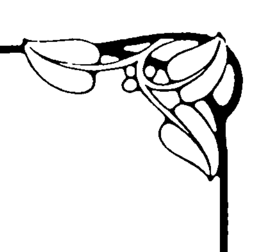
وهكذا كانت هذه النقطة المضيئة في فهم الإسلام بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع جديرة بأن تفرض تصوراً كاملاً لكل نواحي الحياة والفكر وتقدم منظومة صحيحة جامعة، صحيح أنني لم أكن في كل هذا إلا أحد العاملين في حقل يضم عشرات الباحثين المسلمين الأبرار، وماتزال كتاباتي مدينة بالفضل للرجال الأبرار الذين رسموا لنا الطريق ومايزال عملنا هو جزء قليل من

تراث ضخم قام عليه أصحاب حركة اليقظة الإسلامية ونرجو أن يكون الحديث عن ذلك بعيد عن الاستطالة أو الاستعلاء ونستغفر الله من الدعاوى الباطلة ومن الإسراف ولا نعد عملنا هذا إلا خيطاً أو رمزاً لهذا الاتجاه الجامع الضخم الذي تمكنت جذوره في التربة الإسلامية وأصبح قادراً على أن يمد العشرات بل المئات من العاملين والله ولي التوفيق.

تحفظ حول التخصص:

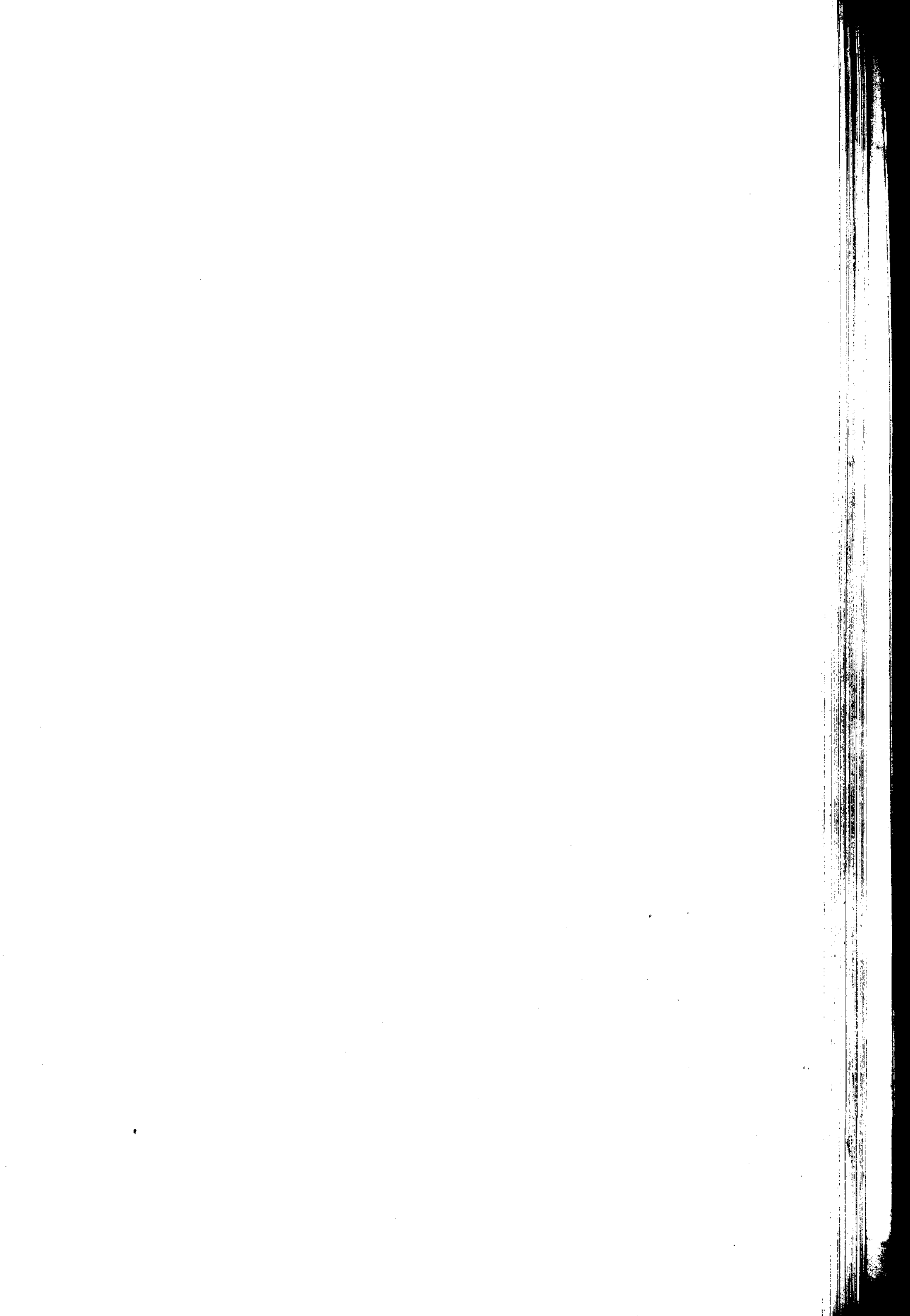
لعل بعض المثقفين ينظر فيرى أن الكاتب الذي يكتب في كل شيء لا يتعدى الأوليات والحقيقة أن مفهوم الإسلام مختلف فهو لا يرى التخصص مانعاً من معرفة الأصول الجامعة وفهمها والتبريز فيها، ولقد كان المفكرون متخصصين بينما كان الدعاة إلى الله جامعين لعناصر التخصص، وإلا فما قيمة التخصص إلا إذا انفصل عن القاعدة ومن يستفيد به، إن الإسلام لا يقبل الأديب أو الفيلسوف أو المؤرخ المستقل في وجهته أو باحث النفس والاجتماع الذي يدعي كل منهم في تخصصه أنه هو المفكر، وأنه يستطيع من هذا الفرع أن يتقدم بقاعدة عامة للبشرية وكان هذا هو الخطأ الذي أخطأه ماركس في دراسته للاقتصاد بأن جعل منه منهجاً عاماً أو حين تخصص فرويد في النفس واستطاع في السنوات الأخيرة من حياته أن يقدم منهجاً عاماً، أو تلك الدعاوى التي عرضت عن بعض الأدباء في بعض الفترات الماضية من استباحة الحديث عن كل شيء، والادعاء بأن الأدب حر مستقل عن الفكر الإسلامي، الحقيقة أن فروع الفكر الإسلامي القائمة في مجال التخصص يجب أن تصب في أيدي الدعاة الإسلاميين ليستطيعوا أن يقدموا نظرة جامعة للإنسان بوصف الإسلام منهجاً جامعاً يرسم للإنسان طريقاً متكاملاً، لا تعارض فيه بين الأخلاق والفن ولا بين العقيدة والفقه، ولا بين التربية والتعليم. ومن هنا كان لابد للباحث المسلم أن يكون دارساً جامعياً على قاعدة واسعة للإسلام كله في مختلف قضاياه الاجتماعية والاقتصادية والتربوية، وأن يكون هناك في كل فن من هذه الفنون متخصصون يزودون الدعاة

بالتفاصيل والجزئيات في مجالاتها الفرعية، دون أن يخل ذلك بالنظرة الكاملة
الجامعة أو دون أن يكون لفرع من هـذه الفروع طابع الاستعلاء على النحو
الذي عرف للفلاسفة أو للمتصوفة أو للمعتزلة بادعاء أن مفهومهم هو مفهوم
الإسلام ومن خلال ذلك تقلص التوازن وعلت صيحة الاستعلاء العقلاني أو
الوجداني بينما الإسلام جامع متكامل.



الباب الخامس

تجربة القراءة والرحلة ولقاء العظماء



تمتد أبعاد الشخصية الإنسانية للكاتب في مجالات عديدة وتتمثل هذه المصادر في أربع مكونات أساسية:

١ ــ القراءة.

٢ ــ الرحلة.

٣ ــ لقاء العظماء.

٤ ــ الندوات والمؤتمرات العالمية.

كانت نشأة الريف عاملاً من عوامل الانصراف إلى القراءة حيث لا توجد أي وسائل أخرى لاستغلال الوقت وخاصة بعد أن انتهت فترة التعليم وبدأت مشاغل العمل القليلة الجهد مع الحرص الشديد على نصيحة أهديت إلي من الدكتور زكي مبارك وهي قراءة كل ما يقع تحت يدي من الكتب والصحف، وفي الريف وخلال عشر سنوات أو أكثر قبل رحيلي إلى القاهرة تنوعت القراءات وكانت في أول الأمر سائبة غير موجهة ثم غلب عليها الأدب والتراجم ثم أخذت ترمي إلى تصور لأدب عربي من المحيط إلى الخليج برجاله وأبطاله وأعلامه وأعلام الكفاح الوطني المطالبين بالجلاء والحرية والاستقلال وكان الإسلام وتاريخه يمثل مرحلة من المراحل ولكن بالمفهوم التقليدي الأول.

غير أن اللحظة الحاسمة لم تلبث أن أقبلت عندما تعرفت على مفاهيم الدعوة الإسلامية أو بتعبير تلك المرحلة: «صححت إسلامي»، هناك تولد

تصور واسع عميق بمفهوم جديد لم يلبث أن نتج عنه عمل كبير ذي ثلا
شعب:

أولاً: انهيار الحضارة الغربية.

ثانياً: الإسلام يزحف.

ثالثاً: قضية التغريب.

وكانت قضية التغريب قد أخذت تشغلني قبل الاتصال بالدع
الإسلامية ولكني كنت حائراً في التعرف على طريقة معالجتها حتى تكشف
مفهوم الإسلام الذي كان يصر الاستشراق على حجبه وتجاهله وهو أنه: «د
عبادة وحكم ونظام مجتمع» إلى جانب العلاقة بالله تبارك وتعالى.

لقد بدأت دراسة قضية التعريب منذ اليوم الأول الذي قرأت
ملخص كتاب (هاملتون جب وجماعة المستشرقين): (وجهة الإسلام) ال
لخصه الدكتور محمد حسين هيكل في ملحق السياسة الأسبوعية وشغلت
حتى جاء الوقت الذي كان علي أن أقدم دراسة شاملة عنه تحت عن
(الإسلام يزحف).

ومن خلال تفهمي لحركة الدعوة الإسلامية عرفت كيف أخذ الإس
يزحف سلمياً ويحقق انتصارات في مواقع كثيرة في نفس الوقت الذي ك
يواجه فيه تحديات كبرى من خلال حركة التتار وحركة الصليبيين وق
الإسلام على امتصاص القوى الكبرى كالتتار الذين دخلوا في الإسلا
وكيف اتسع نطاق الإسلام سلماً في قلب أفريقيا وجنوب شرق آسيا في
الأوقات التي كان يواجه فيها هزائمه في الأندلس وغيرها.

أما الحضارة الغربية فقد كان الإمام حسن البنا هو أول قادة الف
الإسلامي في العصر الحديث الذين أعلنوا في صراحة كاملة أننا نرفض
الحضارة لأنها تتعارض مع مفهوم التوحيد ومع قيم الأخلاق التي جاءت
الأديان وجاء بها الدين الحق.

غير أن مهمتي كباحث إسلامي انفتحت له آفاق الفهم الصحي

للإسلام دفعتني أن أواجه أخطر ما كان يمثل في هذه المرحلة وهو (الحزبية السياسية) التي نشأت بعد الحرب العالمية الأولى والتي سيطرت على نظام الحكم والتمست لها منطلقاً من الديمقراطية الغربية والتي أقامها النفوذ الاستعماري بديلاً عن حركة المقاومة الوطنمية ذات الطابع الإسلامي التي كانت تواجهه من قبل فكانت كتاباتي الواسعة والمفصلة عن الحزبية السياسية في مصر.

وقد جاء كتابي (اخرجوا من بلادنا) مقدمة لهذا الاتجاه والذي أثار القوى الحاكمة والسلطات الإنجليزية التي كانت لا تزال في قلب القاهرة وتوالت الدراسات في هذا المجال تكشف زيف هذه البطولات السياسية والحزبية المتصارعة والتي كانت تسيطر على السلطة منذ أفرغ الاستعمار البريطاني البلاد من قادتها الوطنية محمد فريد وعبدالعزيز جاويش وحجب هذا التيار بالسياسين المحترفين الذين قادهم سعد زغلول وعدلي وثروت وغيرهم والذين تصارعوا على الحكم وورثوه لأحزابهم حتى جاءت حركة الجيش فأنهته تماماً.

* * *

كان توجهي أول الأمر إلى الأدب وتاريخ الأدب ثم إلى أعلام العصر وفي ظل الدعوة إلى الوحدة الجامعة حرصت على دراسة الأدب العربي وأعلامه من الدار البيضاء إلى العراق ثم وسعت الدائرة إلى قادة الفكر الإسلامي عامة في مختلف المجالات ومن خلال العالم الإسلامي كله.

ثم جاءت المهمة الكبرى وهي: [محاولة بناء منهج كامل للفكر الإسلامي] يضم كل فروعه ومعطياته من خلال المفهوم الجامع للإسلام بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع.

وتصحيح المفاهيم في مختلف مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية وكشف زيف المقررات الفلسفية والعلمانية والباطنية والشعوبية التي حاول النفوذ الأجنبي إحيائها وترجمتها وتقديمها للمسلمين من جديد من أجل

تفريق وحدتهم ومن أجل ردهم إلى تصور الإسلام على نحو تصور اليهودية والمسيحية.

ولقد تبين من خلال الدراسة الموسوعية كم هي خطيرة تلك المؤامرة التي رسمها التغريب والاستشراق والتبشير والغزو الثقافي من أجل تزييف مفهوم الإسلام واحتوائه وتفريغه من قيمه ومنهجه في دائرة الفكر البشري للحيلولة بينه وبين العطاء الحقيقي وتبليغ رسالة الله تبارك وتعالى إلى العالمين بوصفه الدين العالمي الخاتم.

(١)
القـراءة

تواصلت قراءاتي على مدى العمـر الطويـل لم تتوقف، وهي مـطالعة موجهة في سبيل خدمة أهدافي في الـدعوة الإسـلامية أسـاساً وفي مـواجهة التغريب والغزو الثقافي.

ولقـد عكفت سنوات في دار الكتب في سبيـل حصر صورة الثقـافـة والفكر خلال فترة ما بين الحربين العالميتين من **١٩١٨** إلى **١٩٣٩**.

ولعلي قد قلبت أوراق جريدة الأهرام خلال هذه الفترة وفرغت موادها في كشوف لتعينني على دراسة جوانب متعددة.

ولعلي انتفعت بهذه الفهرس في إخراج دراستي عن تـاريخ الصحـافة العربية، وصورة المجتمع (الشرق في فجر اليقظة) وكان جل المجهود مركزاً على عملي (الفكر العربي في معركة التغريب والتبعية الثقـافية) الـذي صدر **١٩٦٧** والذي أعدنا طبعه في السنوات الأخيرة تحت عنوان:

(تاريخ الغزو الفكري والتغريب)،
خلال مرحلة ما بين الحربين العالميتين ١٩٢٠ ـ ١٩٤٠

كـذلك فقـد أعانتني هـذه الحصيلة في إعداد دراستي (معـالم تاريـخ الإسلام المعاصر).

ومما يذكر أنني أجريت إحصاء ومراجعة للكتاب العربي في دار الكتب (باب الخلق) فراجعت حوالي **٥٠** ألف كتاب واستخرجت منها ثبت لما يلزمني قراءته فبلغ حوالي ألف كتاب لا بـد للمثقف أن يقرأهـا وبالـرغم من أن

مكتبتي تحوي أكثر من ثلاثة آلاف كتاب في ذلك الوقت (الآن ضعف هذا العدد) وبالرغم من أنني قرأت في دار الكتب خلال عشرين عاماً منذ ١٩٤٦ - ١٩٦٦ أكثر من ألف كتاب على الأقل فإنني أعد ثبتاً بمائة كتاب لا بد من قراءتها.

وقد وجدت أن بحثي عن القيم الأساسية للثقافة العربية يتطلب مني مراجعة عشرات الكتب في أبواب الفلسفة والتشريع والحضارة والأدب، والدين والتاريخ وعلم النفس، والتصوف والاجتماع والاقتصاد والعلم.

وقد كانت هذه الدراسة مقدمة لموسوعة (معلمة الإسلام) التي حوت مائة مصطلح إسلامي.

ولعله لما يذكر في هذا الصدد أن نكسة ١٩٦٧ قد غيرت اتجاهي تماماً من الدراسات الإسلامية الحرة إلى التركيز على قضايا الغزو الفكري والتغريب من خلال الاستشراق الماركسي والصهيوني والغربي فتوقف العمل في دراسات ما بين الحربين.

وربما لا أكون مبالغاً إذا قلت أنني قرأت كل ما كتب بدون استثناء عن الإسلام والمسلمين والعرب في الغرب من مختلف كتابه الجائرين والمتصفين.

مما دفعني أن أجعل القضية الأولى والكبرى التي اعتبر نفسي مجنداً لها مدى الحياة هي تصحيح المفاهيم وتحرير القيم في مواجهة شبهات التغريب والغزو الثقافي والإفصاح عن دخائل الأوضاع والمفاهيم المعروضة في أفق الفكر الإسلامي والمطروحة من الثقافات الغربية والشرقية المختلفة ومراجعة النظريات والقضايا الفكرية سياسية واجتماعية وثقافية في ضوء الإسلام وصولاً إلى بناء منهج إسلامي متكامل وتقديم إطار واضح ومقدمة أساسية للمناهج الثقافية تكشف عن دور الإسلام في بناء علوم السياسة والاجتماع والتربية والاقتصاد والقانون جميعاً وتدحض أخطاء هذه المناهج الغربية مع كشف مفهوم الإسلام فيها وهو البديل الأصيل عنها.

(ومن هـذا المنطلق تم بعـون الله إنشاء) مـوسوعـة مقـدمـات العلوم والمناهج في عشر مجلدات:

١ ــ الفكر الإسلامي.
٢ ــ تاريخ الإسلام.
٣ ــ العالم الإسلامي.
٤ ــ الأدب والثقافة واللغة العربية.
٥ ــ التبشير والاستشراق.
٦ ــ المجتمع الإسلامي.
٧ ــ العلوم والحضارة.
٨ ــ الإسلام وموقفه من الفلسفات والأديان.
٩ ــ المنهج الغربي: أخطاؤه وشبهاته.
١٠ ــ حركة اليقظة الإسلامية.

ففي مجلد الأدب حققت لأول مـرة مفهوم الإسـلام وإبـراز الأعـلام الأبرار الذين لم يلمعوا في أفق الصحافة السياسية والذين قاموا بدور كبير في مواجهة التحدي الخطير الذي قام به التغريب والاستشراق والتبشير.

كذلك فقد أحلنا مفاهيم الفكر الإسلامي إلى الأدب العربي وكان قد سبقني في ذلك ـ إحقاقـاً للحق ـ السيد أبـو الحسن الندوي والشيـخ محمد بهجت الأثري.

(٢)
الرحلة
من رباط الفتح إلى جاكارتا[1]

كانت أمنية عزيزة ملأت نفسي أن أرحل فيها بين المحيط الأطلسي على شواطىء رباط الفتح إلى أندونيسيا في أرخبيل الملايو، باحثاً أمور المسلمين، دارساً لقضاياهم، متحدثاً مع أعلام فكرهم، محاوراً مع مثقفيهم تملؤني فكرة مدارسة الإسلام في مواقعه وعلى الطبيعة كما يقولون، وكانت من خلف هذه الرحلة ذكريات أصيلة جمعتها وقائع التاريخ ورحلات السابقين، ومواقف كريمة ما تزال تملأ نفس المسلم وتهز وجدانه، كيف عبر طارق بن زياد إلى الأندلس من الزقاق، وكيف دفع عقبة بن نافع حوافر فرسه في المحيط الأطلسي عند مدينة (أسفى) على قول الأستاذ حسن السايح بعد رحلته من القيروان حتى وصل إلى حيث وجد الماء يحيط به من كل مكان وقال كلمته المشهورة (والله لو أعلم أن وراءك أرضاً لذهبت إليها غازياً في سبيل الله).

---

(١) كان الالتقاء في أقصى المشرق بعلماء المسلمين هذه المرة (شوال ١٤٠٠) في ثالث رحلة خلال هذا العام (محرم: الدوحة ـ مارس: الرياض ـ أغسطس: جاكارتا) كان اللقاء ساراً وشائقاً وكريماً.
وأبرز ما فيه هو الثمرة التي أنبتتها الشجرة بعد طول العمل من أجل غرسها وسقياها فقد وجدت في هذا المكان البعيد من لا يزال يذكر ولا يزال يقرأ ما كتبناه منذ أكثر من عشرين عاماً، ووجدت من الأعضاء وعلى مختلف بلاد القارات الخمس من قرأ بعض الرسائل ووعى بعض الآراء التي كانت كلها خالصة لوجهه تعالى منذ بداية الكلام عن التغريب في سنوات ١٩٤٦ وربما من قبل ذلك عندما التقيت بذلك النبع الكريم ١٩٤٠ وتوجهت النفس إلى العمل تحت لواء الحنيفية السمحاء.

وفي الناحية الأخرى كانت لنا مواقف مع ابن بطوطة الذي كان من أوائل الرحالة الذين كتبوا عن جاوه ودخول الإسلام إليها؛ جاءت رحلة رباط الفتح بعد أكثر من عشرين عاماً من رحلات متعددة إلى مكة المكرمة والرياض وقطر ودولة الإمارات وتونس والجزائر والمدينة المنورة والسودان قابلت فيها عشرات من الباحثين والعلماء والمفكرين، وحضرت عدداً من المؤتمرات التي تدارست قضايا الإسلام والفكر الإسلامي وإذا كنت قد قطعت هذه الجولة الواسعة في القارة الإسلامية من مطلع الشمس في أرخبيل الملايو إلى غروب الشمس في المحيط الأطلسي على حدود رباط الفتح فما زلت أطمح إلى أن تتسع الجولة إلى الهند وتركيا وأفريقيا فقد وصلت إلى تمرنست في جنوب الجزائر على حدود مالي حيث تعيش قبائل الطوارق، فإني تأخرت كثيراً في تلبية دعوات أخوتنا في ندوة العلماء في لكهنؤ حيث يقيم شيخنا الجليل السيد أبو الحسن الندوي، أو أصل إلى قلب باكستان لأحدث خلفاء الداعية الكبير الشيخ المودودي وإن كنت قد قابلت هؤلاء وهؤلاء في مكة المكرمة والسودان والقاهرة وتحدثت إليهم وما أظنني خرجت من بلد إسلامي ضيق الصدر حزيناً كما حدث لي في زيارة أندونيسيا حيث رأيت تيار التبشير والتنصير المسيحي يوغل في جوانبها وحيث ترى الكنائس الشاهقة في قلب عاصمتها وحيث يجري الحديث عن دين جديد تجري القوى التغريبية فرضه على المسلمين وهو دين الباطنية الوثني حيث ترى تماثيل بوذا في كل مكان حتى على أبواب القصر الذي عقد فيه ملتقى الأعلام الإسلامي وحيث دق جرس كبير إعلاناً بافتتاح هذا المؤتمر.

وفي جوار البيت العتيق جاورت شهوراً في عامين متتالين والفت في ظلال الكعبة، وعشت أياماً مسعدة للنفس حيث كنت أصلي وأطوف كل صباح ومساء، فضلاً عن إقامتي داخل مكتبة الحرم فضلاً عن العمرة والحج وصعود جبل عرفات منذ الجولة الأولى عام ١٩٤٦ برفقة الأستاذ حسن البنا رضوان الله عليه وكانت أولى رحلاتي خارج مصر، ومن ثم توالت رحلاتي مرتبطة بمؤتمرات إسلامية عقدت هنا وهناك، وما أحسست بجمال بلد كما

وجدت حين زرت تلمسان وبجاية والجزائر العاصمة، حيث التقيت بالكثير من العلماء والباحثين وحيث دحضنا كثيراً من شبهات المستشرقين الذين جاءوا واستمعوا بأنفسهم.

أما في قطر فقد حدث أضخم تجمع للعلماء المسلمين من العالم كله عندما احتفل بعقد مؤتمر السنة والسيرة الثالث (بعد أن عقد في تركيا وباكستان) حيث وقفنا على ساحل الخليج ننظر في الأفق إلى حيث تمر الناقلات العملاقة، وقد حدث مثل الشيء في زيارتنا لأبي ظبي التي استضافتنا جامعتها في العين وحيث اقتحم نزلنا شاب طموح يعمل في الإذاعة المرئية ومعه كتب كنا قد ألفناها منذ عشر سنوات يطالبنا بأن نجري مناقشات حولها وقد غاب عن الذهن كثيراً من معالمها بعد أن تتابعت أعمالنا في موسوعة (مقدمات العلوم والمناهج) وقد وفقنا الله تبارك وتعالى إلى تقديم عدد من المحاضرات والمساجلات.

وفي الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية حضرنا عدداً من المؤتمرات: مؤتمر الفقه، مؤتمر الشيخ محمد بن عبدالوهاب، مؤتمر الأدب الإسلامي.

وقد تحقق لنا أن نزور مكة والمدينة المنورة في رحلتين منها وأن نتم العمرة ونأنس بزيارة مسجد الرسول ﷺ.

وفي هذه الجولات المتعددة والرحلات المتوالية شرقاً وغرباً التقينا بعشرات الرجال الأعلام الذين يقبضون بأيديهم على ناصية الفكر الإسلامي وجلست إليهم خارج الندوات، وتحدثنا طويلاً عن الأخطار التي تواجه أمتنا الإسلامية والتحديات التي فرضها النفوذ الأجنبي، جلست طويلاً إلى محمد المبارك والمهدي بن عبود ومحمود شيت خطاب ومصطفى الزرقا، ومصطفى السباعي وعمر الأميري، وأحمد عبدالعزيز المبارك والشاذلي بلقاضي والشاذلي النيفر ومالك بن نبي وإبراهيم القطان ومحمد المجذوب وطفيل بن محمد وعبدالله الأنصاري وعلال الفاسي وعثمان الكعاك ومولود قاسم والمنتصر الكتاني.

وقابلنا نجم الدين أربكان موقظ الإسلام في تركيا ومن إيران وأفغانستان

وباكستان قابلنا الكثيرين وتحدثنا معهم فضلاً عن أناس كان لهم دور في حماية اللغة العربية جاؤوا إلى مصر وقابلناهم في مؤتمرات كثيرة خارجها أمثال أحمد توفيق المدني والشيبخ بهجت الأثري والدكتور عمر فروخ والسيد عبدالله كنون وعبدالله التل والصواف وفي ملتقيات الجزائر سجريد هونكه وموريس بوكاي.

ومع كل هؤلاء الأعلام تحدثنا عن قضيتنا الأولى والكبرى: التغريب والغزو الفكري وأخذنا وأعطينا كثيراً وفتحت الرحلة أمامنا آفاقاً جديدة وأوحت بكتابات كثيرة في المجلات الإسلامية الخصبة فكل كان له دوره في العمل الإسلامي وإضافته الواضحة.

وأينما ذهبت مشرقاً أو مغرباً فإنك واجد آثار دعوة التوحيد: التي حملت لواء اليقظة الإسلامية والخروج من التبعية وجبرية التصوف والعودة إلى المنابع فكل هؤلاء الذين أعلنوا قومهم قد ذهبوا إلى مكة واستمعوا إلى دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وقادوا قومهم إلى التحرر من النفوذ الأجنبي: محمد بن علي السنوسي في برقة والمهدي في السودان وأحمد بن عرفان في الهند.

ثم جاء الشيخ رشيد رضا فنثر (المنار) يحمل مفهوم السلفية الصحيح فوصل إلى قلب (جاوه) وكان له أثره في إنشاء (حزب ماشوهي) ثم كان له أثره في قطر حيث واجه المصلحون مؤامرة المبشر المقتحم (صمويل زويمر) فإذا ذهبت إلى الجزائر وجدت آثار المنار وكان الشيخ محمد عبده قد زارها عام ١٩٠٥ وخطب فيها وتحدث إلى الطامحين في الإصلاح، ومن هناك ظهرت الصادقية في الزيتونة وظهر محمد بن العربي في القرويين ومعه شعيب الدكالي ثم ظهر في الجزائر عملاق هو الشيخ عبدالحميد بن باديس ثم ظهر علال الفاسي ومالك بن نبي والطاهر بن عاشور ووالده الصادق بن عاشور في مراكش والجزائر وتونس على التوالي وبقيت آثار السنوسية تعمل ليس في طرابلس الغرب وما حولها بل امتدت إلى قلب أفريقيا.

وفي كل هذه الأقطار كان اسم ابن خلدون هو علمهم الأكبر وقدوتهم وكانت مقدمته علامة اليقظة الصحيحة، وعليها تعلم خير الدين التونسي المصلح الذي ذهب إلى الغرب في نفس الوقت الذي ذهب فيه رفاعة

الطهطهاوي، كل هؤلاء رأينا آثارهم وتحدثنا مع تلاميذهم في كل بلد ذهبنا إليه.

ثم جاءت آثار اليقظة وتطورت الفكرة الإسلامية حتى تبلورت في التربية وبناء الأجيال وفق مفهوم القرآن إيماناً بالإسلام منهج حياة ونظام مجتمع في هذه الصحوة التي تطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية وإقامة المجتمع الرباني في هذه القارة الإسلامية (من رباط الفتح إلى جاكارتا) وهو المحور الإسلامي المواجه لمحور الغرب (باريس نيويورك) على حد تعبير مالك بن نبي، إن هذه المنطقة الإسلامية تمور اليوم موراً وهي تتطلع إلى الأصالة والعودة إلى المنابع وإقامة منهج الله على الأرض مرة أخرى مزيحة من طريقها التبعية والتغريب الذين سيطرا عليها قرناً كاملاً والآن قد طلع الفجر.

(٣)
وقفة أمام الكعبة في بيت الله الحرام

عندما وقـع البصر على الكعبـة المشرفة خفق القلب ودمعت العـين، وانطوى التاريخ كله في صورة وتجمع الماضي كله في لمحة، كانت الفـرحة غامرة ولم تكن هناك فرحة في الحياة كلها يمكن أن تصل في الدرجة والعمق إلى مثل ما كانت فرحة لقاء بيت الله الحرام. ولم تكن هذه هي المرة الأولى ولا الثانية، خلال أكثر من ثلاثين عاماً، ولكنها كانت هذه المرة مختلفة كل الاختلاف: فقد زادها تقدم العمر عمقاً، وزادتها الثقافة والفهم قوة، وزادها الإيمان فيضاً، وزادتها عوامل أخرى كثيرة، هي العطاء الجامع الواسع حين يدلف مسلم إلى الكعبة ومعه أمه وزوجه وابنته وابنه وحفيدته، في موكب واحد وقد استظلوا بظل هذا اللواء، وقطعوا الطريق إلى الله قاصدين وجهه الكريم، أي حلم أو خيال يمكن أن يصل إلى مثل هذا الواقع، حين يرى المسلم أربعة أجيال في موكب:

يرى هذه الأم العجوز التي تدلف إلى الثمانين وهي تسير بين الأعمدة وقد احتواها البيت الحرام، منطلقة نحو الكعبة في فرحة سن العشرين، وكأنما أعطيت الدنيا كلها، وقد اختصرت سنوات حياتها فلم تجد في هذه الأعوام الثمانين لحـظة أشرف أو أعظم أو أبقى عـلى الدهـر من هذه السـاعة التي أذن الله فيها بأن تطوف حول الكعبـة، وتصلي في المقـام وتشرب من زمزم وتقف في الملتزم، وتـدعو في الحجـر، هذه الأم التي تعبت وشقيت، وقـد أجزل الله لها العطاء، لقاء ما حملت وولدت وجهدت، بعد أن مرت سنوات العمر كلها بهذا العطاء.

وتلك هي الزوجة أعانت وخدمت وأصلحت وأقامت في بيت زوجها ترعاه وكان حلم حياتها أن تقف عند الحجر الأسود وتزاحم عليه لتلثمه وهي في ثيابها البيضاء، والبسمة تملأ وجهها وقلبها، ومن حولها زوجها وابنتها وحفيدتها، أي عطاء ذلك العطاء الذي أنعم به الله على هذه الأسرة؟! فأرسل بها إلى مكة تطالع فيها الكعبة الغراء كل صباح وتصلي في جوانبها الأربع، وتتعلق بأستارها، وتذهب وتجيء بين الصفا والمروة، ويذكرون ذلك التاريخ الحافل، يوم بناها إبراهيم وإسماعيل، ويوم جاءها محمد فاتحاً يحمل معه عطاء الدين ورحمة النبوة.

وإني لأسائل نفسي كيف لا يسعى إلى هذا الحرم الآمن، كل مسلم آتاه الله القدرة إليه؟ وكيف يكتمل إيمان مسلم لا يرى ويشاهد تلك المآثر الحية من عقيدته ودينه، وهذه الحقائق القائمة التي تزكي إيمانه وتدفعه صادقاً إلى العمل خالصاً مخلصاً لوجه الله الكريم؟!.

إن الإسلام: تلك العقيدة التي قامت على التوحيد الخالص لله، والتي ورثها المسلم عن أبويه، وقرأ دستورها القرآن وبرهانها السنة النبوية، وعايش سيرة الرسول الكريم، وأقام فرائضها وسننها، لتجد في زيارة بيت الله الحرام زاداً جديداً يضاعف الإيمان ويوطده في أعماق النفس، ويكشف أمام الحائرين طريق الهدى، ويعطي للمترددين طابع الثقة ويرفع عن العيون غشاوة، ويمحو من القلوب سحابة، ويفتح الآفاق أمام النفس الإنسانية لتجد الطريق الحق: الطريق المستقيم.

ولقد يتكالب الناس على مطامع الحياة، ولقد يتزاحمون على موارد الطعام والشراب، ويذهبون مذاهبهم في الطموح وراء المال أو الشهرة أو اللذات، وهم ينسون حقيقة الإنسان، ورسالته وهدفه الأصيل.

ولكن الطريق إلى بيت الله الحرام يستطيع أن يضيء هذه النفوس، ويكشف لها حقائق الأمور، ويبين لها أن مطامع الحياة كلها ليست يسيرة وقليلة، وضئيلة، أمام طمأنينة النفس إلى الإيمان.

فيا ليت هذا الشباب قبل أن يرتفع العمر، يستطيع أن يقبل على

بيت الله الحرام، ويقف في هذا الرحاب المقدس، وينظر، ويعتبر، ويرى هؤلاء الذين قالوا: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له: محمد رسول الله حقاً وصدقاً). قد جاؤوا من كل مكان، من أجل الاستجابة لدعوة سيدهم ومولاهم الذي ناداهم.

فهم يرددون ويهتفون بقلوب ملؤها الإيمان: لبيك اللهم لبيك. وها هم يطوفون بالكعبة، وقد تركوا ألسنتهم المختلفة يناجون الله من حول الكعبة بلغة القرآن وحده وقد جمعتهم كلمته فأزالت فرقة الألسنة، وجمعهم دينه فأزال خلاف الأجناس والعناصر، فأصبحوا أمة واحدة. كل مسلم ينظر إلى أخيه المسلم في حب وحنان، فتمتلىء النفس طمأنينة ورضاً وسعادة وشرفاً، أن جعلنا الله من أمة محمد ﷺ.

فإذا أذن للصلاة اصطف المسلمون من حول البيت العتيق صفوفاً مستديرة وامتلأ ذلك الصحن الواسع بهم فإذا أمنوا سمع لصوتهم هدير، يقف المسلم لينظر فيرى ذلك كله، ويرى ذلك الزحام بالمناكب فيقول:

«الحمد لله الذي جعلني من أمة الإسلام».

أي شرف وأي عز وأي فضل، لله سبحانه وتعالى، أن كرم هذا المسلم بالإسلام، فهداه إليه وضمه إلى هذه الأمة الخاتمة، أمة القرآن التي جاءت من كل فج عميق داعية ملبية متطلعة إلى رحمة من الله ومغفرة.

جاءت والشوق يملأ القلوب لترى هذا البيت الحرام، أول بيت وضع للناس، حيث علت فيه كلمة التوحيد منذ أكثر من سبعة آلاف عام عندما بنى إسماعيل هذا البيت، وأذن إبراهيم بالحج، ومنذ ذلك اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والبيت قائم زاخر بالصلاة، عامر بالدعاء، ما زادته الأيام والسنوات إلا عزاً وتعظيماً ومهابة.

ما أبهى منظر الحرم في المساء وقد أضاء نوره فطغى على كل نور!! ما أبهى منظر الحرم في صلاة الجمعة، وقد جاءت سحابات بيضاء تسعى لتظل المصلين على الحصباء، وجاء حمام لينطلق هنا وهناك فلا يعدو الكعبة ولا يمر

فوقها، وجاء المسلمون من كل مكان ومعهم أكفانهم، يغسلونها بماء زمزم، ما أجمل هذا الموقف أمام الكعبة في الصباح والمساء!! بالتسبيح والعبادة والصلاة، والتأمل الطويل، واستيعاب السنن والمناسك، بين الحجر الأسود ومقام إبراهيم وحجر إسماعيل وزمزم والحطيم!!

(٤)
مؤتمر في مرسى مطروح

١٩٦٦/١٠/١٥

في أحد الفنادق أكتب هذا على شاطىء البحر الأبيض في مرسى مطروح على الشاطىء (لوكاندة ريم) البحر أمامي تميد إلى ما لا نهاية، أمواجه تصطخب، لونه اللازردي، يفتن البصر، هذه الأيام الجميلة التي انتزعتنا من دوامة العمل في القاهرة، لنعيش هنا، حيث ينطلق الفكر بعيداً محلقاً في الآفاق، السماء والبحر، والرمال البيضاء.

وهذه الصورة من حياة البدو في قلب الصحراء، هنا البحر الممتد إلى ما لا نهاية، والصحراء الممتدة إلى ما لا نهاية، ومن حولنا علم كثير، ومؤتمر يزخر بالكفايات والعلماء والباحثين حقاً؛ إن النفس قد غيرت من بيئتها المتشابهة، في محيط أكثر العمل فيه للفكر، إلى مجال جديد، فيه أيضاً فكر وبحث، ولكنه على نحو آخر، نحو أكثر تحرراً، لا شيء هنا يحد الفكر من الانطلاق، والاسترسال.

هذه الأيام الممتعة تمد النفس بزاد جديد، أواسط شهر أكتوبر في مرسى مطروح، لا يزال الجو رقيقاً ناعماً، الوجوه الكثيرة، المتعددة، تجد عندها الخبرة والعلم والتجربة.

ما أجمل أن يخرج الإنسان بين حين وحين من واقعه المتجمد على صورة عمل منظم دقيق، هناك حيث نلتقي في الساعة السادسة بالعمل، ثم نعود إليه في الساعة الرابعة، كأنما هو حد السيف الذي لا يتخلف، لا زيارات ولا اتصالات تحول دون الاستمرار، أحياناً نجد النفس في هذا التنظيم شقوة، لا

بد من التجدد، وإن كان الكشف في مجال البحث العلمي تجدداً روحياً، ومتعة لا حد لها، كان يصفها الأمام أبو حنيفة حين يقول: لو علم الملوك ما نحن فيه من لذة العلم لقاتلونا عليه.

ولكن إلى أي حد.

إن القراءة والثقافة امتداد إنساني لا حد له. وهو لا يكتفي ولا يتوقف وخاصة عند من يأخذون الفكر الإنساني بمفهوم الشمول، فلا يتوقفون عند التخصص إلا بعد استيعاب واسع.

هنا الباحثون يتخصصون مبكرين، ويقفون عند حدود تخصصهم، ولكن الثقافة الإنسانية واسعة عميقة في مجالات متعددة، هذا الشمول؛ هو طابع الفكر العربي الإسلامي أساساً، والنظرة الشاملة نظرة أكثر عمقاً وطلاقة، من النظرة الجزئية التي يفرضها التخصص والتخصص ارتقاء نوعي، ولكن الشمول توسع أفقي، هذا على الأعماق وهذا على الأبعاد.

ولا تضيق النفس قدر طبيعتها بالحدود، والجزئيات تقف عندها، فلا بد من نقطة ارتكاز وتوسع على الأطراف.

وقد اعتاد الباحثون المتخصصون أن يأخذوا لأبحاثهم، من القطاعات الأخرى، وعندي أن النظرة الكلية، الشاملة، ادعى إلى صدق الرأي.

هكذا كنت أتحدث مع بعض الزملاء هنا، لا بد من التخصص حقيقة، ولا بد من التوسع والتعمق، ولكن على أساس أن هناك نظرة شاملة كاملة للإنسان والمجتمع يخدم كل متخصص فيها بكفايته، فلا يقول باحث الاجتماع هذا ليس من اختصاصي ولكنه من شأن عالم التربية، أو الاقتصاد، أو الدين، أو الأدب، ولا يكون هناك من التعارض أو التصادم ما يضار به الإنسان والمجتمع أصلاً. فالنظرة الشاملة الأساسية تكون مدخلاً إلى النظرات الجزئية مرتبطة بها أساساً وخادمة لها.

وفي الرحلة لا ينسىَ الباحث المفكر صناعته، وإن ابتعد عنها، في داخل المكتبات ومع المراجع والأوراق.

وهنا التقيت بالدكتور مصطفى فهمي، الدكتور عماد الـدين سلطان، الدكتور كاظم، والأستاذ عبدالمنعم خلاف، الدكتور شبانة.

ومن ثم استأنف الباحث عمله بين البحر والصحراء، كانت العـربة البولمان تشق طريقها في الصحـراء ومن حولنـا الرمـال البيضاء، والخيـام، وشاطىء البحر الأبيض اللازردي، هذه المنطقة تبدو لماماً، ونحن نتحدث، لم يجد العقل فرصة لينطلق بعيداً عن قضايا الإنسان والمجتمع والحياة.

ولكنها هنا تعالج على نحو مفتوح، أحاديث ومحاورات، من غير ورق، ولا أحبار، ولا كتابة..

في هذه الرحلة تجد الشخصية الإنسانية امتداداتها في التأمل والنظرة، حيث تتراخى النفس بلا حدود، ولا قيود،..

والتعارف وإضافة صداقات جديدة، امتداد لأبعاد الشخصية الإنسانية وتوسيع لآفاق الحياة، فكل إنسان لديه جديد يضيفه، تجربـة أو علم، إن الحديث نفسه يتشقق، وتتكشف من وراءه تجارب، وتبرز نفسيات الناس، وهنا حيث البحر والصحراء، يتكشف النفوس على طبيعتها الأصلية، حيث يـذهب زيـد الـزيف والتكلف الـذي يضفيـه الإنسـان في المـدينـة عـلى شخصيته...

هنـا تبدو النفـوس عاريـة، أو شبه عـارية، وتبـدو دوافع الحيـاة في النفوس، وغاياتها، ويجد الإنسان طوابع مختلفة، وأخلاق ومشارب وعادات، تستطيع أن تزيد العقل معرفة، والتجربة عمقاً، والنفس إجابة على تساؤلات الحياة نفسها.

هذه الحياة ما غايتها، إلى أي هدف نحن نسعى فيها.

والبحر هنا عار، رواده قليلون، إنه بعيد منقطع، أما الصحراء فهي مجتمع آخر يختلف اختلافاً جذرياً عن مجتمع وادي النيل «البدو» لهم حياة أخرى، حيث الدنيا بطيئة الحركة، صامتة، تطلع الشمس وتغرب على رمال، وخيام فقيرة، وأغنام ترعى، ومن حول الآبار تتجمع القبائل، أين نحن في

المدينة من هذا، حيث السرعة العاصفة تطاردنا وتدفعنا، كأنما نحن مسوق
إلى غاية ليست واضحة تماماً أمام أعيننا. ولكن الحضارة تزحف، ولا تتردد
أن تغرو الصحراء، بالآلة والمعمل، تريد أن تنقب عما في بطنها من بترو
وما في قلبها من ماء، وما في أرضها من كنوز مدفونة، ولقد هزت الحض
الزاحفة الأوضاع في الصحراء، وزلزلت قوائم المجتمعات القديمة، واطل
حياة جديدة باهرة، لم تدع الفرصة لتطور بطيء أو سريع، وإنما كان الت
مفاجئاً، هناك في أجزاء كثيرة من العالم العربي، تحولت الصحراء في سنو
إلى جنان، وقذفت الأرض اليابسة الصماء الجافة التي عاشت ألوف الس
ساكنة تسفى عليها الرمال، وترهقها أشعة الشمس، عادت فانفجرت
أعماقها حياة، وبترول ومال كثير، فتحولت الحياة تحولاً خطيراً لم يكن لأهله
عهد.

وما يزال الإنسان في رحلة الحياة ينقب عن المدفون، ويخرج ك
الأرض بعد أن دانت له الطبيعة وذللت بقوة الله القادر المقتدر، فقد أص
الإنسان بالعلم والحضارة والآلة والتكنيك قادراً على مغالبة الطبيع
واستغلالها، ففي قلب هذه الصخور والجبال استطاع أن يبني السدود، و
ينشىء الطرق، وأن يحفر القنوات والأنفاق.. ويحول الأرض الجرداء
زراعات خضراء.

كل هذه المعاني تتدفق على النفس، ونحن نشق قلب الصحراء إ
واحة وادعة، قد أقيمت فيها خيمة حمراء جميلة وبسط فيها «سماط» بدو
حمّل باللحوم والأرز والتمر.. وجاء القادمون من المدينة يأكلون بأيديهم، م
غير تلك الأدوات المستحدثة، هذه هي الصورة التقليدية التي نسعى إلي
لنعيشها، ولكنا نصل إليها في جوف السيارات لا على ظهور الجمال.

ومن خلال الصورتين المتلاقيتين: البحر والصحراء، تتجدد ذكريات
ممتدة عبر سنوات طويلة، في البحر الأحمر، والعريش، والطور، وواحا
الداخلة والخارجة تضاف إلى مرسى مطروح.. وعلى البحر الأبيض يلتق
فيها البحر والصحراء، أو الماء والصخر، من خلال وقفات طويلة وجلسا

متعددة على الـرمال، وتـطلعات إلى مـا وراء الأفق، أو صيد لـلأسماك أو أحاديث تروى عن حياة البدو وتقاليدهم ومجتمعهم، الذي بدأت الحضارة تغروه، فتتحول الخيمة إلى مسكن، والجمل إلى سيارة، والمراعي إلى مزارع، حيث يستخرج الماء من جوف الأرض فإذا به يتحول إلى فيض غزير، أو تحول المياه الملحة إلى مياه عذبة..

(٥)
لقاءات مع الأعلام

عندما التقيت بالشيخ عبدالقادر المغربي قبل وفاته بسنوات، أحسست أن وجودي قد امتد حتى شهد (جمال الدين الأفغاني) فقد كان المغربي هو آخر هذا الجيل الذي رأى السيد والذي كان يحمل تلك الذكريات عن الأفغاني قبل أن يعبر إلى الشاطىء الآخر عام ١٨٩٧ ومن هذا الجيل لطفي السيد وسعد زغلول ومحمد عبده وشكيب أرسلان.

ولكل هؤلاء ذكريات مكتوبة عن الرجل الذي أطلق عليه لقب (موقظ الشرق) وعن لقاءات تمت بينهم وبينه في مصروفي إستانبول.

ولعل لطفي السيد هو آخر من رآه، وربما كان ذلك: هو خليل ثابت (رئيس تحرير جريدة المقطم الذي عاش بعد المغربي ولطفي السيد).

ولقد كنت حفياً بأن أجد رجلاً عايش جمال الدين وأستمع إليه لأتحقق من كثير من وقائع حياته وقد وجدت ذلك وحققت هذه الرغبة بلقائي للشيخ عبدالقادر المغربي في ندوة المرحوم محمد علي الطاهر في القاهرة عام ١٩٥٢.

وفي نفس الوقت التقيت برجل يرسم بحياته تاريخ عصر كامل في الجزائر هو البشير الإبراهيمي الذي شارك الإمام عبدالحميد باديس حركة الإصلاح والتعليم إبان الاحتلال في الثلاثينات من هذا القرن.

وبعد أن توفي فريد وجدي ١٩٥٣ ولطفي السيد ١٩٥٤ وعبدالقادر المغربي ١٩٥٦ لا أعتقد أن رجلاً من الأعلام المعمرين شهد مطالع القرن العشرين سوى الدكتور أحمد غلوش فقد أنشأ جمعية منع المسكرات عام١٩٠٥ وهو من القلة الذين شهدوا عهد الاحتلال البريطاني وتحدث مع كرومر.

هذا في مصر، أما في الشام فإن واحداً من هؤلاء المعمرين الأعلام ما زال حياً، ذلك هو (إحسان الجابري) الذي شهد عهد السلطان عبدالحميد وكان من كبار رجال القصر الهمايوني (أطال الله حياته).

وقد تحدثت معه طويلاً عن ذكريات ما قبل ١٩٠٨ وعن إنشاء مجلة الأمة العربية التي أصدرها في جنيف بالاشتراك مع الأمير شكيب إرسلان بعد الحرب الأولى. أما خليل ثابت فقد التقيت به في أوائل الستينات (قبل وفاته بقليل) وكان في التسعين من العمر رأس تحرير جريدة المقطم منذ ١٩١٣ وقد حدثني عن صفحات متعددة من تاريخ الاحتلال والأحزاب السياسية وتاريخ الصحافة في مصر والسودان وقصة جريدة المقطم.

وفي مجال الرواة عرفنا عدداً من حفظة الشعر القديم من هؤلاء كامل كيلاني وعلي الجندي، وكان كل منهما يحفظ أكثر من خمسة آلاف بيت، وكذلك كان زكي مبارك، غير أن أحداً لم يكن أقدر في الاستشهاد في اللحظة والتو إزاء أي موقف من المواقف بالشعر القديم على النحو الذي عرف لكامل كيلاني حتى أنه ما من نظرية مستحدثة في النفس أو الأخلاق أو الاجتماع إلا ويسارع بإيراد شعر من حفظه يمثل هذه النظريات والظواهر.

ولقد كانت مكتبات فريد وجدي وأحمد تيمور وأحمد زكي شيخ العروبة والعقاد من المكتبات التي يضرب بها المثل في سعة الحجم وفي تنوع الفنون. ولقد زاد على ذلك أحمد تيمور باشا أن كانت له «كناشة» في أكثر من أربعمائة صفحة بحجم الصحف اليومية تحمل قصاصات فترة لا تقل عن خمسين عاماً مما كان يقتطعه من الصحف ويضمه.

وما يزال من جيل طه حسين والعقاد والمازني يعيش اليوم الدكتور محمد صبري (أطال الله حياته) وهو قريب الآن من سن التسعين وله مكتبة حافلة وقد جمع أكثر من أربعة آلاف بيت من شعر شوقي المدفون في الصحف والدوريات القديمة وطبعه ونشره تحت عنوان «الشوقيات المجهولة».

ولقد انقضى جيل الزجل الذي كان يتزعمه بديع خيري وبيرم التونسي ويونس القاضي، كذلك انقضى جيل الشعراء الذين كانوا يقومون بإعداد

قصائد من الشعر الفكاهي على أوزان الشعر القديم من أمثال حسين شفيق المصري ومحمد مصطفى حمام.

وفي مجال المخطوطات ما يزال إبرهيم الأبياري وأبو الفضل إبراهيم وعبدالسلام هارون من أبرز العاملين في هذا المجال.

ومنذ أن توفي أحمد زكي شيخ العروبة ١٩٣٤ ومن قبله أحمد تيمور ١٩٢٩ وهما من عرفهما الناس، فرسا رهان في شراء الكتب لم نر كثيراً مثل طموحهما إلى جمع الكتب، ما عدا ما أثر عن محمد مسعود وكان ينافس زكي باشا في جمع القصاصات والجذاذات والوثائق، وكانت له مكتبة من هذا النوع رائعة، حتى قيل إنه كان يوظف لها رجلاً يرعاها، وقد أفادت جذاذات أحمد زكي وتيمور عشرات الباحثين وقدمت لهم مراجع سريعة سهلة أغنت عن طول بحث وراء مادة الأبحاث.

ولكن قصاصات محمد مسعود اختفت بعد موته ولم تظهر إلى اليوم وقد دفنت في (بدروم) يغرق كل عام بفيضان النيل، وحالت القضايا بين الورثة دون بروزها، حتى إذا انتهت هذه القضايا كانت هذه الثروة قد ضاعت. ومنذ أن توقف (المقتطف) الذي كان يطلقون عليه شيخ المجلات العربية بعد أكثر من ٧٥ عاماً اختفى مع جيل آخر من مراجع الكتب والمعلقين عليها وهو عمود هام في البحث العلمي ولم يبق من هذه المدرسة سوى محمد عبدالغني في مصر والشيخ العامودي في مكة وهلال ناجي في بغداد وعمر كحالة في دمشق ورحمة الله على عثمان الكعاك في تونس.

أما الأستاذ عبدالغني حسن فما زال المرجع الأول في القاهرة للكتاب العرب وما تزال تستطيع أن تسأل أحدهم عن أي مرجع أو باحث أو كتاب مطبوع وكان أحمد تيمور يفعل مثل ذلك وله كناشة ضخمة في دار الكتب تحت رقم ٣٢ أرشد إليها من يريد، تضم أكثر من أربعمائة صفحة بحجم الصحف اليومية، عبارة عن قصاصات صغيرة عن أحداث وأسماء ووفيات خلال حياته الطويلة العامرة حتى عام ١٩٣٠ تقريباً وقد وجدت فيها عشرات

من القضايا والمعارك والمساجلات التي دارت منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى نهاية أيامها.

وفي مجال المكتبات كان المرحوم عباس محمود العقاد، صاحب أضخم مكتبة، وما تزال مكتبة الدكتور محمد صبري أطال الله عمره، مثلاً على المكتبات الحافلة، وكذلك كانت مكتبة الدكتور زكي مبارك وفريد وجدي وأحمد أمين وعشرات من مكاتب الأدباء التي تبددت من بعدهم وضاعت.

ولا يزال الأستاذ علي أدهم هو أكبر قارىء في مصر بعد العقاد وما تزال مكتبته الحافلة تحوي أحدث الدراسات التاريخية والأدبية والفكرية من أنحاء العالم، وهو قارىء رصين وباحث أصيل وما تزال كتاباته ممتدة في مراجعات الأدب والفكر والفن منذ قرأت له أولها عام **١٩٢٢** في جريدة الدستور التي كان يصدرها فريد وجدي وربما له آثار تسبق هذا.

وما أظن أن في العالم العربي من يضاهيه في هذه المزية. وقد كان الأستاذ علي الجندي الذي ولي عمادة دار العلم سنوات هو بقية الرواة والحفاظ للشعر العربي القديم وشيخ الشعراء الغزليين في عصرنا وهو بقية جيل انقضى كان من أبرزه كامل كيلاني الذي كان يحفظ أكثر من خمسة آلاف بيت أغلبها للمعري.

وما يزال الدكتور محمد صبري هو أكبر أدباء الجيل القديم (الزيات، العقاد، طه حسين، هيكل، المازني) وهو الآن على أبواب التسعين وما يزال مشغولاً بدراسة عن الحضارة العربية في قلب أفريقيا، وذلك بعد أن أنقذ ٤ آلاف بيت من شعر شوقي كانت مندثرة في بطون الصحف استطاع أن يخرجها وإن كان شوقي لم يوقعها باسمه وكان يصعد معنا إلى مكتبة القلعة في طريق منحدر، في نشاط وحيوية لا تجدها في الشباب.

وفي مجال المخطوطات وتحقيقها ما يزال الثالوث العصري المتمثل في إبراهيم الأبياري وأبو الفضل إبراهيم وعبدالسلام هارون يعمل في نشاط وقوة وحيوية وما يزال الشيخ عبدالجليل عيسى وقد بلغ التسعين الآن يعمل في تفسير القرآن ويجلس في قهوة في شارع الألفي ومعه معاونوه. وقد التف حوله محبوه وأصدقاؤه (١٩٦٥).

(٦)
ذكريات مع الأعلام
«كامل كيلاني»

عبدالقادر المغربي، زكي مبارك، كامل كيلاني، بيرم التونسي، البشير الإبراهيمي:

هؤلاء الأعلام قابلتهم وعايشت المراحل الأخيرة من حياتهم، وأفدت من تجاربهم، وكتبت عنهم في مجالات التراجم والبحث الأدبي. ولكن هنا أكشف جانباً جديداً غضاً من «الذكريات الذاتية» التي حجبتها عن تلك الدراسات، لتكون خالصة للحقيقة التاريخية.

أما «كامل كيلاني» فقد عرفني به أستاذ جليل في رحاب الجمعية الجغرافية في «عصرية» طيبة، وقفت فيها مبهوتاً وأنا أستمع إلى رجل قصير القامة عذب النبرات يروي ما شاء الله له من الشعر ومن المأثور، كأنما قد احتوى الأدب العربي كله في خاطره أو في متناول يده، وهو لا يروي ذلك عفواً ولكنه يروي منه ما يتصل بالأحداث والمناسبات والمواقف، كأنما التاريخ يعيد نفسه، وكأنما كل ما نعيش فيه قد عايشه الشعراء من قبل ونظموا فيه ـ كنت أعرف عنه أنه «كاتب قصص الطفل»، تلك كانت شهرته عام ١٩٤٦ عندما التقيت به بعد أن أوغل في هذا العمل وتفرغ له وانقطع ـ أو كاد ـ عن العمل الأدبي الذي عرف به منذ مطالع حياته وخاصة تحقيقه لرسالة الغفران لأبي العلاء ودراسته لابن الرومي.

كان شعر أبي العلاء يجري على لسانه في كل مناسبة شجياً معبراً، وكان شعر البحتري وأبي تمام والمتنبي وغيرهم، ولكن المعري كان دائماً سيد الموقف، وهو الحبيب الأول.

ثم اتصلت بالرجل وجلست معه في ندوته العذبة، التي كان يتحلق فيها حوله عدد من محبيه فزادت معرفتي به، وعمقت، هذا الرجل القصير الذي قال عنه أحمد شوقي أمير الشعراء أنه كعقرب الثواني، ليس إلا طاقة حية لا تنفذ من الأدب والذكاء والفهم، طلي الحديث إلى أبعد حد، نافذ البصيرة إلى غير ما مدى.

وكتبت عنه في جريدة الزمان فصلاً قصيراً، ثم توالت دراستي لجوانبه وأعماله، وعمقت محبتي له، وصداقتي به فقد وجدت فيه ملاذاً نفسيًا بعد أن فقدت الصديق الذي عرفني به، وكنت في تلك المرحلة في حاجة إلى من أبثه نجواي وأستمع إليه، وآخذ بنصيحته وأنفع بتجربته، وكان عنده الكثير، مما يعطيه لأمثالنا.

كانت حصيلته من تجربة الحياة الأدبية ضخمة، ولكنها حصيلة مريرة. فقد واجه كثيراً من العقوق، ولقي كثيراً من المتاعب، وكان حفياً أن يبثني نجواه، وأن يكاشفني بسره، ويذكر لي بعض ما وجه إليه من كيد، فقد كانت الحياة الأدبية في هذه الفترة تذخر بالصراع، وبالجماعات، وبالخصومات، التي تؤرثها الأحزاب، والحياة السياسية المضطربة.

كان صديقاً للعقاد في أول الأمر، فلما عرف شوقي وأحبه، صار خصماً للعقاد، وكان صديقاً لأبي شادي ثم اختلفا بعد أن قال عنه صاحب (أبولو) أروع شعره، وكان طالباً في الجامعة القديمة وكاد أن يسافر في بعثة إلى فرنسا، لولا أن شطب اسمه في آخر لحظة، نتيجة دس أو وشاية واش.

وكان أحب الناس إليه صديقه كاتب الخط البارع: الأستاذ سيد إبراهيم أطال الله حياته، وكانا معاً ينشدان الشعر القديم، وكانت لهما جلسات طويلة وقراءات لا تنتهي.

وزاد اتصالي بكامل كيلاني، وكنت أجد عنده المحبة والتجربة. وكان ينصحني كثيراً ويقول لي لا تدخل معارك النقد وحاذر أن يشدك الكتاب إلى الصراع والسجال فإنه يضني القلب ويفني العمر واحرص على أن تسير في الشارع الواسع وإياك والأزقة واعمل عملاً كبيراً في مجال لم يعمل فيه أحد.

وإني لأذكر ذات ليلة وقد استفاض الحديث عن حمار الحكيم وحمار الكاتب الإسباني، وذهبت إليه لأحقق الأمر، فوجدت عنده علماً غزيراً، وتراثاً كبيراً مما كتب عن الحمير في الأداب الأوروبية وفي الأدب العربي، على نحو عجزت إزائه عن تقدير مدى عمق مطالعات الرجل في الآداب العالمية.

ولقد كان ثابتاً أمام الأهواء لا يلين، فلقد قالوا له أن ابن الرومي يصيب بشؤمه من يتناوله بالبحث، فالعقاد عندما تناوله بالبحث دخل السجن، والمازني حين كتب عنه كسرت ساقه فضحك في سخرية وقال: ذاك ابن الرومي، إنما شؤمه على نفسه.

وإني لأذكر كيف كان يحيي ابنتي كل عام ويتحفها بهديه، وهي تلميذة على قصصه، وكيف يسأل عنها فإذا كانت أيامه الأخيرة، جاء يزورني في عربة ابنه الأنيقة ورفض أن يترجل، أو يقبل أي تحية، وهو يسأل عن ابنتي الصغيرة في لهفة، فلما جاءت أركبها إلى جواره، ومضينا بعربته حتى صعدنا إلى طريق الهرم . . .

وهناك في الغروب حيث جلال الزمن يعانق جمال الطبيعة قال لي:

يا أخي: لقد جئت أودعك الوداع الأخير، وإني ربما لا ألقاك بعد اليوم، فاسألني عما تريد أن تعرف من أمري حتى تكون على بينة، ومضى يقص علي قصته مع خصومه، من قلب مليء بالحزن والحسرة ويكشف عن بعض حقائق الحياة الأدبية، ومواقف الأدباء إزاء مغريات الحياة وأخطائهم ولا يسترسل إلا ليدلني على مرجع من الصحف وشاهد من الناس، عما هو بسبيل الإفضاء به إلي مما لا يزال مستوراً في حجب الغيب.

ثم مضى إلى ربه بعد قليل وترك في قلبي جرحاً عميقاً.

كنت أحب فيه ذلك البشر وتلك السماحة، وهذه الطلاقة النفسية، وذلك الحديث الممتع، في كل شيء، وما زلت أذكر كيف كنا نقطع الطريق بين بيته في شارع حسن الأكبر والمكتبة في شارع البستان يتوكأ علي، ويتحدث، وأنا أستمع مشوقاً، كم كشف لي من آفاق في الأدب العربي ثرة

خصبة، لم تعالج بعد، ما من مذهب علمي أو نظرية في النفس أو الاجتماع حدثته عنها إلا وكشف لي عن أصلها وجذورها في أدبنا العربي وتراثنا الإسلامي.

وعجبت لذلك، وقلت: أما الشعر والاستشهاد به فذلك أمر عرفناه، رحل يحفظ عشرة آلاف بيت من الشعر استطاع أن ينسقها في ذهنه ويستشهد بها في كل موقف ومناسبة.

ولكن هذا الأمر الغريب، ما باله، وكيف جاء به.

وكشف لي عن السر فقال: كان ذلك، أستاذنا في الجامعة القديمة فرنسياً متعصباً للأدب الغربي يطالعنا كل يوم بقصيدة لأمثال لامرتين أو هوجو أو جيته أو هيني ثم يقول متحدياً: هذا المعنى لم يطرقه شاعر عربي، أنا أتحداكم أن تجدوا مثله عندكم. وتموج نفسي بالغضب والحزن، وأذهب فأنكب ليلي كله على دواوين الشعراء العرب على اللمبة نمرة خمسة.

ثم أعود إلى الجامعة في الصباح مقرح العينين، فأقول له إني قد وجدت مثله وخير منه عند شاعرنا: البحتري أو المتنبي، أو أبو تمام، أو ذو الرمة إلخ. فإذا به يجبهني بشعر آخر وأعود مرة أخرى إلى البحث، هكذا حتى تجمع لدي أكثر من بضع ومائتين مقابلة، ثم شاء الله أن أجد أكثر من أربعين معنى عربياً لم يطرقه شاعر غربي.

واليوم أسأل: أين مثل هذا العمل العتيد، وأجده مدفوناً في أضابير الغرفة التي كان يمضي فيها لياليه وأيامه، رحمه الله، في الدور الأول من منزله بشارع حسن الأكبر وأسأل أخي رشاد كيلاني لماذا لا يطبع هذا الكتاب وينشره في الناس.

ومن الحق أن نقول إن مكتبة الكيلاني الخاصة كانت حافلة، وكان فيها أدب عربي وفرنسي وإسباني ويوناني، وإن الرجل كان منهوماً لقراءة أساطير الأمم وقصص آدابها وكان إلى ذلك عريقاً في العربية، وثيقاً بها، غيوراً عليها، لما رأى البيوت في الثلاثينات قد هجرتها إلى الفرنسية تحت ضغط

«التفرنج» الوافد بدأ معركته الصامتة في حرب العامية ولغة البيت الفرنسية بكتابة (القصة للطفل) وجعل من ابنه مصطفى حقل تجاربه فمضى معه في سنه ودراسته عاماً بعد عام، يكتب القصة للطفل مرحلة بعد مرحلة.

وكان يحمل هذه القصص الملونة المطبوعة على الورق (الكوشية) اللامع، فيذهب إلى بيت هذا الباشا أو ذاك، ويقدمها له، ويقول هذه هدية إلى ابنك فلان، فيفرح بها أطفال البيت ويقرأون لغتهم ويستقيم نطقهم تحت مغريات قصص الجن والعفاريت والسندباد، ولم تكن أمانته للغة وحده هي المقصد، ولكن كانت هناك أمانة للعقل العربي فهو يروي الأسطورة أ *القصة ليخرج الطفل منها مؤمناً بالواقع ساخراً من الخرافة، وإن انطبع* قصصه كلها - التي نشرها في حياته بطابع المترجم من الآداب الأوروبية ولك هكذا كان يفهم واجبه، وبعد موته ظهرت قصصه الإسلامية وما تزال قصص تترى فقد كتب رحمه الله ألف قصة ولم يطبع منها في خلال حياته أكثر خمسين ومائة من القصص. والباقي في الطريق.

ولقد كنت أزوره فجأة فأجده خارجاً إلي وفي يده مجلد ضخم دق الحروف الإفرنجية، وهو ينوء بحمله، ومعه نظارتيه الكبرى والصغر فأعجب لهذا الصمود العجيب، وأقول له: أما تستريح، فيقول: هذه ملها وراحتي وسعادتي كلها، العمل!

ولقد فقد بصره فجأة، واحتمل الصدمة في عزيمة الأبرار، فلم يط عليها أحداً حتى أقرب الناس إليه، وكان يمشي في البيت يستعمل يديه، ح كشف الله عنه الغمة وعاد إليه بصره بعد عملية جراحية خفيفة، وقال: بقي من عمري سأهبه للعلم ولن أتوقف. وكانت له ذكريات عن الحي الأدبية في مصر تحتاج إلى من يتلقاها عنه، وكنت أحياناً أحدثه في الهات ساعة وبضع ساعة وأنا جالس إلى مكتبي ومعي أوراقي أكتب وكأنما يمل وأسأله عن هذا الأمر وذاك فأجد لديه حصيلة انتفعت بها في دراس وموسوعتي عن الأدب العربي المعاصر.

* * *

ولقد أبقاه الله حتى أراه ثمرة عمله، فأعطاه في أبنائه الخلق والنضارة وموفور الرزق، كان يتطلع إلى الجائزة واللقب تطلع شوقي إلى الباشوية، ولكن عطاء الله يأتي بصورة أو بأخرى، ولقد عاش حتى أوسع الله لأبنائه المهندس والمقاول والناشر، ورأينا مطابع الكيلاني الصغير تدور، والمباني تعلو، وربط الله على قلب الرجل بالنعمة الزاخرة.

ولكنه ظل حتى أنفاسه الأخيره يشكو دهره، ويتحدث عن غبن جيله، ولكن تقدير التاريخ لعمله الكبير كان كبيراً. وما يزال يذكره الأدب كرائد لأدب الطفل في العربية، وقد رأى تلاميذه من كل مكان في العالم العربي ممن نشأوا على قصصه، وقد كبروا وتولوا المناصب، وجاؤوا إلى مكتبته زائرين، وزاده ذلك قوة على العمل فكتب القصة بالفرنسية والإنجليزية لتصل إلى أقصى بلاد العربية والإسلام حيث كانت اللغتان تفرضان على أبناء العربية والإسلام في أفريقيا، ومات والدنيا تلهج باسمه وتذكر عمله وفضله.

وما تزال نوادي الأدب تذكر هذا الجيل من حفظة الشعر العربي والتراث العربي، هذا الجيل الذي كاد أن ينقرض ولم يبق منه إلا القليل، ولكنه كان جيلاً يتراسل بالشعر، ويتبادل المعارضات، ويعرف للعربية الفصحى فضلها وللجزيل من الموزون جماله، وكان لكامل كيلاني شعر قليل، وأبلغه قصيدة في رثاء نفسه.

لقد كانت جلسات كامل كيلاني معطرة بالشعر الرصين والفكاهة الحلوة والنادرة البارعة، كأنما هو ضمير الأدب العربي كله، في كل ما تحمل لفظة البيان، من دعابة أو سخرية أو تهكم أو إيماء، كان يعرف أسرار الشعر في هذا كله ويشير إليه كأنما عاش مع هؤلاء جميعاً وحضر مجالسهم ووقف في عكاظهم ومربدهم، لا تفوته بادرة ولا إشارة، ولا إيماءة، يعرف هذا كله في دقة وبساطة ويرويه في طلاقة تذهل وتروع وتأسر القلوب.

رحمه الله رحمة واسعة.

(٧)
حول التراجم

لقيت دراسات الأعلام عندي اهتماماً كبيراً فقد كان البحث عن شخصيات بارزة لها تأثيرها ومع ذلك فقد جهل الجيل ما قامت به فقد كان اسم شيخ العروبة مدوياً ولم يكن له من المؤلفات إلا رسالة صغيرة، وكان كل تراثه ما يزال مدفوناً في الصحف وخاصة في المؤيد والأهرام منذ ١٨٩٠ تقريباً إلى ١٩٣٢ حين وفاته وكانت مكتبته محبوسة في غرفة معلقة في دار الكتب بالقلعة وكان على الباحث أن يتصل بورثته وأهله للسؤال عن ما لديهم من رسائل وخطابات وكان ذلك أمراً شاقاً ومثيراً فقد ظن البعض أن المحاولة ترمي إلى بيع بعض هذه الآثار أو المتاجرة بها وبالرغم من كل المحاولات لم نحصل إلا على القليل وقد أشرت إلى هذه الواقعة في ختام الدراسة بعد أن انفقت من الجهد الكثير في الحصول على أهم عناصر فكره ومفاهيمه، وكذلك كان الأمر بالنسبة للشيخ عبدالعزيز جاويش فقد لقيني أحد المستشرقين في دار الكتب بالقلعة وأطلعني على ثبت بعض مقالاته في اللواء أو العلم - لا أدري - وكان يصورها وقد أشار إلى أن هذا الكاتب المجاهد لم يلق من العناية في بلاده ما يكافىء جهده وجهاده، ومن ثم فقد انطلقت أبحث الأمر، وأخذت في إعداد الدراسة، لولا أن وقفت أمامي مرحلة هجرته إلى أوروبا ولم يكن هناك مصدر مكتوب عنها غير أن توفيق الله تبارك وتعالى أعانني بأن عرفت أن له خالاً شيخاً كبيراً ما يزال حياً هو الدكتور الفولي الذي زودني بما احتجت إليه ووجهني إلى المصادر.

ولقد كان جاويش على رأس مدرسة مخالفة للمدرسة التي يكونها حزب الأمة (لطفي السيد) وكان في وجهته مع الحزب الوطني يقاوم النفوذ البريطاني

ويعارضه وهو الذي تعلم في أكسفورد فكان أشد عليهم من غيره من الوطنيين. وحين احتفلنا بعرض كتاب جاويش الذي نشرته في سلسلة أعلام العرب قام (أو قامت) من يقلل من شأن الرجل ويصفه بأنه لا يستحق أن يكتب عنه لأنه لم يكن من المدرسة الحديثة مع تجاهل صموده ومجافاته لأي من محاولات الإغراء والاحتواء وقد دفعني هذا إلى أن أقدم نجله. . . وكان حاضراً معنا في الندوة وقلت له قم حدث الناس عن ما لقي والدك ولقيتم في هجرتكم في ألمانيا فقال: كانت أمي ترسلنا إلى الحقول مع سلة من السلال لنجمع أي شيء أخضر لنأكله. وذلك لأن أبي رفض أن يقبل عودته إلى مصر وولاءه للنفوذ الأجنبي لنعيش في رخاء.

أما كتابي عن زكي مبارك فقد أعجب أهله من أهالي سنتريس ولكنه لم يعجب الدكتور محمد أحمد الغمراوي ـ الذي عاتبني عندما زرته ـ وقال كيف إني حجبت عن القراء هجوم زكي مبارك على الإسلام والقرآن وخاصة ما كتبه في (النثر الفني) وما كتبه في (التصوف الإسلامي) من إعجابه بفكر معارض لمفهوم التوحيد: كوحدة الوجود والحلول والاتحاد.

(٨)
الندوات والمؤتمرات العالمية

ندوات كثيرة أُتيحت لي فرصة الاشتراك فيها تعرفت فيها على أعلام كثيرين.. في القاهرة حضرت ندوات الباقوري وأحمد حسين وأحمد عبده الشرباصي وأحمد عطية الله.

وكنا نلتقي في خلالها بعشرات من رجال الفكر والدعوة والقانون وكان الكلام يتشقق عن موضوعات وأبحاث وقضايا لا حصر لها.

وكانت ندوة أحمد عطية الله (رحمه الله) تعقد في ظلال الأشجار العالية وبين النخيل والموز والورد، فالجو كله معطر بالأريج والعين لا تنتقل إلا من الخضرة المورقة إلى الزهر الفواح إلى أصوات العصافير، والمساء يقيل في هدوء ودعة.

وقد تحلق هؤلاء الأعلام وتجمعوا حول صاحب القاموس الإسلامي وصاحبه الدكتور إبراهيم اللبان وهناك ذكريات لندن حين كانا معاً إبان الدراسة.

والأستاذ عطية الله رجل سمح كريم يغمر زواره بفيض من التحايا لا يتوقف بين شاي يأتي في إناء زجاجي لامع، وبين مثلجات وبين مسليات وأحياناً تقدم الفطائر والحلوى.

وبين هذا وذاك يدور الحديث عن الأدب والتاريخ.

كانت هذه الندوات بالنسبة لي مجامع علمية تضاف إلى تجربتي الصحفية وتزداد بها الخبرة والفهم.

ثم جاء دور الملتقيات الإسلامية التي كنت أدعى إليها في العواصم العربية والإسلامية.

وكانت الجزائر هي الرائدة حيث دعاني الأستاذ مولود قاسم وزير الشئون الدينية للأتراك في الملتقى الإسلامي الذي كان يعقد كل عام في حاضرة من حواضر الجزائر واشترك فيه العشرات من أعلام تركيا والهند وباكستان والسودان وغيرها.

حضرت أولاً مؤتمر بجاية - ثم مؤتمر تمرنست، ثم مؤتمر الجزائر العاصمة، ثم مؤتمر تلمسان وحضرت بعد ذلك مؤتمر سطيف ١٩٧٣ - ١٩٧٥ - ١٩٧٩ - ١٩٨٢ -.

وفي مكة دعيت إلى الندوة العالمية ١٩٧٤ التي أقامتها رابطة العالم الإسلامي ثم دعتني جامعة الإمام محمد بن سعود إلى مؤتمر الفقه الإسلامي ١٩٧٦ - فمؤتمر الشيخ محمد بن عبدالوهاب ١٩٧٩.

ودعيت للمحاضرة في جامعة العين بالدوحة ١٩٧٩.

وحضرت مؤتمر السنة والسيرة العالمي في قطر.

أما في جاكارتا فقد حضرت مؤتمر الإعلام الإسلامي الأول. ثم زرت الخرطوم وعمان والأردن.

(٩)
حول الملتقى الإسلامي في الجزائر

ارتبط الحديث عن التصوف في الملتقى الإسلامي في الجزائر بأشياء كثيرة متضاربة أهمها ما أشار إليه جارودي من دعوة إلى الإعجاب بالتصوف وابن عربي بالذات مما أثار ثائرة الجزائريين الذين لهم موقف من المتصوفة الذين كانوا مؤيدين للنفوذ الاستعماري.

كذلك فإن طائفة من المسلمين الفرنسيين الذين حضروا المؤتمر كانوا يبدون امتعاضهم من الهجوم على التصوف الفلسفي وكان (رشيد بن عيسى) قد صحب مجموعة منهم من أسلم ومن لم يسلم وقد ألقى أحدهم محاضرة تحدث فيها عن مفهوم في التصوف الفلسفي وقال إن جمال المرأة والإعجاب بها موصل إلى الله (جل في علاه) هذه دعواه الباطلة وقد انفتح الحديث عن التصوف الفلسفي وخاصة ما يسمى التصوف الفارسي الذي أولاه المستشرقون اهتماماً كبيراً وحاولوا الاستفادة منه في الإساءة إلى الإسلام.

وكنت قد قرأت طويلاً في هذا وحاولت فهمه وقد تبين أن الحملة التي ديرت على فارس لإدخالها في التشيع على يد زعيمها عباس الصفوي عام ١٥٠٠ كانت تهدف ضرب الدولة العثمانية دولة الخلافة والسنة في ذلك الوقت.

ولدى بحث مطول في هذا لم تتأكد بعض معلوماته وقد أكد ذلك ما كتبه علي شريعتي بالتأكيد على هذا الدور.

ومنذ ذلك الوقت حملت إيران مفهوم الشيعة ولقد تبين أن بين التصوف

الفلسفي وبعض فرق الباطنية وبعض علاقات عميقة وأن هناك رسالة عن هذا الموضوع يجب دراستها.

وقد حاول البعض أن يتحدث عن دور خفي يقوم به البعض في وسط السنة اليوم في هذا المجال وأن هناك محاولة لجذب المسلمين في الغرب إلى التصوف عن طريق الرقص والغناء الذي تتميز به مفاهيم بعض الفرق والذي هو بالطبيعة خارج عن مفهوم التصوف الإسلامي، أسجل هذا حتى تنكشف الأمور.

جاء جاوردي إلى الجزائر لحضور الملتقى وقد سبقته أحاديث نشرت حول دعوته إلى إنشاء المركز الإسلامي في قرطبة وكنت قد تحدثت إلى الدكتور محمود أبو السعود الذي كان وزوجه شبه مرافقين له ولزوجه والذي اتضح أن بينهما صداقة ومعرفة وقد أيد محمود أبو السعود الدعوة وحاول الدفاع عنها وعندما قرأت كتابه ميثاق إشبيلة ووجدت من الفقرات ما لا يجوز أن تنسب إلى الرسول الله ﷺ أخذ أبو السعود يدافع عنه، وكان ذلك مقدمة لمحاضرته التي أثارت عليه مثقفي المؤتمر جميعاً وأحدثت ضجة لا حد لها وتصدى للرد عليه الكثيرون وفي مقدمتهم الشيخان الغزالي والقرضاوي واضطرت زوجته بعد ذلك أن تذهب إلى الغرف لتصلح ما أساء زوجها في محاولة لاسترداد مكانته التي هوت تماماً خاصة عندما رد على التساؤلات في مراوغة دون أن يستحضر شخصية المسلم الحقيقي عندما يعرف الحق فيرجع إليه.

وقد كان موضوع المركز في قرطبة الذي سمح له به القسيس وأعطاه تلك القلعة والذي ذهب هو إلى جمع الأموال عنه موضع تساؤل الكثيرين، وفي اعتقادي أنه خطوة تالية لخطوات الحوار التي بدأت منذ أكثر من عشر سنين، واشتركت فيها جهات كثيرة إسلامية، وها هي ذي تنتقل إلى حوار يهودي مسيحي عن طريق رجل منتسب إلى الإسلام وهو في نفس الوقت من الغرب وله صلاته مع المسيحية ومع الشيوعية جميعاً.

وقد حدثني أمس الدكتور حسين فوزي النجار الذي كان مرافقاً لجارودي خلال رحلته الأخيرة إلى القاهرة في اجتماعاته التي عقدها من أجل

الحصول على موافقة على مشروعه بإنشاء مركز إسلامي في قرطبة يضم علماء مسلمين وقسس وأحبار يهود وقال إنه من خلال حواره معه داخله الشك وخاصة عندما تحدث عن (المير بارجر) الذي أنشأ منذ عام ١٩٤٨ جمعية الصداقة مع الشرق الأوسط والذي يدعو إلى الحوار بين الأديان، ويرى وجماعته من اليهود أنهم ليسوا صهيونيون وإنما هم يهود لا علاقة لهم بالصهيونية.

وقد عرفت منه على حد تعبيره واعتقاده أن القوى الأجنبية استطاعت تجنيد (جارودي) الذي دخل الإسلام بشيء غير قليل من الطبول لخدمة هذا الهدف.

وكان الدكتور عبدالصبور شاهين قد أشار في مقدمته إلى قدم هذه الدعوة وإلى اضطرابها لأنها من الدعوات المشبوهة التي حملت لواء ما يسمى بالدين الإبراهيمي لإرضاء اليهود والنصارى.

وقد أشار الدكتور عبدالله عبدالشكور الذي يؤيد الدعوة عن الذين نشأوا في أحضان الفاتيكان وله صلة بهم منذ قديم، وقد كان عبدالله عبدالشكور يتحدث في اللجنة عن أخذ جارودي بالترفق بحكم أنه أصبح مسلماً له علينا هذا الحق.

(١٠)
هزيمة الاستشراق في مؤتمر الإسلام

في ملتقى الإسلام:

كان من أبرز منجزات الملتقى الثالث عشر للفكر الإسلامي ـ الذي عقد في (تامرنست) بالجزائر في المدة من ٢٩ أغسطس إلى ٩ سبتمبر ١٩٧٩ ـ هو كشف زيف مجموعة كبيرة من المستشرقين، وكتاب الغرب الذين شاركوا فيه، فقد عرضوا وجهات نظرهم في كثير من القضايا الإسلامية، من منطلق الفكر الاستشراقي المنحرف المضلل، فتصدى لهم كثير من علماء المسلمين أمثال: محمد المبارك ومعروف الدواليبي وفاضل الجمالي ومحمد سعيد البوطي وكاتب هذه السطور بالرد والمعارضة والتعليق والتعقيب.

ومن العجيب أنهم فروا كالطير الخائف المرتجف أمام كلمة الحق، وتراجعوا ولفوا في إجاباتهم، ولكنهم، أحسوا ـ وربما لأول مرة ـ بتلك المعارضة القوية التي أبداها كتاب الإسلام وعلماؤه وذلك الأسلوب العلمي الصحيح الذي قدموا به ردودهم، وكشفوا به زيف دعاوي الاستشراق.

حديث معاد وحجج باطلة:

ولم تكن كلمات هؤلاء الكتاب في الحقيقة إلا ترديداً لما قرأناه كثيراً، وما نشر من كتابات جولد زيهر ومرجليوث وشاخت وماسينيون وجب، وغيرهم من متعصبة الاستشراق، وجاء اليوم روجيه جارودي ومونتجمري وات وأتباعهم من أمثال جوردن نيف وإدوارد شوبرتر وغيرهم من تلامذة المبشرين ليرددوها، وقد تبين من حصيلة ما قدم المستشرقون ما يلي:

أولاً: أنهم لا يتابعون النهضة الإسلامية الحديثة، ولا يقرأون ما قدمه في السنوات الأخيرة كتاب مسلمون متفتحون يستمدون فكرهم من المصادر الأصيلة، ومن المنابع الأولى، وهم الذين عرفوا برجال حركة اليقظة الإسلامية

ثانياً: أنهم يتجاهلون هذا التيار الضخم من الأصالة والعودة إلى الإسلام والأبحاث العلمية الجادة، التي قننت الشريعة الإسلامية، أو قدمت إجابات عصرية واضحة لمفاهيم الإسلام.

ثالثاً: أنهم ما زالوا يلوكون تلك الشبهات القديمة ويرددونها، فهم مثلاً لم يتقبلوا بعد - وما زالوا يتجاهلون - تلك الوثائق الصحيحة التي كشفت عنها الدراسات، خاصة بشأن السلطان عبدالحميد والدولة العثمانية، وبروتوكولات صهيون ومخططات المؤامرة الثلاثية للنفوذ الأجنبي والشيوعية والصهيونية، وما يتصل بالماسونية، ودورها في الثورة الفرنسية وإسقاط الدولة العثمانية.

رابعاً: أنهم ما زالوا يرفعون من أقدار الشعوبية وأبحاث الباطنية والمجوسية، التي تلتحق بالتصوف الفلسفي وعلم الكلام، والمعتزلة والفلاسفة المشائين، المتابعين للفكر اليوناني أمثال الفارابي وابن سينا (وقد تبين أخيراً أنهما من الباطنية أتباع القرامطة وغيرهم).

خامساً: أنهم ما زالوا يحجبون تماماً ذلك العطاء الإسلامي السخي الذي قدمه ابن تيمية وابن حنبل وابن القيم والشافعي والماوردي وابن حزم، ويشيحون عنه في كراهية وحقد، ويقفون عند تلك الأبحاث التي تتصل بابن الراوندي والحلاج وابن عربي ومن تابع الفلسفة اليونانية، حتى إذا عرضوا للإمام الغزالي لم يقدموه إلا في صورة تابع للفلسفة اليونانية.

سادساً: لقد كشفوا عن أنهم لا يملكون شيئاً إيجابياً أو صالحاً - في هذه الفترة - يمكن أن يقدموه للمسلمين في مجال الحاجة إلى وجهة نظرهم، فما زالت أهواؤهم تسيطر على عطائهم فهم يقدمون السموم والأساطير والآراء الضالة أو على الأقل يقدمون تجربة مجتمعاتهم الفاسدة، وليست لهم قدرة

حقيقية على أن يستوعبوا أحوال مجتمعات المسلمين، ليقدموا لها شيئاً ينفع، كما أن عطاءهم قليل وغير مجد، وغير إيجابي ويمكن الاستغناء عنه.

ولذلك فإن استدعاءهم إلى الملتقيات الإسلامية، يجب أن يكون محوطاً بقدر كبير من الحذر، وخاصة إذا كانت هناك مجموعات من الشباب لم يستوعب بعد ثقافة إسلامية عميقة، تعصمهم من شبهات المستشرقين التي قدموها وأعلنوا صراحة أنهم يقدمونها للشباب.

سابعاً: أن محاولة مناقشة آراء المستشرقين بتقديمهم في هده الملتقيات قد كشف زيفهم، وبين أن المنهج (العلمي!) الذي يعتمدون عليه في البحث مضلل وقائم على الأهواء، وهم يستعملونه في المغالطة بتحريف النصوص أو تأويلها، أو المراوغة في شرحها، أو التضليل في التعليق عليها وإثارة الشبهات منها، وليست لديهم القدرة الحقيقية على الرجوع إلى الحق، إذا تبين لهم أو إذا علموه، وهم يصرون على باطلهم ويراوغون؛ إما بالتغاضي عن التعقيبات التي توجه إليهم وإما بالتمويه بالتعلق بأذيال خيوط باهتة لتبرير آرائهم.

دور الإسلام في القرن الخامس عشر:

كانت أبرز الموضوعات التي قدمت في الملتقى عن آفاق المستقبل، بمناسبة قرب قدوم القرن الخامس عشر، ودور الحضارة الإسلامية ومعطياتها، وقد تحدث كثير من الباحثين في هذه النقطة وفي هذه النقطة جاءت أغلب شبهات المستشرقين فقد عرض الدكتور أرجمند كورات لمفهوم العصرانية، كعامل من عوامل النهضة الإسلامية وقدم جملة أفكار مما كان يردده المستشرقون في الثلاثينات من هذا القرن، وقد كشفنا له أن هذه الأفكار لم تعد ذات موضوع، بعد أن ظهرت حقائق كثيرة، تكشف عن أن هذه الأفكار لم تعد تمثل منطق التاريخ الإسلامي الصحيح، وخاصة فيما يتعلق بالسلطان عبدالحميد، وجماعة الاتحاد والترقي، والدعوة التي حملها خيرالدين التونسي وغيره ضمن مفهوم العصرانية.

اتهام بريء:

أما بالنسبة للسلطان عبدالحميد، فقد كشفت الوثائق عن أنه لم يكن أوتوقراطياً ولم يكن ديكتاتوراً ظالماً يحارب دعاة الحرية، بل على العكس من ذلك كان من أكبر العاملين لجمع وحدة العالم الإسلامي. ولمقاومة ذلك التيار الخبيث الذي تخفى وراءه الاتحاديون، وتركيا الفتاة ومدحت وغيرهم، وهم الجماعة الذين عرفوا بولائهم للدونمة[1] من ناحية، ولانصهارهم في المحافل الماسونية التي أقامها اليهود من ناحية أخرى، والذين كانوا يعملون في خدمة مخطط الصهيونية الذي كان يستهدف الوصول إلى فلسطين: ذلك المخطط الذي جندوا له كل القوى لإغراء السلطان عبدالحميد، حين عرضوا عليه خمسين مليوناً من الجنيهات ـ على حد عبارة هرتزل في مذكراته ـ والذي رفض كل محاولات إغرائهم، فكان أن عمدوا إلى تهديده وإسقاطه على النحو الذي حدث سنة ١٩٠٩م بتلك المؤامرة الخبيثة التي حمل لواءها قرة صو اليهودي وغيره.

وهذه الحقائق التي ظهرت أخيراً، تكشف فساد الصورة التي حاول الغرب رسمها ـ كراهية منه في الدولة العثمانية ـ والتي لم تعد تصلح لأن تقدم للمسلمين والعرب اليوم مرة أخرى، بعد أن أصبحت خارج التاريخ الصحيح.

مؤامرة العصرانية:

ولقد حاول هذا الباحث أن يسمي هذه المؤامرة خطوة في طريق العصرانية ونسبها إلى الثورة الفرنسية، التي تعرف أن اليهودية العالمية هي التي قامت بها لإسقاط الوحدة المسيحية الأوربية، ولقد كانت هناك حقاً محاولة من مستنيري الشرق للخروج من مأزق التخلف، وذلك بإعادة النظر

---

(١) الدونمة: هم اليهود الذين خرجوا من الأندلس بعد سقوطها في يد الإسبان وهاجروا إلى تركيا العثمانية الإسلامية وأقاموا على حدود سالونيك وكانوا ٥٠ ألفاً وهم خميرة المخطط الصهيوني في إسقاط الدولة الإسلامية.

في الفكر الأوربي الحديث إذ ذاك، وكان خيرالدين ورفاعة الطهطاوي، يريان أن هذا الفكر الذي يحمل لواء الحرية والشورى، إنما هو في الأساس فكر إسلامي نقل من مصادرنا، ولكنهم لم يكونوا بعيدي النظر، في تقدير أن هذا الفكر قد انصهر في بوتقة الفكر اليوناني والروماني، وأنه لم يعد يصلح لنا، وقد تنبه إلى ذلك المسلمون بعد ذلك وعرفوا أن مفهوم العصرانية الأوربي هذا، ليس إلا محاولة من محاولات الاحتواء والتغريب والغزو الثقافي، وذلك بعد أن سقطت البلاد العربية أسيرة النفوذ الأجنبي. وفرض عليها التخلي عن تطبيق الشريعة الإسلامية،- التي استبدلت بالقانون الوضعي وإقامة نظام الربا الاقتصادي، كما حجبت التربية الإسلامية.

العصرانية تعني النكسة:

واليوم يرى المسلمون أن مفهوم (العصرانية) هذا لم يحقق لهم إلا الهزيمة والنكبة والنكسة، وأن كل ما حل بهم منذ عام **١٩٤٨** هو من نتائج احتوائهم داخل العصرانية، وأن هذه المحاولة قد استهدفت فصل عناصر المسلمين: عرباً وتركاً، وغيرهم وأوقعت الخلاف بينهم، وأسقطت خلافتهم ومهدت لوضعهم في قوالب الإقليمية والعلمانية والقومية الوافدة.

كذلك فإن المسلمين اليوم يعلمون أن اتخاذ أسلوب الغرب في التسلح، وتقليدهم في العسكرية الأوربية لم يكن ليحقق شيئاً دون أن يقيموا المنهج الإسلامي أولاً.

أما المرحلة الجديدة التي أشار إليها الباحث والتي بدأت عام **١٩٠٩** فهي مرحلة ضياع طرابلس الغرب ودخول اليهود إلى فلسطين، والصراع بين الترك والعرب، وقد خدع العرب بالاتحاديين أولاً، ولكنهم عرفوا حقيقتهم أخيراً.

هذا ما ووجه به دعاة العصرانية والمتهجمين على السلطان عبدالحميد والدولة العثمانية ووصف التيار القومي الوافد بأنه تيار النهضة.

المجتمع والحضارة:

كذلك ووجه الدكتور جوردن في بحثه عن «الاحتكاكات بين المجتمع والحضارة الغربية» وما أورده من مفاهيم منحرفة، بردود قوية دحضت أخطاءه، فقد ظل يتحدث عن معركة القديم والجديد والتقليد والمعاصرة في الفكر الإسلامي الحديث، وذلك في محاولة للقول بأنه توجد الآن ولا تزال: هوة واسعة وصراع شديد بين التقليد والمعاصرة، وهذه نغمة قديمة يرددها الباحثون الغربيون وعملاؤهم وقد لفتنا أنظارهم إلى أنها لم تعد موجودة اليوم، بعد أن ظهر التيار الجديد من الأصالة واليقظة الإسلامية، الذي أقام فعلاً قاعدة ضخمة على طول العالم الإسلامي وعرضه، يضيء الطريق أمام فهم واختيار التراث والوافد على السواء، ومحاكمته على مفهوم التوحيد الخالص، وأنه لم تعد هناك فجوة بعد أن كشفت حركة اليقظة الإسلامية، عن أن المنهج الإسلامي القرآني هو الأساس، وهو منهج لا يمكن أن يوصف بالجمود، لأنه يقوم على أصول عامة وأطر واسعة تستطيع أن تستوعب التقدم المادي دون أن تنصهر فيه.

ثوابت الإسلام:

فالإسلام يؤمن بإقامة إطار من الثوابت والضوابط التي لا تتغير ولا تتحول أمام تطور المجتمعات أو تغير الزمن، هذه الثوابت هي الأصل الأصيل، الذي تحاكم إليه معطيات الأمم والعصور والحضارات، فتقبل منها وترفض، وتسيغ ما تقبله وتصهره في بوتقة فكرها، حتى لا يكون المسلمون به نسخاً متشابهة من الأمم وقد كانت هذه القاعدة قائمة وموجودة، إبان نهضة الفكر الإسلامي في القرن الثالث فقد واجهت كل ما ترجم عن اليونان والفرس والهند من تراث، فعرضته على مقاييس التوحيد الخالص، وقبلت منه ما كان صالحاً ثم صهرته في بوتقتها، وواجهت في حزم وقوة كل سموم الفكر البشري والوثني والمجوسي واليوناني والغنوصي، الذي تسرب إلى علم الكلام والفلسفة والتصوف، ثم كشفت زيفه وأعادت بناء مفهوم فكر السنة الجامع القرآني المصدر.

كذلك نحن اليوم بعد أن اجتاحت الفكر الإسلامي، عواصف الفكر الغربي والماركسي والباطني والوجودي وغيره، فإننا نؤمن بوجود قاعدة أساسية هي «المنهج القرآني» الذي نحاكم إليه كل ما يقدم إلينا.

هذه القاعدة الحقيقية التي قامت بأيدي مجموعة عظيمة، من أعلام فكرنا الإسلامي المعاصر، أمثال إقبال وابن باديس والمودودي والندوي وحسن البنا ومالك بن نبي ومحمد المبارك وغيرهم، قد انتهت إلى غير رجعة تلك الصورة التي يحاول كتاب الغرب رسمها على أنها تمثل معسكرين متصارعين، والحقيقة أن المسلمين اليوم لم يعودوا يقبلون الخضوع لفكرة مسبقة تفرض عليهم الاختيار، بين الأصالة والمعاصرة أو بين التراث الإسلامي والفكر الوافد أو يوضعوا موضع الامتحان على هذا النحو.

منهج القرآن:

فالمسلمون لن يضحوا بأصالتهم مطلقاً، في سبيل العصرانية أو الحداثة، ويرون أن منهجهم القرآني الأصيل هو أسلوب العيش الوحيد، الذي يقبلونه، وإن كل العلوم والمعطيات الحديثة هي (مواد خام) يجب أن تنصهر في بوتقة فكرهم لبناء حضارة الإسلام المتجددة التي تقوم على التوحيد والعدل والرحمة والرخاء البشري، وأن فكرهم الإسلامي القرآني هو وحده الذي يستطيع أن يضعهم على طريق التقدم الحقيقي الجامع للمعنويات والماديات.

ولقد دعونا المستشرقين وكتاب الغرب أن يدرسوا بإنصاف ذلك التيار الجديد من الأصالة واليقظة الإسلامية، لقد كان المستشرقون في مطلع هذا القرن يتتلمذون على علماء المسلمين أمثال أحمد زكي باشا وأحمد تيمور ويسألونهم عن الحقائق. وإذا أخطأوا زجرهم هؤلاء الرجال ولكنهم لم يلبثوا أن كونوا أجيالاً تدين لهم وتخضع لفكرهم وتنشر أفكارهم أمثال طه حسين وزكي نجيب محمود ومحمود عزمي وأمين الخولي، واليوم نشهد المؤتمرات الإسلامية وقد كشفت زيف هؤلاء، فعادوا مرة أخرى ليستمعوا إلى كلمة

الحق، من ثنايا رجال مؤمنين بإسلامهم ولا يجدون أنفسهم إلا خاضعين أمام الحقيقة وهذه علامة جديدة في مجال الفكر الإسلامي المعاصر.

السموم في حقل التربية:

.. كذلك تناول المؤتمر بالبحث موضوع التربية الإسلامية، وقدمت أبحاث جديدة، ولكن المستشرقين قدموا سمومهم أيضاً وحاولوا تدمير مفاهيم التربية الإسلامية الأصيلة، بأن قدم أحدهم بعض الأساطير القديمة، وتحدثت واحدة عن المراهقة، وتحدث أحدهم عن عصر ما بعد الأسرة، وقد كشفتُ زيفه معلقاً أن الكاتب قد أعطى صورة عن المجتمع الغربي وعن ما وصل إليه من فساد وتحلل وهزيمة. وليس هو ما طلب منه ليقدمه لنا ولكن المطلوب منا أن نعي هذه التجربة الغربية حتى لا نقع فيها، ولنعرف أن منطلق الحضارة الغربية في مسائل المرأة والأسرة والمجتمع التي قد تبرق بريق الإعجاب أمام بعض شبابنا وشاباتنا، ليس إلا اتجاهاً مسموماً للانحدار والتمزق ولن يصل مجتمعنا بفضل الله إلى هذه الصورة المظلمة، ذلك أن لنا من مفاهيمنا وقيمنا ما يحول بيننا وبين السقوط في هذه الهوة.

إن هناك خلافاً عميقاً بين نظرتنا إلى الأشياء والحلول التي نراها لها وبين هذا المجتمع.

إن هؤلاء ينطلقون من تفسيرات الفكر المادي ومفاهيم العلوم الاجتماعية، التي صنعها اليوم لتدمير البشرية، إنهم يرون الاختلاط في الرحلات هو أحد حلول المراهقة، ونحن لا نرى هذا الرأي ولكن نرى الاتجاه الديني المستنير وعدم الاختلاط هو الحل. كذلك هم يواجهون الغرائز عن طريق الإثارة، ولكننا نرى طريق إعلاء الرغبات والتسامي والاعتصام بالصوم وتقوى الله، ونحن نؤمن بالقدوة الطيبة في البيت والمدرسة والشارع، وهي ما تزال منطلق التربية الإسلامية.

عودة إلى البيت:

وبالنسبة للمرأة فقد وجهت أسئلة كثيرة بشأن ما عرضناه عن أن القرن

الخامس عشر، سيشهد للمرأة العاملة بالرجوع إلى البيت فقلتُ في الإجابة:

سوف ترى المرأة المسلمة خلال القرن الخامس عشر، راغبة بغير قسر ولا إلزام، إلى التماس مفهوم الأصالة في رسالتها الحقة، وأنها سوف تختار الأفضل، وترى الأهمية الخطيرة في حماية الطفولة والأسرة، وتفضله على العمل الخارجي. الذي لم يكن في عصور الإسلام الأولى. على هذه الصورة المحدثة الوافدة التي تفقد الأجيال الجديدة الحنان والأمومة، والعطاء الذي يشكل وجدان الأبناء، هذا مع أن الإسلام لا يمنع عمل المرأة في أوضاع صالحة لبنيتها، وقريبة من وظيفتها الاجتماعية، ولكنه يجعل لمسئولية الأسرة والطفولة أسبقية خطيرة هذا ولم يمنع الإسلام، يوماً من أن تحضر المرأة ندوات العلم أو تشارك فيها، ولا علاقة بين هذا وبين عمل المرأة أساساً.

حديث العلمانية:

وتطرق حديث المستشرقين إلى العلمانية والدعوة إلى تطبيقها في البلاد الإسلامية فقال الدكتور الدواليبي:

«إن العلمانية عندما نشأت فقد دعت إليها الحركة اليهودية، متأثرة بسلطان الفاتيكان، وكان الحكم الدنيوي يخضع لسلطتين: الإلهية والدنيوية والسلطة الدنيوية لم تكن تمارس عملها ما لم تجيزها الإلهية، فالخطأ كبير عندما يشبه الحكم الإسلامي بأنه حكم أوتوقراطي، وينبغي أن يحل محله العلماني.

والحكم العلماني الذي دعت إليه اليهودية في أوربا هو إزالة السلطة الملكية، والحكم في الإسلام حكم شوري، فالحاكم ينبغي أن يكون منتخباً وليس باسم الله كما كان في حكومات البابوية، والدولة تقوم على الشريعة الإسلامية التي هي عبارة عن أحكام وقوانين مدنية تستمد أحكامها للمسلمين من القرآن والسنة، ومن هنا فلا حاجة للمسلمين بالحكم العلماني لأن الإسلام لا يعرف السلطة الكهنوتية».

جوانب إيجابية:

وكانت في الملتقى الإسلامي جوانب إيجابية كثيرة، منها محاضرة الدكتور

بوكاي عن العلم في القرآن، ومحاضرة الدكتورة المسلمة فيتراي ماير دفيش، عن التربية والتعليم في الثقافة الإسلامية أما أشهر المحاضرين في الملتقى فكانوا: الدكتور محمد المبارك، محمد عبدالله عنان، محمد عبدالهادي أبو ريدة، محمد فاضل الجمالي.

كذلك فقد اشتركت في المؤتمر نماذج عربية وإسلامية كثيرة من كل بلاد العرب ومن الصين وإيران وتركيا ومسلمي آسيا الوسطى والملايو ومسلمي يوغسلافيا وأندونيسيا وباكستان.

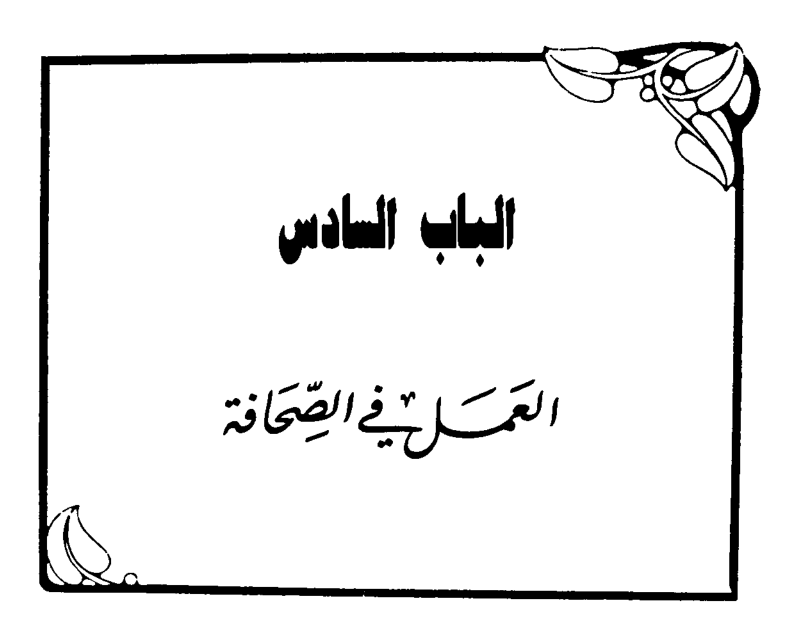
وأثارت محاضرة الدكتور عبدالكريم خليفة رئيس مجمع اللغة العربية الأردني تعليقات هامة وكانت عن اللغة العربية وتعريب التعليم الجامعي.

وكانت هناك لقاءات كثيرة في التلفزيون والصحافة مع أعضاء المؤتمر وكانت أسئلة الطلبة والطالبات في غاية الذكاء والتفتح.

ودرس المجتمعون مجتمع (تامرنست) الواقع في جنوب الجزائر والمجاور لمالي والنيجر وشاهدوا خلال رحلات طويلة تلك الآثار العريقة للمنطقة، والجبال الشاهقة واستضافهم سكان جبال الهَجَار من الملثمين والطوارق الأشداء الأبطال الذين قاوموا الاستعمار الفرنسي.

وكانت النقطة الأولى من أبحاث المؤتمر عن دراسة هذه المنطقة والشخصيات البارزة في تاريخها، ودراسة انتشار الحضارة الإسلامية من الصحراء الكبرى وأفريقيا السوداء إلى أوربا، ودراسة تاريخ الراهب شارل دوفوكو الذي قتله الملثمون.

وبالجملة فإن الملتقى الثالث عشر للفكر الإسلامي كان خصباً وعامراً بالأبحاث خلال عشرة أيام كاملة تجمع به خلالها أكثر من مائة عالم وباحث من مختلف أنحاء أوربا وآسيا وأفريقيا وكان غاية في التوفيق وقد حقق أهدافه تماماً.


الباب السادس
العَمَل في الصِّحَافة





الفصل الأول

العمل في الصحافة



كان العمل في الصحافة حلماً يملأ علي حياتي ويشغلني عن كل شيء، ولقد حاولت ذلك بكل الوسائل راغباً في كسر الطوق الذي كان يحبسني في الريف وفي العمل في بنك مصر ولكني حين وصلت إلى القاهرة وإلى العمل في الصحافة كان كل شيء قد تغير تماماً، فغدوت إنساناً آخر وغيرت مثلي الأعلى متخلياً عن الصورة التي كانت تعيش في أعماقي وأتمثلها في نماذج الذين كنت أقرأ لهم من أمثال الصاوي وعبدالقادر حمزة والعقاد وهيكل فقد تحولت نفسيتي إلى منهج جديد من خلال الدعوة الإسلامية فلما دعاني الإمام الشهيد للعمل في أول صحيفة يومية إسلامية تصدر في القاهرة عام ١٩٤٦ لبيت الدعوة شاكراً لله تبارك وتعالى هذا المنطلق.

ومن يومها وضعت قلمي في خدمة هدف (الدعوة إلى الله) ولم أتراجع وحين فرضت علينا الظروف القاسية أخذت بالتقية حتى مرت الأزمة وانقضت.

الحق أني كنت متطلعاً إلى العمل في الصحافة، غير أنني ما كدت أبدأ العمل فيها حتى أحسست أنني غريب في دارها ـ وذلك بعد أن توقفت الصحيفة الإسلامية واضطررت إلى العمل في الصحافة الحزبية.

ووجدت زملائنا يندمجون في الأوساط الفنية والصالونات الاجتماعية يسهرون مع الساهرين حتى يحصلون على الخبطة الصحفية أو الخبر المثير.

وتبنيت أنني إنما أبحث عن شيء غير هذا، كان في أعماقي إيمان بأن أعمل شيئاً يحقق خيراً لهذه الأمة في هذا المجال.

ومن هنا بدأت حملة على الأحزاب السياسية كاشفاً عن أخطائها وعيوبها وانشغالها عن القضية الكبرى: قضية الجلاء والحرية.

وفي هذا الخضم ومن خلال ظروف ١٩٤٦، ١٩٤٧ وتطلعات الشباب إلى الحرية بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية نشرت كتابي (اخرجوا من بلادنا) فأثار علي ثائرات لا حد لها انتهت باعتقالي.

وكان هذا قد اتصل بالحديث عن أسرة محمد علي وموقف عمر مكرم من عزل الحاكم خورشيد وتولية محمد علي والهجوم على الاستعمار والاحتلال البريطاني وأعوانه وصراع الأحزاب الحاكمة.

تناولت ذلك في عدد من المؤلفات والمقالات تحت عنوان (يجب أن تعلم) كانت لها ضجة في الأوساط السياسية.

* * *

صدر كتاب (أخرجوا من بلادنا) عام ١٩٤٧ في إبان حكم إسماعيل صدقي فأحدث ضجة كبرى فقد كان الشيخ وافي الرسام الازهري قد صنع له هذا الغلاف المثير الذي هز القوات الإنجليزية هزاً شديداً في صورة مصري (يلبس لباس الجوالة) يلقي بجحافلهم في البحر مما دفع قواتهم في جنون إلى مصادرته من باعة الصحف.

وسرعان ما طلعت الأهرام في اليوم التالي تقول إنه قد ألقي القبض على مؤلف (أخرجوا من بلادنا) وسيحاكم بتهمة قلب نظام الحكم.

ولكنه لم يقبض عليه ثمة، وإنما مرت فترة تزيد على الشهر وتذكرت يوم سعيت إلى مكتب الأستاذ فتحي رضوان الذي تلقاني هاشاً باشاً وقال:

كل ما في كتابك حق وصدق وأنا جاهز للدفاع عنك في الوقت الذي يطلبونك فيه، ولما وقفت أمام المحقق حدث أمر غريب فقد سألني وكيل النيابة بعد أن قلب صفحات من الكتاب (خطوط تحتها خط أحمر):

تقول في كتابك: وإن الأسلوب الحق في مقاومة الإنجليز ليس هو المظاهرات والهتافات ولكنه العمل المنظم فماذا تقصد بذلك؟ وتوقفت هنيهة

أستجمع معلوماتي فإذا به يقول: تسمح لي أن أجيب عنك! وفتح صفحات أخرى من الكتاب تحتها خطوط زرقاء وقال: أقصد ما قلت في صفحة كذا...

إن العمل المنظم هو بناء المدارس وإنشاء المصانع وكذا وفي سؤالين آخرين تقدم وكيل النيابة (أحمد مختار قطب رحمه الله) فأجاب بالنيابة عني وصرفني ولكن الذين قدموني للمحاكمة لم يكفهم هذا بل أسروها في أنفسهم حتى جاءت موجة الاعتقالات فكنت في مقدمتها.

ولم أتوقف عن كتاب (أخرجوا من بلادنا) بل تابعت ذلك بأربعة أجزاء كشفت فيها أسرار الأحزاب السياسية وأخطاءها وكنت خلال ذلك أذهب يومياً إلى دار الكتب لأجمع من الصحف هذه النصوص. حتى قالت أخبار اليوم في تعليق:

(إن الحزبية السياسية تهاجم لأول مرة بالوثائق المدعمة بالأرقام والنصوص).

وكنت قد اتصلت بالأستاذ عبدالرحمن الرافعي وأهديت إليه هذه المؤلفات الذي قال لي: في كتابة التاريخ يجب أن يكون المؤرخ مجرداً من الإثارة وأن يتقبل النصوص ويقدمها ويعلق عليها أما هذا في رأيه فإنه يتخذ من التاريخ عجينة طيعة يستثير بها العواطف ويهز بها مشاعر الشباب وهذا ليس في نظره وظيفة المؤرخ بل هي وظيفة الكاتب الوطني.

* * *

عملت في الصحافة الإسلامية أولاً فلما توقفت كان عليّ أن أدخل أفق الصحافة العامة سنوات طوالاً قاسيت فيها من الصراع بين المجموعات، وكان أخطرها عندما استولى الماركسيون على الصحافة وأخذوا في إغراء الكتاب بالانضمام إليهم تلقاء أجور مرتفعة أو مكافآت عالية.

وكان موقفهم من أمثالنا سواء في مجال الترقي أو العطاء المادي مشروطاً

بما يمكن أن يؤدي إلى وجهتهم من تأييد أو قبول أما الذين اعتزلوا هذا الميدان فقد ظلوا يعانون من وحدة قاسية ولقد كتبت في عديد من المجلات الإسلامية في البلاد العربية، أما في مصر فقد واليت الكتابة في (منبر الإسلام) عشر سنوات، كما كتبت في (رابطة العالم الإسلامي) في مكة (وحضارة الإسلام) في دمشق و (دعوة الحق) في الرباط و (الفكر الإسلامي) في بيروت.

ثم في الوعي (باكستان) والوعي في الكويت.

ثم في (منار الإسلام) في أبو ظبي.

وقد أثرت في هذه المقالات كثيراً من المووضوعات المتصلة بالغزو الفكري والتغريب.

* * *

بدأت حياتي كاتباً، ووجدت أن مجال العمل يكون عن طريق الصحافة أو تأليف الكتب، بدأت أكتب الخاطرة والنقد والتعليق في مجال الصحافة مؤمناً بأن هذا هو طريق التعبير عن النفس، غير أن عوامل مختلفة أشعرتني بأن مهمة الكاتب هو أن يقدم شيئاً جديداً أو يستكمل شيئاً بداه غيره، ومن هنا ظننت أنني أستطيع أن أستكمل كتابة تاريخ الأدب العربي منذ توقف جرجي زيدان عام ١٩١٤.

غير أن نظرتي تختلف، فقد كان منطلق جرجي زيدان هو منطلق المستشرقين وهو الذي صاغ عبارة (عصر الانحلال) على فترة من أنضج وأثرى فترات حياتنا الفكرية حين تداعى المفكرون على جمع وتصنيف التراث الوطني الإسلامي كله في ظل حدوث سقوط بغداد وحروب الصليبيين والتتار.

ومن هنا كان لا بد من عمل مستقل له وجهته الواضحة وهكذا وسعت ثقافة عملي فلم يعد صحفياً وإنما أصبح عملاً فكرياً منطلقاً في الصحافة ينطلق من خلال عقيدة ذات رسالة في أعماق النفس وأصالة هذه الأمة وكشف عظمة تراثها وعطائها.

ثم تبينت أن مهمتي يجب أن يتسع عطاؤها فلا أقف عند حدود

(الصحافة) أو (الأدب) وإنما تتسع آفاقها إلى مجال الفكر الإسلامي كله.

ورأيت أن النظرة الإسلامية يجب أن تنطلق من المنظومة الإسلامية ثم يكون الأدب جزءاً منها لا ينفصل.

بعيداً عن بدعة التخصص التي تفرضها الدراسات العصرية.

وبعيداً عن نظرية الغرب التي تفصل الأدب عن الأخلاق وعن الاجتماع على نحو ما يقال من أنه لا بأس أن يعجب بالنص الأدبي فينا دون أن نبالي انحراف مضمونه أو أثره على النحو الذي دعا إليه عميد الأدب العربي:

(كسبت الأدب وخسرت الأخلاق).

ومن هنا وجدت أن مهمتي ورسالتي تنظر إلى الأمة الإسلامية والوطن العربي جزء منها في أوسع نطاق الفكر والثقافة.

ولقد فتحت لي دراسة الفكر الإسلامي قضايا عديدة أهمها معركة التغريب والتبعية الثقافية.

تطور الأسلوب:

تطور أسلوبي الكتابي ومعالجتي للأمور بين ثلاث مراحل:

أولاً: مرحلة العاطفة والوجدان وهي المرحلة التي كانت كتاباتي تنطلق من القلب إيماناً قوياً وأسلوباً وجدانياً، هذه المرحلة انتهت مع المرحلة الأولى للدعوة.

ثانياً: مرحلة النظر التاريخية: وأسميها هكذا لأنني كنت خلالها أبحث عن القضايا بحثاً تاريخياً، ولعل العمل في الصحافة كان عاملاً هاماً في استمرار هذا الأسلوب؛ هذه النظرة كانت انتقالاً من الوجدانية إلى العقلانية ولكنها كانت محصورة في النظرة القاصرة.

ثالثاً: مرحلة النظرة الجامعة حيث تدرجت إلى النظرة الإسلامية الجامعة بين العقل والوجدان واستخلاص العبرة والكتابة المضبوطة المحكمة ولا أنسى في هذا فضل المرحوم فؤاد أمين الذي وجهني إلى هذا الاتجاه.





الفصل الثاني

لي في مجال الصحافة ثلاثة كتب هذا أحدها:

تطور الصحافة العربية

الكتاب في ٤٠٠ صفحة يتناول بالبحث تطور الصحافة العربية خلال الفترة بين ١٨٧١ وهو ما اصطلح عليه بمطلع النهضة الفكرية العربية الإسلامية في مصر والعالم العربي حتى ١٩٣٩ تقريباً أوائل الحرب العالمية الثانية.

ويحاول هذا الكتاب من خلال مكانه في موسوعة معالم الأدب العربي المعاصر أن يرسم إطاراً لملامح العصر وصورة المجتمع في هذه الفترة متناولاً العديد من الموضوعات والقضايا والمعارك وخاصة فيما يتعلق بالصحافة الاجتماعية من خلال دوائر متعددة كالندوات والمجتمعات والمؤسسات ومن خلال قضايا تحرير المرأة ومحاكمات الصحف وتطور الأزهر والرحلات ومن خلال المحاكم والأعياد والمسرح والأغاني والأناشيد وسهرات رمضان والمولد النبوي والفكاهة وغيرها.

وقد ضم الكتاب عشرة أبواب تناولت تطور صحافة الرأي منذ أوائل هذه الفترة إلى أوائل الحرب العالمية الأولى. وعرضت معارك ومساجلات الصحف في هذه الفترة وصورة لدخائل الصحافة وتياراتها ومحاكماتها ولتيارات المجتمع كما تضمنت باباً لطرائف الصحافة يضم المواقف الحرجة والنقد الاجتماعي والإمضاءات المستعارة.

ومن المرحلة الثانية فيما بين الحربين تناول الكتاب صوراً متعددة لأعلام الصحافة في هذه الفترة ورؤساء التحرر وذكرياتهم كما عرض لأثر الاحتلال في الأدب والصحافة وأخبار الأقاليم وأثر السوريين في الصحافة ومحاكات الصحف وصالون الأهرام كما تناول عرضاً عاماً لتطور الصحافة الأسبوعية وصحافة النقد السياسي والكاريكاتير والصحف الهزلية وصحافة الأدب والثقافة.

وشمل الكتاب دراسة سريعة للمحررين والصحافيين الذين كانوا يكتبون من خارج جهاز الصحيفة.

كما تضمن إطاراً لصورة العصر وملامح المجتمع فيما بين الحربين.

وقد شمل الكتاب نماذج متعددة وصوراً منوعة لكتابات عشرات من أعلام الصحافة والقلم الذين لا يعرف الناس منهم إلا العدد القليل جداً. أمثال صالح روتر والدكتور سيد كامل ومحمد الهيهاوي والتفتازاني وعزيز خانكي والدكتور محمد أبو طايلة وتوفيق حبيب وغاية القول في هذا الكتاب هو أنه محاولة لتقديم عمل جديد في هذا المجال من خلال الدوريات، باصطلاح أهل الحرفة أو الجرائد على اختلاف أنواعها واتجاهاتها، بصرف النظر عن الأبحاث المكتوبة والمؤلفة، إلى أن المحاولة كانت منصبة على تقديم إضافة جديدة إلى ما في أيدي الباحثين من المؤلفات المطبوعة، هكذا كان حرصي أن أقدم ما ليس في أيديهم، مما هو منثور في هذه الدوريات وجدير بأن ينسق ويعد ليكون صالحاً لاستخلاص نتائج جديدة وحقائق جديدة من خلاله تضاف إلى ما هو في الأيدي. وقد حرصت في هذا البحث ألا يتكرر ما ورد في الكتب والمؤلفات وأن يكون إضافة جديدة تحقق للباحث آفاقاً أرحب من خلال وثائق منطوية ونظرة محدثة.

* * *

وكتابان آخران:

الصحافة والأقلام المسومة. **تاريخ الصحافة السياسية.**



الفصل الثالث

في مجال الأدب

من خلال فترة الأسر كنت أفكر في الخطة التي تحقق بها هدفي بما يكشف عن عطاء الإسلام للشباب المسلم وقد تبلور فكري حول الإجابة على ثلاثة أسئلة عاشت في خاطري في مطالع الشباب.

أولاً: صورة أمجادنا الإسلامية والعربية.

ثانياً: تاريخ أدبنا العربي المعاصر.

ثالثاً: تراجم أعلامنا وأبطالنا.

ومن هذا المنطلق حاولت خلال السنوات التي تلت من عام **١٩٥٠** أن أعمل في هذا المجال وهي الخطة التي تبلورت عام **١٩٥٦** إلى موسوعة معالم الأدب العربي المعاصر، ودراسات الأعلام: أعلام الإسلام، الجباه العالية، أعلام وأصحاب أقلام، تراجم الأعلام المعاصرين، أعلام القرن الرابع عشر الهجري.

فضلاً عن دراسات كاملة عن:

أحمد زكي باشا شيخ العروبة، زكي مبارك، عبدالعزيز جاويش، فريد وجدي، حسن البنا.

* * *

كانت (موسوعة معالم الأدب العربي المعاصر) تهدف أساساً إلى القضاء على النظرة الإقليمية الضيقة التي كانت تسود دراسات الأدب العربي وكان يقال في هذه الفترة: الأدب المصري، الأدب السوري، الأدب التونسي إلخ.

وكان من الضروري أن يدرس الأدب العربي كعمل متكامل في المنطقة العربية كلها ويدرس على نحو موحد في ضوء وحدة الفكر والشعور والذوق.

وكشف دراستي في (أدب المقاومة) عن هذه الحقيقة في مواجهة النفس العربية للاستعمار والاحتلال ومعارك المقاومة والثورات المتعددة، خلال مرحلة امتدت أكثر من سبعين عاماً.

ولست أذكر مدى الجهد الذي بذلته والذي اضطرني إلى اتخاذ (نظارة طبية) وكيف أمضيت أكثر من ثلاثة أعوام مقيماً شبه إقامة دائمة في مكتبة القلعة في القاهرة بين الأضابير القديمة من الصحف والدوريات.

* * *

وقد أعطتني هذه الدراسة الواسعة التي عشت في دائرتها أكثر من عشر سنوات فكرة ونظرية:

أما الفكرة: فهي أن فكرنا العربي الإسلامي، هو فكر حي متحرك إيجابي مرن متطور، قادر على الحياة والاستمرار والنمو والتجاوب على المستويين: الزمني والبيئي، فهو يمتد زمناً دون أن يتحطم ويقاوم كل مؤامرات تمزيقه أو تدميره ويمتد بيئياً فيشمل العالم الإسلامي (بما فيه الوطن العربي).

ويقدم إلى أوربا المقومات التي قامت عليها النهضة والحضارة الحديثة.

أما النظرية: فهي أننا في حاجة إلى إيجاد أساس فكري نقيم عليه نهضة فكرنا الحديث، هذا الأساس نستمده من فكرنا الإسلامي ونمثل فيه القيم الأصيلة والمقومات الأساسية.

وقد تبين لي من خلال مراجعاتي للأدب والفكر والثقافة العربية المعاصرة منذ أوائل النهضة إلى الآن أن هناك نظرية ظهرت على أيدي المصلحين أمثال جمال الدين ومحمد عبده والكواكبي وخيرالدين التونسي هي أننا نستطيع أن نقيم بناء الأساس من أصولنا الإسلامية الأصيلة وعليها نبني النظرة إلى التراث وإلى الوافد جميعاً.

وأن هذه النظرة هي وحدها التي تستطيع أن تحمينا من غزو التغريب

وذلك بإرساء مقوماتنا وقيمنا كأساس للبناء، عندئذ نستطيع أن نواجه الفكر الغربي والماركسي على السواء دون أن يقتلعنا.

ولقد كان الفكر العربي الإسلامي دائماً مفتوحاً وقادراً على الأخذ والعطاء وله من مقوماته ما يمكنا من الحفاظ على قيمه الأساسية التي تقوم على جماع الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة.

* * *

ولقد كان من أهم ما أدت إليه هذه الدراسة هي رد دين للمغرب العربي إزاء أهل المشرق.

لقد قرأت عشرات المقالات التي ينعي فيها كتاب المغرب بأقطاره (الجزائر - تونس - المغرب) تقصير أهل المشرق في عرض تاريخ الأدب العربي الحديث فيه مقتصرين على مصر والشام والحجاز وقد ظهرت في مجال تاريخ الأدب العربي دراسات من تأليف طه حسين والزيات وأنيس المقدسي وغيرهم اقتصرت على المشرق وحده.

ومن هنا كان ذلك العتب: كانوا يقولون أن وجوهنا متجهة إلى مصر والشرق بينما كتاب مصر والشرق لا ينظرون إلينا.

والحق أنه في الفترة السابقة لعام ١٩٥٤ كانت هناك ضرورة تحول دون قيام عمل أدبي كامل يضم الأمة العربية كلها فقد كان الاحتلال الفرنسي ما يزال مسيطراً على المغرب وتونس والجزائر - غير أن تحرر المغرب وتونس ثم قيام ثورة الجزائر قد أعان فعلاً على الاتصال بإخواننا في الأقطار المغربية على النحو الذي مكن من إتمام دراسة شاملة تبلغ (٥٠٠ صفحة) تحت عنوان (الفكر والثقافة في شمال أفريقيا) ضمت دراسة بدأت باحتلال الجزائر ١٨٣٠ إلى العصر الحديث (وحتى الاستقلال) وقد أعانني على هذه الدراسة أصدقاء كرام من نوابغ المغرب في مقدمتهم علال الفاسي، وعبدالله كنون، وعبدالكريم غلاب، وعلي مصطفى المصراتي، ومحمد علي دبوز، وعبدالعزيز بنجق الله وتوفيق المدني وأبو القاسم كرو.

وقد أوضحت هذه الدراسة عمق الروابط الفكرية والروحية والأدبية بين المشرق والمغرب وتسلسل الحركة الإصلاحية والسلفية ممتدة من جمال الدين ومحمد عبده إلى أعلامها في المغرب.

(الشيخ كنون الكبير، والعربي، وشعيب الدكالي وغيرهم) إلى عبدالحميد بن باديس وعبدالعزيز الثعالبي وعلال الفاسي والشنقيطي وأشرت إلى سفارات المشرق إلى المغرب ممثلة في شكيب إرسلان وأحمد زكي شيخ العروبة وعشرات غير هؤلاء وأولئك كان لها أبعد الأثر في هذه الروابط بالرغم من الحدود والسدود التي وضعها الاستعمار الفرنسي ومن خلال حوالي ألف مرجع بدت الفروق الإقليمية بين المشرق والمغرب ضيقة وقليلة وأوجه الالتقاء واسعة عميقة: وحدة في المشاعر ووحدة في الفكر.

ولعلي أكون بذلك قد أديت بعض الدين لإخواننا هنالك الذين كتبوا عشرات الدراسات عن الأدب العربي في المشرق وعن أعلامه وتحدثوا عن الشام والعراق والحجاز والسودان بروح من الاعتزاز والتقدير.

* * *

هذا وقد أثيرت هذه القضية في السنوات الأخيرة بأسلوب مختلف ولا شك أن تناول القضية على هذا النحو تناول تبرز فيه الإقليمية وتسيطر فيه فكرة الشرق والغرب.

ولو أن فكرة العروبة أخرجت من القضية تماماً لبدا الأمر أكثر وضوحاً فإن النظرة الحقيقية تكمن في أن الأمة الإسلامية واحدة، وأن جناحاها يتضامان ولا يفترقان، أما مسألة العروبة فهذه ليست مقبولة في المغرب تماماً.

ونحن نعترف بالتقصير إزاء المغرب في عدم التنويه بكتابه وآثاره والدور الذي قام به على مدى العصور في حماية العربية ونشر الإسلام.

ولقد كانت شكوى إخواننا أهل المغرب قديمة وصادقة، ولهم الحق فيها ولكن عذرنا أن كانت هذه البلاد الشقيقة مغلقة أمام الجيران إلى أن تحقق استقلالها عام ١٩٥٦ تقريباً ولقد نشر في الستينات عن دور أقطار تونس

والجزائر والمغرب في بناء الأدب الوطني والقومي وأدب المقاومة تحت عنوان (الفكر والثقافة في شمال إفريقيا) كما ذكرت قام بطبعه المجلس الأعلى للفنون والآداب.

ومعنى هذا إننا في المشرق لم نواصل غمط حق إخواننا ولكنا تنبهنا لذلك وكان كتابنا بمثابة رد اعتبار لمعتبة إخواننا بالنسبة لتقصير جرجي زيدان والزيات وغيرهم ممن كتبوا عن الأدب العربي في البلاد العربية المشرقية وحدها ولم يكتبوا عن الدور الكبير الذي قام به أهل الجناح الأيسر في مواجهة النفوذ الأجنبي.

أما بالنسبة للمغاربة جميعاً فقد كان المشرق مفتوحاً لهم وقد وردوا الحجاز والأزهر ومصر وكان لهم دورهم الواضح ولكن القضية كانت في الناحية الأخرى وهي تقصيرنا عن التنويه بالآثار الأدبية والعالمية التي قدمها علماء تونس والجزائر ومراكش وقد تناولنا عدداً من هؤلاء الأعلام بالدراسة حين أتيحت لنا الفرصة واطلعنا على أعمالهم وفي مقدمتهم عبدالحميد باديس وعبدالعزيز الثعالبي ومالك بن نبي والدكالي وابن العربي وغيرهم.

(اقرأ كتابنا: أعلام وأصحاب أقلام) ولذلك فإني لست أدري كيف لم يقرأ الأستاذين محمد مزالي (تونس) وعبدالله مرتاض (الجزائر) هذا الذي كتبناه والذي من شأنه أن يخفف العتاب، بل إن الأستاذ البنا أصدر مجلته ١٩٤٧ على نفس عنوان مجلة الشيخ ابن باديس (الشهاب).

أما ما كتبه سلامة موسى عندما وصف الجزائر ١٩٣٠ بأنها توقفت عن النهوض فهو من فساد عقيدته في المسلمين ومن دعوته التغريبية، ولماذا يذكر سلامة موسى ولا يذكر طه حسين الذي هاجم المغاربة، في رسالته عن ابن خلدون التي أشرف عنها اليهودي روركايم عندما وصف أهل المغرب المجاهدين في سبيل الاستقلال بأنهم متمردون على الاستسلام للحضارة الغربية.

أما عتابه على أحمد أمين والزيات والموسوعة الميسرة فليعلم صاحب الكتاب أن هؤلاء جميعاً كانوا مغربيين فكراً ووجهة .كانوا يجاملون فرنسا بل

إن الأمر أكثر من ذلك غرابة فعندما بدأ كتاب المشرق يتذكرون المغرب بدأوا بكتاب الجزائر الذي يكتبون بالفرنسية أمثال كاتب يس وغيره لأنهم ماركسيون مثلهم ونسوا أولئك الأعلام الذين يكتبون باسم الإسلام والأمر كذلك من الناحية الأخرى فإننا عندما زرنا الجزائر **١٩٧٢** تقدمنا إلى إحدى صحفها بتحية تصور مشاعر المسلمين والعرب في المشرق أمام جهاد الجزائر الإسلامي في سبيل التحرر فما كان من المسئولين عن الصحيفة الكبرى إلا أن تجاهلوا هذه التحية تماماً لأن المشرفين على الصحيفة في ذلك الوقت كانوا ماركسيون لا يريدون أن يأتي ريح من جهة الإسلام.



الفصل الرابع

موسوعة معالم الأدب العربي المعاصر

أعتقد أن مصدر أهمية هذه الموسوعة بالدرجة الأولى في تقديري إنما يرجع إلى المنهج الذي رسمته لها أساساً، فقد كانت دراسات الأدب العربي المعاصر، قبل ذلك أقليمية (كالكتابة عن قطر من الأقطار) أو شرقية (كالاهتمام بدراسة العراق والشام ومصر فقط) دون التعرض للمغرب العربي بأقطاره الأربعة بحسبانه جزءاً أساسياً في العالم العربي، وإن النظرة إليه ضرورية لإصدار أحكام شاملة على تطور الأدبي العربي.

أما عملي في هذه الموسوعة فقد كان حريصاً كل الحرص على أن يمثل الأمة العربية كاملة بحسبانها وحدة فكرية أساساً تستمد مصادر ثقافتها من الفكر الإسلامي العربي الذي كان فكر المنطقة كلها والأمم والأجناس التي تعيش فيها، من المسلمين وغير المسلمين، فقد طبع الفكر الإسلامي هذه المنطقة بطابعه منذ أربعة عشر قرناً، ومن هنا فقد كانت الثقافة العربية (والأدب العربي جزء منها) قد انبثقت من هذا الفكر الذي صهر في أعماقه مختلف الثقافات والفلسفات السابقة عليها كاليونانية والفارسية والهندية، ومن هنا فقد استطاعت الثقافة العربية المنبثقة عن الفكر الإسلامي أن تحفظ مقوماته وفي مقدمتها الانفتاح على الثقافات، ومن هنا فقد كان لا بد من ظهور دراسة واسعة تجعل الأمر كله وحدة واحدة في هذه الدراسة بحسبان أن اللغة العربية مصدرها الأساسي.

هذه واحدة أما الميّزة الأخرى فهي سلامة الغرض وبعده عن الهوى وتحرره من التحيز وارتفاعه عن الغرض، فالأدباء يدرسون في إنصاف وحيدة

كاملة، ويعرض ما لهم وما عليهم ولا يترك منهم أحد كان له تأثير واضح مهما كان مكانه من الشهرة أو التبرير الذي فرضته بعض الظروف، أو ما يكون قد قضى عليه من دخول في دائرة المغمورين.

وميزة أخرى هي الحرص على إعلاء القضايا الكبرى عن النظرة الشخصية وعن محاولة إثارة الخلافات القديمة بين الأدباء مرة أخرى مع الحفاظ التام والأمانة العلمية على النصوص وبذلك تنزهت الموسوعة في مجال التراجم والأحداث والقضايا عن الأهواء والأغراض الخاصة وحاولت أن ترسم صورة شاملة، متكاملة، مع الاهتمام بإثبات المصادر والمراجع عوناً للباحث على أن يرجع للأصل متى أراد.

أعتقد أنني حاولت محاولتين أساسيتين من أجل أن يصل البحث إلى أقرب ما يكون من الكمال.

الأولى: أني ألممت بدراسات لأكثر من ٤٠٠ سخصية من أبرز المفكرين والباحثين في العالم العربي وقد وزعت كل كاتب منهم على فنونه المختلفة مثلاً المازني تناولته بالدراسة في النثر مستقلاً، وفي الشعر كذلك، وفي القصة، وفي النقد وهكذا بالنسبة لمختلف الكتاب والأدباء.

ثانياً: عنيت بأصحاب الأقلام ممن ليسوا أدباء أو صحفيين وأعددت لذلك دراسة كاملة تحت عنوان: **أعلام** وأصحاب أقلام أوردت فيها أمثال: عمر لطفي وطلعت حرب وأمين سامي وغيرهم.

أما مضمون البحث فقد قام على أساس قاعدة طبيعية هي أن الأدب العربي في العالم العربي متكامل يطبعه طابع الوحدة النفسية والذوقية والروحية التي تستمد مقوماتها الأساسية من جوهر الفكر العربي الإسلامي ومن هنا فهو ملتق متشابه في أصوله العليا على حد قول الشاعر:

«إذا أن بالعراق جريح أمسك الشرق جنبه في عمانه»

(١)

مسح الأدب العربي المعاصر

أعني بكلمة «مسح» إجراء عملية حصر كاملة أو قريبة من الكمال للأدب العربي المعاصر، وذلك هو العمل الذي أعتقد أننا في أشد الحاجة إليه. ولا شك أن أهميته تسبق أهمية «تقديم» هذا الأدب لأن التقويم لا يمكن أن يتم إلا بعد أن تستكمل العناصر والوثائق. ولما كان أدبنا العربي الحديث لم يكتب بصورة كاملة منذ توفي المرحوم جرجي زيدان عام ١٩١٤ فإن هذا العمل قد لفت نظري بصورة واضحة، وزاد في أهمية الموقف بالنسبة لي ظهور بعض الكتب التي تؤرخ هذا الأدب على الصعيد المحلي، وهي المؤلفات التي فرضتها ظروف التجزئة» للعالم العربي خلال فترة الاحتلال التي بدأت قبل نهاية الحرب العالمية الأولى.

ولقد كنت حفياً أن يكون لي شرف الريادة في هذا المجال فأكتب دراسة كاملة لهذا الأدب على النحو الشامل للأمة العربية كلها، وهو نفس الاتجاه الذي سلكه جرجي زيدان ـ وإن كان قد توقف عند الشرق العربي وحده ـ.

وذلك هو العمل الذي حاولت وأحاول القيام به ولكني ما كدت أسير في البحث حتى صادفتني عقبات: أهمها عدم وفرة المراجع عن بعض البلاد خاصة الجزائر. ورأيت أنه لا بد للباحث الذي يطمع في استكمال البحث من أن يطوف بالعالم العربي قطراً قطراً وأن يلتقي بالمفكرين ويبحث عن الآثار والمراجع ويطيل التطلع إلى مظاهر الحضارة والآثار وعندي أن البحث في الأدب العربي المعاصر وتاريخه قد اقتصر على الشرق العربي وظل المغرب

العربي بأقطاره الأربعة مجهولاً ومنعزلاً ولذلك كان لا بد من دراسة أعلام هذه المنطقة في الشعر والنثر وقد قسمت الدراسة إلى عشرة أقسام:

١ ــ أدب الحرية والمقاومة.

٢ ــ النثر.

٣ ــ الشعر.

٤ ــ القصة.

٥ ــ اللغة العربية.

٦ ــ أدب المرأة.

٧ ــ الصحافة.

٨ ــ الفكر العربي.

٩ ــ المعارك الأربعة.

١٠ ــ النقد والترجمة والثقافة.

وقد جعلت هذه الدراسة تمتد من فخر النهضة منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى أوائل الحرب العالمية الثانية وفي النثر استطعت أن أقدم أعلاماً من مختلف أنحاء العالم العربي وحظي أعلام المغرب العربي بنصيب واضح فقد تناولنا عبدالعزيز الثعالبي وعبدالحميد بن باديس وعبدالله جنون وعلال الفاسي ومحمد البشير الإبراهيمي.

غير أنني في الصحافة أعتقد أنه لم يتيسر لي أن أدرس صحافة العالم العربي دراسة كاملة فإن الصحف والمجلات الموجودة في دار الكتب المصرية لا تعطي الصورة الكاملة التي تمكن من كتابة بحث عن الصحافة العربية، وإن كان يعزينا عن ذلك أن الصحافة في العالم العربي كانت واقعة في هذه الفترة تحت ضغط عوامل متشابهة وإن الصحافة المصرية كانت موضع التفات العالم العربي كله.

ومما يتصل بمسح الأدب العربي ما ظهر من مسائل ثقافية متعددة ليس لها في الحقيقة مراجع في عالم التأليف وإن أغلبها موجود في بطون عشرات من الصحف والمجلات. ولقد اقتضاني ذلك البحث في صحف الأهرام والمقطم

والبلاغ وكوكب الشرق والجهاد أن أقلب عشرين عاماً بين ١٩٢٠ - ١٩٤٠ وهي فترة ما بين الحربين للبحث عن نقاط مختلفة يستلزم البحث عنها حتى لقد اضطررت أن أعمل فهرساً كاملاً للأهرام في هذه الفترة يبلغ ألف صفحة وهذه أمثلة الموضوعات التي كان لا بد من البحث عن تطوراتها في الصحف: دور الأزهر ودور الصحافة وتطور التعلم وترجمة معاني القرآن والخلاف بين المذاهب الإسلامية والجامعة المصرية واللغة العربية ومشاكل المجتمع وإلغاء البغاء والصحافة وتطورها والتبشير والتشريع الإسلامي وتمصير الفكر والديمقراطية والسامية والآرية والسلفية والشيوعية والشعوبية والصهيونية والفرعونية والفينيقية والفاشية والوهابية والبابية والبهائية والبربرية والتجنيس والخلافة والديمقراطية وغيرها من قضايا لا يمكن دراستها دراسة كاملة إلا بمراجعة الصحف والآراء المختلفة المتعارضة التي أدلى بها الباحثون.

وقد شارك في هذه الدراسات عشرات من الباحثين من مختلف أنحاء العالم العربي ومستشرقون وعلماء الغرب رأوا العالم العربي وبحثوا أموره.

ولذلك قلت إن عملية «مسح» الأدب العربي المعاصر عملية شاقة غاية المشقة، ومن مشقاتها أن هناك أعلام لهم جوانب متعددة وهم: يدرسون في النثر والقصة والشعر، أو يدرسون في اللغة العربية والنقد والصحافة.

وإن الدراسة على مستوى الشخصيات كما حدث في كتابنا النثر العربي المعاصر، لا تكفي لتغطية دراسة تيارات النثر، وإنما هي تقدم نماذج من الكتاب في ظل تطور الأسلوب والمضمون.

ولذلك فلا بد من دراسة أخرى لتيارات الأدب العربي ونزعاته وفنونه:

كيف نقوم بمسح الأدب العربي المعاصر:

وقد تفضل الدكتور زكي المحاسني في عرضه النقدي لكتابي (النثر العربي المعاصر في مائة عام) في عدد من مجلة الأديب إبريل ١٩٦٢ فأشار إلى عملية مسح الأدب العربي المعاصر التي نقوم بها في دراسة معالم الأدب العربي المعاصر، فكان لا بد أن نعرض لفكرة «المسح الأدبي» حتى يكون مفهومها

واضحاً في نظر المثقفين والباحثين. ذلك لأن صديقنا الكبير قد وصف هذا المسح الأدبي بأنه: (حساب المساحة في عرض الأشياء وطولها) وكان مما ذكره الدكتور الجليل قوله: وإذا جاز هذا في النثر لأن مداره الأكبر على العقل فإنه لا يجوز في الشعر. ومنبعه الروح والشعور.

(٢)

أنور الجندي
مؤرخ الأدب العربي المعاصر

مهما قيل في توجيه النظرية الإقليمية في الأدب والتنويه بالمذاهب المتفرعة عنها فإن الذي نراه هو أن الأدب العربي يتلاقى على صعيد الفكرة الجامعة والاتجاه الموحد. وإن أنصار الإقليمية ينهزمون كل يوم في ميدان الأدب وفي ميدان السياسة على السواء، لأن أمر العرب إلى وحدة وكلمتهم إلى جمع، وإن وجد المستعمرون وأذنابهم في تفرقتهم والتضريب بينهم.

ولقد كنا وما زلنا نعتقد أن الأدب العربي وحدة لا تتجزأ. وأن ما يجد فيه من مذاهب واتجاهات هي وليدة تفاعل أفكار الأدباء العرب والتيارات الفكرية الحديثة التي طرأت على الأدب العربي بواسطة الترجمة عن الآداب العالمية والاطلاع على الثقافات الأجنبية المختلفة، وليس شيء منها متولداً عن طبيعة الإقليم والسكان وخصائص الجنس والوراثة كما يحلو لبعضهم أن يعلل ذلك. ولا نستدل إلا بأن أي مذهب أو اتجاه ظهر في بلد من بلاد العرب، لا يلبث أن يتردد صداه في بقية هذه البلاد وينمو ويزدهر على يد أبناء العرب كافة، كما كان الأمر فيما مضى حين كانت طريقة المتنبي التي ظهرت في المشرق تجد من أبي القاسم بن هانىء راعياً لها في الأندلس حتى سمي بمتنبي المغرب، وكان البحتري يتمثل في ابن زيدون. والمعري وابن شهيد، هذا في رسالة التوابع والزوابع وذلك في رسالة الغفران، يكادان يردان من نبع واحد. ولما ظهر التوشيح في بلاد المغرب وراجت سوقه بين أدبائها لم يعتم أبناء المشرق أن اصطنعوه واستكثروا منه حتى ألفوا فيه كتباً مخصوصة.

كذلك كان الأمر في الوقت الحاضر، فما أن ظهر بعد الحرب العالمية

الأولى ما يسمى بالأدب المهجري من إنتاج الأدباء اللبنانيين والسوريين المستوطنين في الأمريكتين حتى انتشر في العالم العربي وقلده الأدباء هنا وهناك وفي فجر ظهوره وانتشار آثاره الأولى لجبران ونعيمة وأمين مشرق وغيرهم كان عندنا في طنجة محمد الحداد يكتب بذلك الأسلوب ويضرب على تلك النغمة حتى تحسبه أحد رواد ذلك المذهب والآن نرى انتشار ما يسمى بالشعر الحر في العالم العربي وتجاوب دعاته وتحمسهم لبدعتهم بحيث لا يخلو قطر من الأقطار العربية من حامل لراية هذا المذهب، فكيف يكون ذلك إلا إذا كان الأدب العربي مظهراً لوحدة العرب ومادة عضوية في تكوين هذه الوحدة.

إن الذين يفهمون هذه الحقيقة كثيرون، ولكن نشاط دعاة الإقليمية كان يطغى عليهم ثم وقع الجزر في مد هذه الطائفة فاختفت أو كادت تختفي أمام الشعور الفياض الذي يغمر الشعوب العربية بوحدة تراثهم نتيجة لوحدة جنسهم ولغتهم وآمالهم وآلامهم وأمامي الآن عمل من أضخم الأعمال التي تشهد لهذه الفكرة وتدعم هذا الاتجاه، وهو ثلاثة مجلدات ضخام من تأليف الأديب المصري المعروف الأستاذ أنور الجندي، كل مجلد منها يؤرخ الناحية من نواحي النشاط الأدبي الذي قام في بلاد العرب منذ فجر النهضة الحديثة إلى الآن فأولها يتناول موضوع (المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاصر). وثانيها: يهتم بدراسة (المعارك الأدبية) في الشعر والنثر والثقافة واللغة والقومية والحضارة في العالم العربي الحديث. وثالثها: يختص بمبحث (الأدب العربي الحديث) في معركة المقاومة والتجمع من المحيط إلى الخليج، وهذه العناوين ليست دعاية فارغة بل هي واقع وحقيقة يتلمسها القارىء في كل صفحة من صفحات هذه الكتب التي لا تقل في أصغرها عن خمسمائة صفحة.

ومن عرف نشاط الأستاذ أنور الجندي وما له من عشرات المؤلفات في مسائل الأدب والتاريخ والفكر بعامة، يدرك مبلغ الإحاطة التي لكتبه هذه بالشاذة والفاذة من المسائل التي تناولها فيها.

فالمجهود جبار لا يتأتى إلا لجماعة من المختصين المنقطعين لهذا النوع من التأليف لو كانوا هناك، ولكن واحداً من ذوي الهمم العالية والصبر المنقطع

النظير والفهم العميق للأوضاع الفكرية القائمة في مختلف بلاد العرب والتي تتداعى فيها الاتجاهات والأنظار، هو أنور الجندي استطاع أن يقوم بهذه المهمة الشاقة وأن يؤديها بمفرده على أتم وجه.

إنها في الحقيقة موسوعة أدبية تضاهي في قيمتها التاريخية بالنسبة للأدب العربي الحديث تاريخ الأدب العربي لبركلمان الشهير، على أنها حسب برنامج الأستاذ المؤلف ما يزال لها ذيول طويلة تخرج بها في عشرة مجلدات تتناول معركة التغريب في الفكر العربي والصحافة السياسية في الأدب العربي المعاصر، والشعر العربي المعاصر والقصة العربية المعاصرة، ومعالم الأدب العربي المعاصر بين الحديث ومعالمه بعد الحرب الثانية، وحقائق السياسة والفكر والاجتماع في الأمة العربية. وهو برنامج حافل نرجو للأستاذ أنور الجندي أن تتاح له وسائل تحقيقه مع متمنياتنا له بدوام الصحة والعافية وإنه لمحققه بحول الله.

١٩٥٤ ـ عبدالله كنون



الفصل الخامس

تراجم الأعلام والبطولات

كانت دراسة الأعلام أحب الدراسات إلى نفسي ولقد أمضيت أعواماً طوالاً عاكفاً في دار الكتب بالقلعة أبحث عنهم.

وكان يملأ نفسي بالسعادة خلال هذه الفترة أني عثرت على كنز ـ كما عبر عن ذلك الأستاذ يحيى حقي ـ جعلت أقلب فيه بكل شوق وفرح، ذلك هو كنز الدوريات العربية والإسلامية التي كانت تكشف لي في هذا الوقت عن وجه من وجوه التراث.

هو كتابات الأسماء اللامعة المهضومة الحق التي انطوت آثارها ولم يعرف عنها إلا القليل (راجع كتابنا: صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر) و: (آفاق جديدة في الأدب العربي المعاصر).

كان بحثي وراء هذه الآثار حين كشفت لشيخ العروبة (أحمد زكي باشا) مثلاً أكثر من ثلاثمائة مقال كتبها خلال سنوات تزيد على أربعين سنة.

وكذلك بالنسبة للشيخ شاويش، وتابعت ذلك ثم حاولت دراسة المجتمع المصري الإسلامي من خلال هذه الآثار (اقرأ: كتاب «الشرق في فجر اليقظة»).

كانت فكرتي هي بعث هذا التراث بإيمان صادق بأنه هناك بطولات أدبية وفكرية نعرف أسماؤها ولا نعرف تراثها.

أمضيت عشر سنوات في هذا الحقل تقريباً، أصعد في دار الكتب

بالقلعة (ومعنا دكتور محمد صبري والأستاذ أحمد حسين ومحمد سيد كيلاني كل يبحث عن طلبته) وأمضي هناك الساعات ومعي ثبت عريض بأسماء مقالات وصحف وكتاب (وكانت فترة ما بين الحربين (١٩١٤ - ١٩٣٩) تشغلني كثيراً لدراسة تياراتها اقرأ (الفكر العربي المعاصر في معركة التعريب والتبعية الثقافية) كنت أحس في أعماق نفسي أنني أعمل عملاً عربياً إسلامياً هو إحياء هذه البطولات ودراسة تلك الآثار.

وكنت معنياً في نفس الوقت بمعالم الأدب العربي المعاصر وتاريخ الأعلام في المنطقة العربية وأنا أحس بأنني أؤدي واجباً وطنياً عربياً إسلامياً ولكني لم ألبث أن أشعر أن الأمر المطلوب مني يختلف، وأن هناك مسئولية كبرى ملقاة على عاتقي، وإن هذا الكنز الذي كنت فرحاً به لا يساوي شيئاً إزائها.

تلك هي مسئوليتنا جميعاً إزاء الإسلام نفسه، وإزاء التغريب والغزو الثقافي الذي بدأ يشكل سحابات سوداء في أفق الفكر العربي - كما كنا نسميه - هنالك بدأت معركتنا مع الغزو الثقافي وكانت التحديات الصهيونية من ناحية والتحديات الماركسية من ناحية أخرى في أوئل العقد السادس قد تجمعت وأحسست أننا مطالبون بعمل أكبر: أكبر بكثير في دائرة الفكر الإسلامي وليس الأدب العربي أو أوفق الوطن العربي.

ومن خلال قضايا المجتمع والاقتصاد والسياسة والتربية وليس من خلال تراجم الأدباء والبحث عن تراثهم.

هنالك في عام ١٩٦٢ دعيت إلى هذا الأفق الإسلامي الواسع تحت اسم الفكر الإسلامي العربي عشر سنوات أخرى حتى إذا زالت الغمة التي كانت تواجه الفكر الإسلامي وسقطت قلاع الماركسية والشيوعية معاً في نكسة ١٩٦٧ وانكشاف الأفق أمام ذلك الإحساس الغامر بالعودة إلى الله بعد أن فشلت الديمقراطية الغربية والماركسية جميعاً في العطاء وسقطت القدس في أيدي الصهيونية، هنالك كانت المرحلة الثالثة وهي أعمق هذه المراحل: مرحلة الدراسات الإسلامية تحت اسم الدعوة إلى الله تبارك وتعالى وليس الفكر الإسلامي وحده.

وساعد الأفق العام ١٩٧٣ على هذا النصر الجزئي الذي تحقق باسم معركة رمضان.

* * *

خلال فترة حركة الجيش حتى ١٩٧٠ كان الحديث عن الإسلام يتم تحت اسم (الفكر العربي الإسلامي) حيث لم يكن ممكناً تناول المسائل إلا في هذا الإطار حيث كانت دعوة القومية العربية تصبغ كل شيء بلونها، فكنا نتحرك في هذا الإطار ولكنا نقدم مفهوم الإسلام وكنا كثيراً ما نقدم بطولات الإسلام ومفاخره تحت أسماء عربية ـ ولقد سألني في هذا شيخنا الأستاذ ابن باز عندما التقيت به أول مرة وشرحت له عذر الكاتب المسلم في محيط يغلب عليه سيطرة الفكر القومي والفكر الاشتراكي ماذا يفعل.. فأقرني على ذلك.

ولكن عندما أذن الله تبارك وتعالى عام ١٩٧٠ وزالت الغمة وانفتح الباب جاءت كتابات الإسلام صريحة واضحة لا لبس فيها.

* * *

أعتقد أننا كنا في هذ الفترة الدقيقة من حياة الأمة الإسلامية في حاجة إلى هذا العمل الذي سيضع تحت أيدينا وثائق تاريخية تكشف قدرة أمتنا على مدى الزمن من الحركة والتطور والأخذ والعطاء والتلقي من خلال قاعدة أساسية واضحة تتمثل فيها شخصيتنا الأصيلة ومقومات فكرنا العربي الإسلامي القادرة على العطاء والالتقاء بالحضارات والثقافات في مختلف الأزمان والأوطان.

ولا شك أن تقدير الشباب المسلم القارىء لهذا اللون من الدراسات يعطينا مزيداً من الثقة والإيمان بأن هذا الجيل قد بدأ يكتشف عن نفسه ويؤمن بعظمة أمته، هذه العظمة التي ليس لها إلا مصدر واحد هو الإسلام، وقد كنا إلى عهد قريب نتنكر لتاريخنا ولغتنا وقيمنا الفكرية والروحية ونندفع وراء بريق الثقافة الغربية فلا نأخذ منها مع الأسف إلا قشورها، ذلك أن الاستعمار كان يحرضنا على أن نتنكر لعظمة أمتنا ونتجاهل روح فكرنا الإسلامي التي تراكم عليها غبار كثيف حيث حاولت الشعوبية إثارة الشبهات حوله

والانتقاص من قدره في حملة معترضة كشف الستار عنها من بعد حين أطلق عليها أصحابها (تغريب الشرق) ونزعه من واقعه الفعلي والعمل على بلبلة فكره بتيارات ومذاهب عليها بريق خادع وقد جند الاستعمار لها أقلاماً وصحفاً، ومضى يسوقها حرباً عنيفة يحطم بها عوامل القوة في شخصيتنا الحية التي صنعت المجد في ميدان العلم، والبطولة في ميدان الحرب والعطاء في ميدان الفكر.

ولقد خدعنا ثمة وغشت عيوننا سحابة مظلمة فاندفعنا وراء دعوات الإقليمية الضيقة والفرعونية والفينيقية والأشورية والقومية الوافدة ومضى بنا هذا إلى واقعية ضيقة تقيم الحدود المصطنعة في وطن واحد يمتد من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي.

* * *

هؤلاء الأعلام: ما أجدرهم بالتقدير والتكريم فقد كانوا أحجار الأساس في هذا البناء الضخم، لقد ناضلوا في ظروف قاسية وكانت تحوطهم المؤامرة. والسجن والتعذيب والنفي من كل ناحية، وقلما سلم أحد منهم من مكاره الجهاد فهم شهداء أبرار تجمع بينهم وجوه شبه كثيرة أهمها التجرد والعمل الخالص دون ترقب أجر أو جزاء بل ربما كانوا يزدادون مع العنف والظلم قوة على المقاومة وقد تركوا جذوراً قوية في التربة ما تزال حية، وكان موتهم حياة لأمتنا.

وبطولاتهم هي التي دفعت أمتنا الإسلامية إلى طريق المجد، وكان القلم في يد بعضهم سلاحاً جباراً وكانت الكلمة مناراً متوهجاً، كانت كلمات جمال الدين ومحمد عبده ومن قبله عمر مكرم، ومن بعدهم عبدالعزيز جاويش والكواكبي ومصطفى كامل، وأمين الرافعي ومحمود أبو العيون كم أحيت القلوب الغافية وردت إلى النفوس الجزعة أمنة وطمأنينة وقد عاش هؤلاء وغيرهم في هجرة دائمة وتقلب في البلاد، لا يقرون ولا يهدأون، كانت النار تأكل قلوبهم من أجل الحرية والحق، وكان الاستعمار يطاردهم فلا يقر لهم قرار.

ولقد ارتبطت نفسياً بهذه الشخصيات، وهذه البطولات، واحببتها وأصبحت مني بمقام الآباء والأجداد، تعرفت إليها وصاحبتها على طريق طويل حتى ألفتها وألفتني، حتى لكأني عشت معهم معاركهم.

لقد ارتبطت بها لأنها جاهدت وضحت واستشهدت دون أن تنال ما هي جديرة به من مكانة بل لقد لقي بعضها اضطهاداً عاصفاً فحرم اسمه أن يذكر أو ذكر مشوباً بالاتهام.

ولقد جاء اليوم الذي تحررت فيه كتابة التاريخ.

ولقد كان مذهبي في كتابة هذه التراجم أن أعيش من البطل حياته وأتحدث معه وأبحث عن رأيه في كل ظرف وتصرفه إزاء كل حدث وأتصوره وهو يأكل ويشرب وينام ويمشي وحين يواجه الأحداث والمواقف مستخلصاً العبرة كاشفاً عن آثاره.

* * *

أعتقد أننا كنا في هذه الفترة الدقيقة (١٩٤٦ - ١٩٦٧) في أشد الحاجة إلى هذا العمل الذي يضع تحت أيدينا وثيقة تاريخية تكشف عن قدرة أمتنا على مدى الزمن على الحركة والتقدم والأخذ والعطاء من خلال قاعدة أساسية واضحة تتمثل فيها شخصيته الأصيلة ومقومات فكرنا الإسلامي.

- الجيل في أعلامه.
- أعلام وأصحاب أقلام.
- تراجم الأعلام المعاصرين.
- أعلام القرن الرابع عشر الميلادي.
- أعلام الإسلام (تراجم قصيرة).
- الجباه العالية.
- أعلام الحرية.

(هذا غير تراجم الأدباء التي ضمتها موسوعة معالم الأدب العربي المعاصر).

* * *

كتابات هيكل وطه حسين والعقاد عن السيرة:

لقد طالما هللنا لكتابات هيكل والعقاد عن السيرة إبان ظهورها فصولاً سواء في السياسة الأسبوعية أو في الرسالة.

فقد كان الطابع الإسلامي مفقود تماماً في كتابات ذلك العصر (عصر الأربعينات) غير أننا لم نلبث ـ بمراجعة مفهوم الإسلام الأصيل الذي علمتنا إياه الدعوة الإسلامية ـ أن وجدنا أن هذه الكتابات لم تكن ذات أصالة حقيقية، وأنها تأثرت بمذاهب المستشرقين ومناهج العلمانيين.

ثم ظهرت كتابات أكثر أصالة كشفت عن تبعية ما كتبه طه حسين وأبانت عن أخطاء هيكل والعقاد.

ومن هنا كان لا بد أن نكشف عن هذه الوجهة ونعريها تماماً والواقع أن تنامي التيار الإسلامي وبروز مفاهيمه في نقد الأدب وتاريخ الأدب وفي كتابة التاريخ وكتابة السيرة كل هذا أوضح ضرورة أساسية في كشف أمر جيل الرواد جميعاً: هؤلاء الذين تصدروا للكتابة والزعامة الأدبية خلال أجيال الثلاثينات والأربعينات ومن هنا كان كتابنا (جيل الرواد والقمم الشوامخ).

(١)

٥ آلاف بيت من الشعر لشوقي كانت مدفونة في الصحف القديمة

لم يبق من ذلك الجيل الذي استفتح النهضة بعد الحرب العالمية الأولى غير الدكتور محمد صبري السربوني، فقد ذهب زملاؤه من أهل جيله (طه حسين، العقاد، هيكل، الزيات، المازني، الزافعي) هؤلاء الذين ولدوا قبل مستهل القرن العشرين الميلادي بسنوات وكتبوا في السنوات السابقة للحرب العالمية الأولى فصولاً في مجلة البيان التي كان يصدرها البرقوقي أو مجلة السفور أو غيرها، ثم أتيح لأغلبهم السفر إلى أوروبا والعودة، وكانت نقطة تألقهم في إطار الأحزاب السياسية والصحف الحزبية بعد الحرب العالمية الأولى، كان الدكتور صبري واحداً من أولئك الذين درسوا في جامعات أوروبا وتميز على أترابه بأنه أحرز «دكتوراه دولة» من السربون وهو ما لم يحصل عليه غيره منصور فهمي أو طه حسين أو زكي مبارك أو غيره.

وقد قطع الدكتور محمد صبري المراحل الأولى من حياته الأدبية في كتابات متعددة، أغلبها دراسات التاريخ: تاريخ مصر في عهد إسماعيل، وأبحاث عن قناة السويس وفصول أدبية ودراسات أطلق عليها اسم الشوامخ تناول فيها بعض شعراء الجاهلية.. ولكن العمل الكبير الذي قام به والذي أحدث دوياً شديداً هو ذلك الذي قام به في سن السبعين وهو جمع ما لا يقل عن خمسة آلاف بيت من الشعر كانت مدفونة لشوقي في الصحف القديمة، لا ندري هل عزف شوقي عن جمعها في دواوينه وقد أصدر الشوقيات في حياته، أم أنه كان يتلبث لإصدارها من بعد. الحقيقة أن معظم هذا الشعر قد نشر في الصحف خلال أربع وأربعين عاماً (١٨٨٨ - ١٩٣٢)، وأغلبه غير ممهور

بتوقيعه الصريح وبعضه غير ممهور بتوقيع أصلاً، ولكن حاسة الدكتور صبري السربوني الفنية ومعاصرته لهذه الفترة أعانته على اكتشاف هذا الكنز وتقديمه في كتابه المعروف (الشوقيات المجهولة) وقد أثيرت قضايا أدبية: هل من حق الباحثين أن ينشروا شعراً لشاعر لم يمهره أو لم يرغب هو في نشره.

الحقيقة أن أحمد شوقي كان يمثل في هذه المرحلة دوراً مزدوجاً فقد كان شاعر الأمير ولذلك فإن شعره المعلن كان هو الذي يجري في هذا المجرى، ولكن شوقي كان وطنياً وكانت له مواقف من الاستعمار ومن النفوذ الأجنبي مما قد لا يرضى عنه الخديوي فكان ينشر هذا الشعر بدون توقيع أو بتوقيع رمزي.

وتلك قضية يجب أن تدرس، فقد صدرت الأجزاء الأربعة من ديوان شوقي بين عامي ١٩٢٦ و١٩٤٣ وتم طبع الجزئين الأخيرين بعد وفاته، ومر على ذلك ثمانية عشر عاماً حين فاجأ الدكتور صبري قراء الأدب العربي بهذا العمل الضخم الذي كرس له أكثر من خمس سنوات، وهو يواصل البحث في دور الكتب بالقاهرة ويصعد إلى دار الكتب في القلعة، وذلك عمل شاق حيث يمضي ساعات الصباح يقلب المجلدات القديمة صفحة صفحة، يواجه في كل ورقة الأتربة المتناثرة من الورق القديم.. والمشقة في هذا السن الذي يعبر به إلى الحلقة الثامنة من عمره المبارك.

وقد استطاع أن يصدر هذا المجلد الضخم في ٣٢٠ صفحة من القطع الكبير على أنه يمثل (آثار شوقي التي لم يسبق كشفها أو نشرها خلال الفترة من عام ١٨٨٨ - ١٩٠٣) وقد أضفى على البحث مراجعات ضخمة وأبحاث تاريخية عديدة فضلاً عن المراجعات الدقيقة التي قام بها بين ما نشر منه في ديوان شوقي الأول الذي أصدره عام ١٨٩٨ وبين ما أسقطه شوقي عندما أعاد طبع ديوانه عام ١٩٢٦ وعشرات من القصائد التي عدل شوقي ألفاظها وعباراتها وعشرات القصائد التي حجبها شوقي وخاصة ما يتصل بمدائحه لتوفيق وعباس، وما يتصل بهذا من هجائه لعرابي في عديد من القصائد وكذلك ما يتعلق بأشعاره الأخرى التي كان ينشرها بدون توقيع أو بتوقيع رمزي مثل «النديم» والسائح و«ش» و«أنا» و«شرم برم».

ولا شك أن كشف هذا التراث للشاعر العربي الكبير عمل رائع فقد كانت خسارة كبرى للأدب العربي أن تظل هذه الخمسة آلاف من أبيات الشعر مدفونة في بطون الصحف والمجلات، ليس فقط لقيمتها الأدبية ولكن لأنها تلقي أضواء جديدة على شخصية شوقي وملامحه النفسية وحياته وتفكيره، فإن شوقي حين طبع ديوانه عمل على إبراز صورة أدبه ونفسه في أبهى حللها وكذلك حرص أبناؤه وآله في الجزئين اللذين طبعاهما من بعده.

أما الدكتور محمد صبري فإنه وضع أمامنا شوقي في صورته الحقيقية عارية من كل تذويق وافتعال وتعمل، ولما كان شوقي وشعره ملك للتاريخ فإنه من الخير أن تنكشف هذه الصفحات ولا ريب أن الدكتور محمد صبري قد أفاد من خبرته الواسعة وتجربته الأدبية في إنجاز هذا العمل والذي يتمثل في الإضافات والملاحق والهوامش الكثيرة التي قدمها خلفية للبحث كله، فقد كان الدكتور صبري من أدباء مرحلة ما قبل الحرب العالمية الأولى إذ أصدر عام ١٩١٠ كتاب (شعراء العصر)، وكان في هذه الفترة على صلة بالعاملين في الحقل الأدبي، وقد عرف إسماعيل صبري عام ١٩١١ وتردد على المنفلوطي قبل ذلك ١٩٠٩ حيث أرشده إلى كتاب: (الوسيلة الأدبية) وكتب له مقدمة كتابه «شعراء العصر» وعرف حافظ وشوقي وعني بدراسة شعر امرىء القيس وذي الرمة والبحتري وكتب عن البارودي، وإسماعيل صبري وجمع نثر خليل مطران، وهذه كلها خلفية واسعة وعميقة لعمله هذا.

وإذا كان لنا أن نسأل عن العمل الذي يقوم به هذا الرائد الذي بقي وحده من جيل ضخم فإننا نقول: إن الدكتور صبري يعمل منذ تلك السنوات التي أتم فيها بحثه عن شعر شوقي (١٩٦١ - ١٩٧٧) الآن فإنه مشغول بعمل ضخم هو تاريخ «الحضارة العربية الإسلامية في أفريقيا».. وهو موضوع لم ينل حظه من البحث والتعمق، وقد قطع هذا البحث مراحل واسعة وأنجز نتائج وحقائق هامة وخطيرة تكشف زيف الاستشراق ودعواته المبطلة التي حاولت تجريد العرب في أفريقيا من تراثهم الإسلامي الذي حرقه الاستعمار، وحاول حجبه حتى يروج لدعواه المبطلة، بأن هذه البلاد كانت مجهولة ولم تكن لها حضارة أو ثقافة، وحتى يدعي أنه هو ممدن الشعوب.

شيخنا العامودي:

لشيخنا العلامة محمد سعيد العامودي أثر بعيد في الأدب العربي المعاصر لا يعرف قدره إلا الذين تابعوا إنتاجه وعمله الأدبي ونظمه الشعري الذي تحفل به دراسات الأدب العربي في المملكة العربية السعودية، ولقد كان لبحثه الفريد عن «حافظ إبراهيم» في المؤتمر الأول للأدباء السعوديين عام ١٣٩٤ هـ آثاره البعيدة التي كشفت عن مقدرة هذا الكاتب الكريم وعمق دراسته ولا عجب فالشيخ العاموي معروف لأدباء العرب منذ عام ١٩٤٤ أي منذ خمسين عاماً أو يزيد عندما نشر بالقاهرة بصحيفة الشورى رباعياته ثم كان فوزه بالجائزة الأولى في المسابقة التي أقامتها مجلة الهلال عام ١٩٣٣ في ترجمة تلك القصيدة الإنجليزية إلى اللغة العربية شعراً وهذه هي القصيدة.

أنا بالأمس حينما كنت طفلاً ليس	دأبي غير البكا والسهاد
كان هذا الزمان ينسل في بطء	أمامي وتختفي في اتئاد
ثم لما تلك الطفولة ولت	وتلاها الشباب غض الإهاب
بات هذا الزمان يمشي حثيثاً	غير خائف ولا هياب
وتقضي عهد الشباب سراعاً	تاركاً خلفه الوجود وراء
غير أن الزمان أصبح يجري	هكذا.. هكذا أراد وشاء
ثم لما أصبحت شيخياً كبيراً	فاهما للحياة فر الزمان
إنها فهمنا الحياة كمال	عيبه إن داءه النقصان
ولقد خلت أني سوف ألقى	منه لي صاحباً وفياً وخلا
فأردت السير الحثيث إليه	غير أن الزمان فات وولى

وما تزال آثار العلامة العامودي تتعدد على الزمان وإشرافه على الصحافة الإسلامية في مكة جريدة صوت الحجاز، ومجلة الحج ومجلة الرابطة خلال سنوات ثلاثين يعطينا مفهوماً لذلك الدور العظيم الحافل الذي قام ويقوم به وكانت مراجعاته ونقداته للتأليف العربي وإلمامه بجوانبه المختلفة حتى لا يفوته بيان عمل من أعمال الفكر العربي الإسلامي الحديث، كل ذلك يدعونا إلى أن نرسل للشيخ تحية متواضعة على هذه الصفحات اعترافاً من كاتب السطور بفضله هذا الرائد الكبير.

(٢)

أخطاء في البحث في تراجم الأعلام

على الكاتب المسلم أن يكشف ما أخطأ فيه إذا تبين له وجه الحق، ولقد كانت هناك جوانب من التاريخ خفيت علينا زمناً، ومن ثم فقد ضللنا الطريق بالنسبة لمجموعة من الأعلام فكتبنا عنهم سواء في موسوعة (الأعلام الألف) أو في مؤلفات أخرى. جاء الخطأ من نقص في المعلومات التي كانت بين أيدينا والتي كان النفوذ الأجنبي قد قدمها إلينا سواء في مناهج الدراسة أو في الثقافة وكانت أخطر ما هنالك ما خفي عنا من مخططات الشعوبية أو الماسونية أو بروتوكولات صهيون.

أولاً: كان الخطأ في تقدير شخصية السلطان عبدالمحميد وما أثير حوله من شبهات ولم تكن الصفحة الخاصة بموقفه من اليهودية العالمية قد كشفت به وخاصة ما يتعلق بالاتصالات التي جرت بينه وبين هرتزل.

ثانياً: ما يتصل بالعصر التركي الذي جاء بعد السلطان عبدالحميد وهو عصر الاتحاديين ودورهم الخطير في التسليم للصهيونية العالمية وإسقاط عبدالحميد وتقسيم طرابلس (الغرب) وإدخال الدولة العثمانية في الحرب العالمية دون وجه من وجوه الحاجة إلى ذلك.

ثالثاً: ما يتصل بالدور الذي قام به مصطفى كمال أتاتورك مكملاً لدور الاتحاديين وإسقاطه للخلافة الإسلامية وإلغائة للحروف العربية والشريعة الإسلامية.

وقد أثر هذا كله على عدة شخصيات: منها بعد شخصية السلطان

عبدالحميد شخصية (مدحت) الذي كان على رأس مخططات الماسونية وكنا نظن كما كان يطلقون عليه (أبي الأحرار).

رابعاً: ما يتصل بأعلامنا في الأدب والفكر الذين تابعوا التغريب والنفوذ الأجنبي وكل ما يتصل بما قدموه من سموم وفي مقدمة هؤلاء طه حسين وسلامة موسى وعلي عبدالرزاق ومحمود عزمي.

ومن هنا كانت شخصيات فرويد، وماركس ودوركايم من الشخصيات الموصومة التي كانت داخل إطار المؤامرة التلمودية الصهيونية لإفساد مفاهيمنا الإسلامية.

خامساً: ما يتصل بإحياء الفكر الوثني اليوناني والفكر الشعوبي الشرقي وإحياء أمثال الحلاج وابن عربي والسهروردي، وأبي النواس وبشار وغيرهم وكذلك شخصيات ابن المقفع وإخوان الصفا.

سادساً: ما يتصل بالتاريخ الوطني والقومي والشخصيات التي أعطيت مزيداً من الشهرة والبطولة الكاذبة أمثال سعد زغلول، لطفي السيد، قاسم أمين.

سابعاً: الشخصيات التي كانت من وجهة نظر السياسة الحزبية والنظرة الوطنية ذات أهمية بينما هي في موازين الإسلام لا تعد شيئاً من أمثال: طلعت حرب الذي كان ضالعاً في طريق النظام الربوي أو مختار الذي كان يعمل في مجال التماثيل.

ثامناً: كل ما يتصل بالشخصيات الفرعونية والجاهلية أمثال أخناتون ورمسيس والإسكندر، وتوت عنخ أمون.

تاسعاً: الشخصيات التي خدعت المسلمين في بلادها واغتصبت منها حركة النهضة أمثال غاندي في الهند والدور الذي قام به في سلب زعامة المسلمين للحركة الوطنية.

عاشراً: شخصيات أعطاها التغريب والماركسية قدراً أكبر من مكانها وحقها، وذلك تحليل آثارها التي لم يكن في طريق المفهوم الإسلامي أمثال رفاعة الطهطاوي والكواكبي.

حادي عشر: شخصيات أخذت طابع البطولة الوطنية بينما لم يكونوا إلا أعداءً للإسلام ومحاربين له أمثال سوكارتو، عبدالناصر، ميشيل عفلق.

ثاني عشر: شخصيات كان لها دور عظيم في مجال العالم الإسلامي والحضارة الإسلامية سواء في مجال الطب أو الكيمياء ولكنهم كانوا في مجال الفلسفة معارضين للمفهوم الإسلامي أو خاضعين لمفهوم الفكر الباطني والإغريقي وتوابع له، أمثال ابن سينا والفارابي وابن رشد والكندي.

ثالث عشر: أسماء لمعت في مجال الصحافة وكانت في خدمة النفوذ الأجنبي أمثال شبلي شميل وفرح أنطون وجبرائيل تقلا وأنطون الجميل وجرجي زيدان ويعقوب صروف.

ونحن نأسف كثيراً لما كتبناه عن السلطان عبدالحميد قبل أن نتبين دوره الحقيقي وقد وضعناه مرة في صف الطغاة ومرة في صف المستبدين ولم يكن من ذلك من شيء.

كما نأسف لما التمسناه من إعجاب بشخصيات غربية ضالة لها أسماء لامعة، ولكنها لم تكن إلا شطائر الصهيونية التلمودية والماسونية أمثال فرويد وداروين، وكرومويل، ونهرو، ومتزيني، ومارتن لوثر، وسافونارولا (وقد جاء ذلك في كتابنا «الأعلام الألف»).

ويرجع هذا كله أساساً إلى المرحلة المضطربة التي جرفتنا قبل أن نتنبه إلى تطبيق مفهوم الإسلام الصحيح في مجال التاريخ والتراجم..



الباب السابع

المرحلة الحاسمة



هي أحداث خطيرة وحاسمة صاحبت حياة كاتب السطور كان لها أبعد الأثر في تكوينه وفي وجهته وفي تشكيل فكره.

ولدت في أتون الأحداث في نفس العام الذي صدر منه تصريح بلفور ١٩١٧ وفي السنوات الأولى سقطت الخلافة الإسلامية ١٩٢٤.

وحاصرت الأمة الإسلامية أخطر حادثة بعد سقوط الخلافة وهي ضياع فلسطين التي بدأت معركتها ١٩٣٦ حتى ضاعت ١٩٤٩ ثم ضاعت القدس ١٩٦٧ إبان أحدث خطر في حياة العرب والمسلمين وهي النكسة الخطيرة.

وكانت الشيوعية قد سيطرت على الإعلام والصحافة ١٩٦١ ثم جاء إتفاق كامب ديفيد بعد نصر رمضان ١٩٧٤ الذي لم يحقق إزالة هزيمة ١٩٦٧ بعد أن تحولت الطرق.

ولقد هزني وأشقاني أمر سيطرة الشيوعيين على الإعلام والصحافة ١٩٦١ ووجهني وجهة حاسمة في مواجهة الفكر الوافد وإن كنت قد عملت في مجال مقاومة التغريب والغزو الثقافي منذ وقت بعيد غير أنني وجدت نفسي إزاء حدث من أخطر أحداث الأمة الإسلامية قاطبة وهو مؤامرة تضافر الفكر الغربي والفكر الشيوعي والفكر الصهيوني جميعاً واتفاقهم على خطة بالغة الخطورة في مجال الفكر والثقافة بعد السيطرة على المصرف والمدرسة والمحكمة.

وفي هذه المرحلة تشكل تصوري الفكري تشكلاً واسعاً استهدف مواجهة كل الأخطار والتحديات.

١ ــ وكان علي أن أواجه الاستشراق الغربي والماركسي والصهيوني و
أواجه التبشير (التنصير) الذي كان يرسم خططه لاحتواء الأمة الإسلامية
جميع أقطارها.

وكذلك كان من الضروري الكشف عن زيوف الأسماء التي صن
التغريب والغزو الثقافي وفي مقدمتها الأسماء المسماة بأسمائنا: رفاعة الطهطاو
ولطفي السيد وساطع المصري وطه حسين، أما الأسماء الأخرى التي تح
شارات دينها فقد كان الشباب المسلم يعرف وجهتها.

وكان لا بد من كشف أخطار كرومر في القانون الوضعي ودنلوب
التعلم وزويمر في التبشير وداروِن ومن ورائه ماركس وفرويد ودوركايم وكان
بد من التعرف على أعلام الإسلام في العصر الحديث: هؤلاء المجاهد
الذين واجهوا الاستعمار بقوة.

الشيخ شامل في القوقاز وعبدالقادر الجزائري في الجزائر، وعبدالكر
الخطابي في المغرب وأحمد عرابي في مصر وأحمد عرفان في الهند والسنوسي
ليبيا ومحمد أحمد المهدي في السودان.

هؤلاء الذين سبقوا الزعماء السياسيين الذين جاؤوا بعدهم فعم
الاستعمار على تحطيمهم: محمد فريد ـ وعبدالعزيز جاويش في مصر وعبدالعزي
الثعالبي في تونس وعشرات غيرهم.

كانت سيطرة الماركسيين على الإعلام دافعة إلى الكشف عن عظم
الإسلام وجلال الشريعة الإسلامية والعطاء الذي قدمته للإنسانية.

ولقد كانت سنوات الماركسية مظلمة تنوح برياح خبيثة ضالة، وكا
الصراع العالمي يجتاح مصر والبلاد العربية والأمة الإسلامية كلها بي
الصهيونية العالمية والشيوعية العالمية وكان لا بد من كشف مصدرهما.

لقد كانت قصة الاستعمار غالبة في المرحلة الأولى نتيجة الاحتلا
البريطاني فلما انتهت هذه المرحلة بدأت مرحلة أشد خطورة هي مرح
الاحتواء وبسط النفوذ التغريبي تحت أسماء مضللة، أخطرها الفكر القوم

الذي لم يكن أكثر من واجهة للماركسية والتصور الغربي، كان الاحتلال الفكري والثقافي يجتاح الأمة الإسلامية ويوجهها إلى التبعية ويحملها على تقبل هذه التبعية.

وكان من أكبر هموم الكاتب المسلم في هذه المرحلة الجديدة هو: النفوذ الصهيوني الزاحف بقوة ثم جاء النفوذ الماركسي مع الدعوة إلى القومية العربية من خلال مفهوم غربي وافد. فانحصرت الأمة الإسلامية بين الخطرين وامتد هذا الخطر في ضراوة وحشد حتى جاءت نكسة ١٩٦٧ التي سقطت منها القدس في يد الصهيونية وانهزمت البلاد العربية كلها وتبين أن الأمة الإسلامية والوطن العربي يواجهان خطراً حاشداً.

ولم تعطنا المدرسة الحديثة شيئاً ذا بال وإذا أعطت فليس عندها إلا مناهج مشوهة وافدة، لا يمكن فهم دور الإنسان المسلم أو بناء المجتمع الإسلامي وإنما يكون بناء الفكر على أساس فهم الغاية، فالفهم الإسلامي للمجتمع يدفعنا إلى أن نكون أنفسنا تكويناً خاصاً هو أن ندرس الفلسفات الوافدة ونعرف رأي الإسلام فيها فلا نأخذها قضايا مسلمة ولا نؤمن بالتبعية لها.

وتبين أن عطاء الفكر الغربي الوافد (ماركسياً وغربياً وصهيونياً) قليل ولا يعطي للمسلم أشواق روحه.

ولقد أعطت الدعوة الإسلامية في ذلك شيئاً كثيراً، فقد حولتنا من المدرسة التوفيقية (ذات طابع الكلام والمنطق والاعتزال) إلى المدرسة القرآنية بعدما كانت فكرة المعتزلة الجدد غالبة على جمال الدين ومحمد عبده.

وقد جاءت الدعوة الإسلامية في إبانّها على أثر سقوط الخلافة كمؤسسة عالمية تدعو إلى الإسلام بمفهومه الأصيل الذي عرفه المسلمون الأول قبل ظهور الخلاف: بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع.

وكان العمل على كشف زيف الحملات على المماليك والدولة العثمانية في مقدمة الأعمال، فقد كان الغرب حريصاً على إثارة الشبهات حول الذين نصروا الإسلام وأزالوا آثار الحروب الصليبية وحطموا القوى الغازية.

ولقد كثف التغريبيون حملاتهم في محاولة لتذويب الأساس وذلك بالحملة

على الماضي والقديم ورميه بالتخلف والجمود، وكان الهدف هو الدين والتاريخ
والتراث.

وقدموا لمصطلح التقدم مفهوماً زائفاً فأصبحت كلمة تقدم تعني كـاتباً من
كاتبين: إما بعثي وإما ماركسي أو هما معاً.

وكان لا بد من تصحيح معالم كثيرة فلا يوجد في الإسلام إزدواجية أو
ثنائية للقيم بحيث تتصارع، ولكن هناك تكامل والتقاء.

فلا يقر الإسلام صراع الأجيال ولا صراع الطبقات ولكن يؤمن بتلاقي
الأجيال حيث يقيم الإسلام من القيم علاقة التلاقي والتوازن والتكامل.

وكان لا بد من إعادة الصياغة للفكر الإسلامي مستوعباً الرد على ما
وجه من أسئلة وما أثير من شبهات وصهر ذلك كله في بوتقة دراسة جامعة
تكون بمثابة تصور جديد لتكون في أيدي البـاحثين قـوة قادرة عـلى دحض
حمـلات الشك وبنـاء الثقة في النفس المسلمـة مجدداً لتكـون محصنـة ضد
الانصهار في الفكر الوافد قابلة للتحرك إلى الغايات العليا في بناء أمة الإسلام
من جديد وقد صدق أرنست رينان حين قال: إنه لا نجاح للمسلمين اليوم
إلا باتباع السبيل التي سلكها محمد ﷺ.

ونحن قبل أن يقول أرنست رينان ذلك كنا على ثقة من العودة إلى
الأسلوب الذي تبناه الرسول الخاتم وقد اصطنع ذلك الإمام حسن البنا تماماً.

وكـانت نكسة ١٩٦٧ هي التي كشفت حقيقـة الأمر كله فيـما يتعلق
بالتبعية للحضارة الغربية والفكر الغربي ليبرالياً وماركسياً، فقد خدعتنا القمم
الشوامخ طوال أكثر من خمسين عاماً بأن طـريق النهضة والتقـدم هو تقبل
الحضارة الغربية ومنهج الغرب في الفكر والحياة، فهو الذي سيحرر العرب
والمسلمين من الاستعمار والنفوذ الأجنبي وجري الناس وراء ما أعلنـه هذا
الجيل ممن أسموهم الرواد والعمالقة حتى جاءت نكسـة ١٩٦٧ لتثبت فساد
هذه النظرية فقد هزم العرب وضاعت القدس ولم يعد أمام العرب والمسلمين
إلا التسليم بالسيطرة الكاملة لليهودية العالمية.

هناك بزغت (الصحوة) لتكشف للمسلمين فساد هذه الوجهة التي سار

فيها العرب والمسلمون منذ احتلال فلسطين، وتدعوهم إلى تصحيح المسار والانطلاق من المنابع ومن ثم ظهرت فكرة أسلمة العلوم والمناهج ثم التأصيل الإسلامي وإعداد البدائل للخروج من التبعية.

وقد عقد مؤتمر في الجزائر أولى اهتمامه لهذا الهدف ومن هنا كان لا بد من النظر في كتابات هذا الجيل الرائد (طه حسين ومن حوله) لمراجعة أعمالهم والنظر إليها في ضوء الإسلام حتى لا يخدع المسلمون في فكر ظاهره إسلامي ومضمونه تغريبي.

وقد جاءت مرحلة أسلمة المناهج والعلوم مع مطالع القرن الخامس عشر الهجري فظهرت (أسلمة العلوم) و(أسلمة الاجتماع) و(أسلمة الاقتصاد) و(أسلمة العلوم الإنسانية).

وتزودت كلمات خصوصية الثقافة وذاتية الفكر الإسلامي لارتباطهما بالعقيدة والتاريخ واللغة مع إنكار وتدمير مفهوم (عالمية الثقافة) المضلل.

وجاءت الدعوة إلى تقديم المواد التي تنقص ثقافة الشباب المسلم في المدرسة المصرية والعربية والجامعات وتأكيد مفهوم الإسلام في كل القضايا المثارة سواء أكانت اجتماعية أم اقتصادية أم سياسية.

وتقديم وجهة النظر الإسلامية المختلفة والمتميزة عن النظرتين: العلمانية والماركسية وعن كلا المذهبين الليبرالي والاشتراكي وتصحح أخطاء النظريات الوافدة المطروحة في أفق الفكر الإسلامي كنظرية التطور والفرويدية والوجودية ونظريات دوركايم وماركس وسارتر وغيرهم.

وكان لا بد أن تقدم هذه المعاني والمفاهيم بأسلوب يبسط النظريات ويجعلها سهلة الفهم وفي خط متميز عن الكتابة غير الإسلامية من ناحية وبأسلوب الدعوة المبسط لأسلوب الفلاسفة المستعلي على الفهم الوسط مع الحرص على السرعة واليسر في العرض دون فقدان الأصالة والموضوعية.

ولقد كان هذا الاتجاه عريضاً وكنت واحداً من العاملين فيه لا أدعي زيادة ولا تطاولاً ولكني مضيت مع الإخوة الذين شقوا الطريق راجياً أن أنال مرضاة الله معترفاً بالسبق للكثيرين.



الفصل الأول

نكسة ١٩٦٧



كانت نكسة ١٩٦٧ هي النتيجة الطبيعية لاصطناع المسلمين لأسلوب الغرب في مقاومة الغرب والتماس منهج أمة غاصبة للانتصار عليها والظن بأن الديمقراطية الغربية أو الشيوعية الماركسية تضمر أي قدر من الصدق والوفاء لإعطاء الأمة الإسلامية مكانها أو أي قدر من قوة أو عزة.

فقد خدع العرب والمسلمون بأكاذيب الصداقات الدولية وغفلوا عن الأسلوب الحقيقي لمواجهة أعدائهم: هذا الأسلوب الذي رسمه لهم القرآن، والتمسوا أسباب النصر على العدو من عطاء العدو نفسه سواء أكان الاستعمار الغربي أو الاستعمار الشيوعي.

فهم يضمرون الحقد ويهدفون إلى إيقاع المسلمين والعرب في شراكهم، لاحتوائهم وإذلالهم وخداعهم ببريق الألفاظ ولمعان الأيدلوجيات ليردوهم عن منهجهم الأصيل وليجعلوهم في دائرة احتوائهم وليصهروهم في بوتقتهم الأممية حتى يفقدوا ذاتيتهم التي يتميزون بها ويفقدون منهجهم الذي هو سلاحهم في مواجهة كل غاز أو معتدي.

وقد غفل المسلمون والعرب عن مقاييسهم في مواجهة العدو أو النصر أو قيادة الجيوش أو تطبيق منهج الله تبارك وتعالى وظنوا أنهم يستطيعون لو التمسوا مناهج الغرب أن يصبحوا قوة وأن يتحرروا منه وكان ذلك أكبر (مغمز) في حياتهم وأقوى خنجر صوب إلى صدورهم، ذلك لأن لكل أمة قيمها ومعتقداتها وأساليبها التي تمكنها من النصر واستعادة الحق وأن مناهج أي أمة لا ينفع أي أمة أخرى إلا إذا أخذت الأمة بالأساليب والوسائل وطبقتها في إطار أيديولوجيتها الخاصة.

لقد جاءت نكسة ١٩٦٧ نتيجة تسلم الشيوعيين أدوات الإعلام والصحافة والمسرح وحيث غشيت آفاق الفكر والثقافة سيطرة الماركسية وتقلص الاتجاه الإسلامي الذي كان أهله قد حوصروا وحجبوا.

فكانت نتيجة لهذا الانحياز الخطير استشراء المفاهيم الماركسية والقيم الإلحادية التي أصابت مصر بأخطار لا حد لها وكان أخطر ما فيها سقوط القدس في أيدي الصهيونية.

ولكن المحن لم تلبث أن انكشفت قليلاً وبدا الإسلام يستعيد قوته حتى جاءت مظاهر الإسلام في إيران وأفغانستان وباكستان بما تمثلْ ظاهرة جديدة هزت الغرب هزاً حين كان يعتقد أن الإسلام لم يعد له وجود.

وكان مطلع القرن الخامس عشر علامة بارزة على الصحوة الإسلامية ثم جاء سقوط الشيوعية في بلادها ومسقط رأسها علامة خطيرة على انهيار الفلسفة المادية في قمة مرحلتها الشيوعية الخطيرة التي شكلتها الصهيونية من خلال الماسونية وبروتوكولات صهيون كمقدمة لإقامة حكومة العجل الذهبي الربوية العالمية.

نعم سقطت الماركسية ولكن لم تسقط المادية بعد.

إن هناك اليوم بعد سقوط الشيوعية صراع الثقافات العالمية والفلسفة المادية وغلبة مفاهيم التلمودية التي رسمتها في العصر الحديث الماسونية وبروتوكولات صهيون.

وما يزال التنظير المادي القائم على وضع المجتمع في مواجهة الغزو، ما زال يحكم كثيراًمن القضايا.

وليس معنى قبول الشيوعيين بالاقتصاد الحر أن يغيروا نظرتهم إلى التفسير المادي للتاريخ فهناك الاستعلاء الفرنسي بالفرنكوفونية والعمل على نشرها في البلاد العربية وإستقطاب قادة بعض البلاد.

وهناك الخطر الأكبر في الاستعلاء بالجنس والدم والعرق وحرية الكشف

والإباحة والدعوة إلى وحدة الأديان وإلغاء المسئولية الفردية ومؤامرة الحوار ومؤامرة الدعوة الإبراهيمية.

أما في محيطنا الإسلامي فهناك إحياء الفرق القديمة والتشكيك في الشريعة الإسلامية وتطبيقاتها وتحريف القرآن والسنة والسيرة والتاريخ.



الفصل الثاني

حركة اليقظة

الأصالة في إطار العصر

الصيحة التي أعلنتها حركة اليقظة كانت علامة على أن المنهج الذي خطه التغريب قد وصل إلى طريق مسدود وأنه تجاوز الأصالة ودخل في مرحلة التغريب وأنه قد بدأ يحاصره القلق.

حتى الدعاة إلى العصرية انكشفت أمامهم علامات التآمر الغربي ممثلة في إطلاقه لحركة التبشير وخروجه على ما أطلق على نفسه من مسميات الحرية والإخاء والمساواة واندفاعه نحو نهب مقدرات الأمم، والاستعلاء باللون الأبيض على الأجناس الملونة.

هذا من وجهة نظر الدعاة إلى العصرية الذين تراجعوا بعد أن علت صيحة اليقظة بالدعوة إلى العودة إلى منهج الإسلام كمنطلق حقيقي للخروج من الأزمة.

وقد تبين أن المحاولة التي رسمها الغرب ولقنها لأوليائه من أنه لا يستطيع العرب والمسلمون مقاومة الاستعمار إلا بالتسلح بأسلحته.

تبين أن هذه الدعوة خدعة كبيرة كنا في مطالع الشباب تتفتح عقولنا وقلوبنا على إحساس مظلم بالتغرب، وعلى كتابات توحي بالسخرية بالإسلام وتاريخه ورسوله ولغته وإعلاء العبقرية الغربية، وكان التصور المطروح للإسلام أنه دين عبادة ومسجد وصلاة.

وقد تكشفت أمام أعيننا أبعاد المؤامرة بعد أن ترجم كتاب وجهة الإسلام، وعرفنا أننا نحاصر حصاراً شديداً لصهرنا في بوتقة التغريب.

ولكن كان الأمر الذي يزعج نفوسنا: هو ما الطريق الصحيح وأين الضوء الكاشف إليه.

وكانت الإجابة موجودة وقائمة وهي سائرة في طريقها وعلينا أن نبحث عنها، كانت الدعوة الإسلامية قد استعلنت بعد سقوط الخلافة الإسلامية مباشرة وكانت تسعى خطوة بعد خطوة لتكشف لنا الضوء إلى مفهوم الإسلام الأصيل.

كان أمامنا صراع الأحزاب السياسية وفشلها في القيام بأي دور حاسم في مواجهة الاستعمار فقد استطاع الاستعمار أن يلهو بها ويدفعها إلى الصراع الداخلي حتى يشغلها عن القضية الأساسية.

وقد جاء عقد الثلاثينات ليكشف أنها عجزت تماماً ومن ثم بدأت تظهر قوى جديدة كمصر الفتاة والشبان المسلمين وغيرها.

وكانت الإخوان المسلمين هي قمة العمل الجديد: لا بد من العودة إلى المنابع، إلى المفهوم الأصيل للإسلام، إلى المفهوم الجامع ديناً ودولة، مصحفاً وسيفاً، عقيدة وشريعة.

وجاءت السنوات المتوالية تدفع بالشباب إلى أحضان الدعوة وكان أبرز ما في العمل للدعوة: تصحيح المفاهيم.

ومنذ بدأت أكتب في صحف الإخوان المسلمين فقد كانت فكرة التغريب هي قضيتي الأولى، وكنت أول من فتح الباب لدراستها في ضوء الإسلام، وفي المجلة الأسبوعية والصحيفة اليومية خلال سنوات ٤٦ ـ ٤٧ ـ ٤٨ امتد تأصيل هذه المفاهيم في مجالاتها المختلفة.

فتحدثت عن المدرسة الغربية والمدرسة الإسلامية والفوارق بينهما ثم تحدثت عن المدرسة الإنجليزية والفرنسية.

ثم أنشأت ما أسميته (نحو أدب جديد) يختلف عن الأدب المنصهر في بوتقة الحزبية السياسية، وتحدثت عن براعم الشعر الإسلامي الجديدة وكشفت عن زيف السياسة الحزبية وأعدت كتابة هذا التاريخ منذ بدأ حزب الأمة

الذي أسسه كرومر وقاد فكره لطفي السيد والدور الذي قام به سعد زغلول في تحطيم مفهوم الوطنية المصرية التي كانت تتحرك داخل دائرة السياسة الإسلامية العامة وصراع الأحزاب.

وتحدثت عن انهيار الحضارة الغربية وزحف الإسلام فضلاً عن الوقائع الوطنية الكبرى كالاحتلال البريطاني ومعارك المقاومة.

كان إيماني بأن الدعوة الإسلامية هي المنطلق الحقيقي لتحرر مصر والبلاد العربية والإسلامية، وكان سقوط الحزبية، والنفوذ الأجنبي في عالمي السياسة والاجتماع حقيقة واقعة.

وأن الإسلام يبني في ضمائر الأمة خلايا جديدة بحيث يمكن القول بأنه هو المؤهل حقيقة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية حين دعيت الأمم إلى بناء جديد لها.

ولكن القوى المسيطرة كانت تدبر لإيجاد البديل بعد القضاء على الأصيل وكانت الخطوة التي يعدّ لها الاستعمار هي غرس جسم غريب في قلب الأمة الإسلامية وإعطائه (رأس جسر) في أخطر موقع في المنطقة (فلسطين وبيت المقدس).

كانت مخططات الصهيونية العالمية والاستعمار قد أعدت خطة لمرحلة جديدة من السيطرة بعد أن عرفت بأن مقامها قد انتهى.

ومن ثم فقد كان جلاء القوات العسكرية من البلاد العربية ليس إلا مظهراً لوجود حقيقي قد أُعد له في قلب هذه المنطقة عن طريق تكوين جيل جديد يسيطر ويحكم ويقود الأمور حتى النحو الذي يمكن للنفوذ الأجنبي من السيطرة والاستمرار وجاءت حركة يوليو لتتآمر على القوة الحقيقية وعلى الوضع الأصيل ولتخدع الناس عن النضال من أجل مقاومة الصهيونية إلى الارتداد نحو الداخل ونحو القضايا الفرعية.



الفصل الثالث

على مشارف القرن الخامس عشر

ويجيء مطلع القرن الخامس عشر الهجري حافزاً لألف مليون مسلم للوقوف لحظة لمراجعة حساباتهم والنظر إلى الطريق الذي يسيرون فيه نظرتين: نظرة إلى الماضي لتقدير ما قطعوه في سبيل الغاية التي يتطلعون إليها ونظرة إلى المستقبل لمعرفة ما هم بسبيل إلى الوصول إليه.

ولقد كان عملهم قبل ذلك أن يكونوا قد أقاموا مفهوماً واضحاً شاملاً لمهمتهم يتمثل في وحدة فكر أساسية تركز على القيم الأساسية التي لا اختلاف فيها مؤمنين بأن عليهم أن يتعاونوا فيما يتفقون عليه ويعذر بعضهم البعض فيما يختلفون فيه، ما دام الخلاف في الفروع لا يؤثر في الغاية العامة ولا في المقصد الأسمى.

ولعل هذا المقصد الأسمى والغاية العامة معروفين ومتفق عليهما لدى المسلمين جميعاً وهو تحقيق إرادة وجودهم وإقامة كيانهم ومجتمعهم، على الأسس التي رسمها لهم دينهم الحق بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع وأن عليهم اليوم بعد أن تحرروا من قيود النفوذ السياسي والعسكري الوافد، أن يكونوا قادرين على التخلص من النفوذ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي وأن يحرروا إراداتهم بتطبيق شريعتهم الإسلامية وإقامة مجتمعهم الرباني ليكونوا مؤهلين لتبليغ رسالة الإسلام إلى العالمين وحتى تعليم البشرية أنه لا سبيل أمام علاج أزمتها والتي تعيشها الآن إلا أن تلتمس طريق الله وحده.

* * *

لا ريب أن حلول غرة القرن الخامس عشر الهجري هو أكبر الأحداث وأجلها وأعظمها في حياة المفكرين المسلمين المعاصرين وهو حدث من شأنه أن يهز النفس الإنسانية المؤمنة ويملأها بإحساس عميق بالمسئولية الضخمة والتبعة العميقة الملقاة على عواتق هذا الجيل من الدعاة إلى الله بعد تلك الجولة التي خاضها المجاهدون خلال القرن الرابع عشر في مواجهة أحداث ضخام ومواقف جلى عندما تجمعت قوى النفوذ الأجنبي والصهيونية والشيوعية في سبيل الانقضاض على الإسلام للإدالة منه وما زالت هذه المعركة قائمة ومستمرة في مطالع القرن الخامس عشر الهجري وقد ثبت لها كتاب المسلمون في مواقف المقاومة، وكشفوا عن خلفياتها وزيغها وسمومها، ودحضوا شبهاتها، وما زالوا على مواقع الخطر وثغرات الحمى مرابطين، قد حملوا في أيديهم أسهمهم معبأة يقذفون فيها مواقع العدو في كل يوم لا يترددون ولا يتوقفون حتى يلقون الله وقد آمنوا بأنهم في رباط إلى يوم القيامة من أجل كلمة الحق ومن أجل تصحيح المفاهيم وتحرير القيم وأن تكون كلمة الله هي العليا.

ولا ريب أن الدعاة إلى الله الذين سبقوا على الطريق في القرن الرابع عشر، والذين واجهوا خطر التغريب والغزو الثقافي والنفوذ الاستعماري في مطالعه، وفي جولاته الأولى قد أناروا الطريق وتركوا علامات مضيئة أمام الذين تعلموا على أيديهم وحملوا اللواء من بعدهم وساروا به على نفس الأسس، وفق مفهوم السنة الجامعة والتوحيد الخالص، والإيمان الصادق بأن الإسلام دين ودولة ونظام مجتمع، هؤلاء الذين قدموا أرواحهم خالصة في سبيل إعلاء كلمة الله، والذين كانت صيحتهم هي التماس المنابع والعودة إلى تطبيق شريعة الله ومنهجه في السياسة والمجتمع والتربية والاقتصاد جميعاً، هذه الدعوة الخالصة التي قطعت مرحلة طويلة في سبيل البيان والإقناع والإيمان والتي كشفت بالدليل الصحيح والحق الواضح فساد تجربة التبعية التي عاشها عالم الإسلام لمناهج الغرب في الاجتماع والاقتصاد وفي أسلوب العيش والحضارة، هذه التجربة التي امتدت من خلال الأيديولوجيين: الليبرالية والماركسية وكشفت عن فسادها وعجزها عن العطاء الصحيح لمجتمع

المسلمين، وكيف أنها أسلمت الأمة إلى النكبة والهزيمة والنكسة، خلال أكثر من سبعين عاماً من الجري وراء أسلوب الغرب، ثم تبين أن منهج الإسلام الحق في بناء المجتمع الرباني هو المنطلق الوحيد. هذه هي الحقيقة الكبرى التي تتألق اليوم على أبواب القرن الخامس عشر الهجري من خلال التجارب التي خاضتها هذه الأمة، وخاصة تجربتها مع الماركسية في أندونسيا والأفغان ومصر ومن خلال تجربتها مع الليبرالية في باكستان وإيران وتركيا ومن خلال تجربة الجزائر وتجربة العاشر من رمضان مع أسلوب الجهاد الإسلامي.

* * *

واليوم المسلمون يستشرفون مرحلة جديدة من حياتهم على طريق القوة والنهضة فإن أول الأمور التي تحتاج منهم إلى اهتمام عميق هو أن لا تحولهم المقدرات المادية عن وجودهم الذاتي وكيانهم الخاص وطابعهم الإسلامي وأن يكونوا قادرين على نقل أحدث محدثات العلم والتقدم والحضارة المادية لتكون مواداً خاماً يصيغونها داخل إطار فكرهم ومهمتهم، وبذلك يصنعون الحضارة القادمة، حضارة القرن الخامس عشر الهجري الذي أوشك أن يهل هلاله والذي يتطلع المسلمون إليه كعلامة على عصر جديد تعود الكرة فيه مرة أخرى إلى أيدي العرب والمسلمين. إن أخطر ما واجه الحضارة الغربية الجديدة وأسلمها في وقت قريب إلى الأزمة الخانقة والصراع بين القوى مع ما امتلكته من أسباب التقدم المادي هو أنها كسرت الإطار الديني والأخلاقي الذي هو الحجاب الحاجز لكل نهضة من التعثر والتصدع ومضت تواجه الحياة بغير سناد يحمي ظهرها أو نور يضيء طريقها وبذلك صدعتها المادية الغالية وانجرفت بها الطريق إلى تأكيد أهواء النفس وتغليب الترف والملذات والشهوات فانتهت بها إلى تلك الأزمة الحادة التي يتحدثون عنها ويبحثون لها عن علاج وهي أزمة الإنسان الحديث وصراعه وتمزقه وغربته وضياعه، كل هذا الذي قاساه ويقاسيه من أهوال غيبة المعنويات وتجاهل أشواق الروح وتصدع النفس وتمزق الكيان والإنساني وفقدان الهوية والهدف والعجز عن فهم الرسالة والأمانة والغاية والمصير للإنسان المستخلف في هذه الأرض فليحذر المسلمون اليوم وهم على الطريق إلى امتلاك أدوات الحضارة الحديثة وتراثها التكنولوجي والعلمي

والميكانيكي أن تستوعبهم هذه الحضارة، أو يحتويهم هذا الفهم المدمر القاصر، وعليهم أن يبدأوا من نقطة التوحيد في الفكر ومن اللغة العربية فينقلوا إليها كل معطيات العلم ومن الإيمان بوحدة البشرية والإخاء الإنساني والعدل والرحمة وليجعلوا من هذا كله إطاراً يتحركون فيه ويخضعون العلم للأخلاق والتقوى ويجعلون مقدرات البشرية للناس جميعاً وليست لفئة مستغلة أو مسيطرة على أقدار العباد وبذلك يحققوا إرادة الله في بناء المجتمع الإنساني الحق الذي تتطلع إليه الدنيا جميعاً بعد أن عاشت في الظلم والاستعباد عصراً طويلاً شقيت به وليطلع المسلمون الناس على أنهم يمتلكون منهاجاً قادراً على إسعاد البشرية حقاً وردها إلى طريق الحق والعدل وتحريرها من الجوع والخوف وتأمين النفس الإنسانية من القلق والتمرد.



الفصل الرابع

وقفة على رأس مرحلة من العمر

على امتداد العمر، على المسلم أن يقف على رؤوس المراحل ليجدد مفهومه للرسالة التي اختاره الله تبارك وتعالى لها، وليعمق إيمانه بالدور الذي يجب أن يقوم به وليصحح مساره على طريق الله ولينمي انتماءه الرباني فيرقي نفسه من مرحلة العوام إلى مرحلة الخواص أو من مرحلة الإسلام إلى مرحلة الإيمان، أو من مرحلة النفس الأمارة إلى مرحلة النفس اللوامة، ليحقق أملاً واحداً هو غاية كل الآمال: ذلك هو إقامة نفسه في موقع المسئولية في الحياة الدنيا عاملاً على بناء المجتمع الرباني، محرراً نفسه من زيوف الحياة، وفضول القول، وشواغل الأهواء فيكون: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾.

ولا يكون: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾.

ولينظر إلى الطريق أمامه ليراه يقرب من الغاية لحظة بعد لحظة، وكان العمر ذلك الفارس المطهم المندفع إلى تلك النهاية، وكان هو ذلك الراكب الذي استظل بظل شجرة ثم مضى وتركها، إن هذا الإحساس بأن العمر ينصرم يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، من شأنه أن يعطي الرجل المؤمن ذلك الإحساس بالخوف والقلق، من أن يذهب العمر دون أن يكون قد حصل على قدر من الذخيرة التي تعينه على اجتياز أخطار ذلك اليوم المشهود، وذلك اللقاء الخطير بين الإنسان وربه على ملأ من الخلائق ليرى حسابه

وعمله وجزاءه، وليرى كيف سيكون قادراً على أن يتلقى كتابه بيمينه، وأن يمر على الصراط، وأن يجتاز تلك المفازة التي تتخطف العصاة، وتلفح وجوههم النار.

تلك هي الخواطر التي تمر بالنفس المسلمة وقد انتهت الحلقة السادسة تنظر فترى كم كانت مسرفة في الأهواء والمطامع، وكم كانت حصيلتها من الخير قليلة ومن زاد الراكب ضعيفة ولعل هذا يدفعها إلى أن تعمل بقوة لتزيد حصيلتها من العمل النافع الذي يثقل ميزانها، والعمل الخالص لله لا يبتغي به ظهوراً ولا شهرة ولا مجداً زائلاً من أمجاد الدنيا التي تذهب كالهباء.

إنه حين تقل مطامع المادة: طعاماً ورغبة وهوى تزيد ملامح الضياء في القلب وينور العقل وتشرق النفس بالفهم الواعي والإلمام الرباني وتنفسح المجالات للرؤيا الصحيحة والقدرة على استيعاب الأمور وإيجاد الحلول الناجحة، وكلما خفت مؤنة الجسم بدت النفس وقد تحللت من قيودها وأصفادها، وتجلت وقد خف وزنها وارتفعت، فقد تخلصت من أخلاط المادة وأهواء النفس ومطامع الحياة.

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾.

كلما خفت مؤنة المادة والهوى والمطامع، ارتفعت النفس إلى مجالات الرحمة وصدق إلهامها وسددت وجهتها وجاءها الرأي الناضج ونطقت بالحكمة وقطعت أشواطاً واسعة إلى منطلق الذين رضي الله عنهم وذلك هو «الاستعلاء» والترقي إلى مراتب الصالحين.

ولا ريب أن أعظم ما يدعو إليه الإسلام المؤمن: التأمل والتفكير والنظر في الكون وإذا كان جمال الطبيعة يلهم العالم والشاعر والكاتب وأن يكون كبار المفكرين من عشاق الطبيعة فإن من أشد ألوان العقوق أن لا يرتبط ذلك في نفوسهم بقدرة الصانع وعظمة الخالق الذي أعطى كل شيء

خلقه ثم هدى ونعجب لماذا لا تلفت روعة الطبيعة نظر المعجب بها إلى قدرة الخالق منشىء الطبيعة وصانعها وهل يستطيع فنان أن يدعي أنه عرف توزيع الألوان إلا من تلك النماذج التي خلقها الحق تبارك وتعالى في ألوان الزهر وعطوره المتعددة، وأحجامه، وذلك التوزيع الرائع للأصفر والأحمر والأخضر والأزرق في مراحله الخفيفة والفاقعة والمتوسطة، تلك الحلقات المستديرة والمستطيلة والأهليجية من تركيبات أوراق الزهر والشجر التي تعجز قدرة الإنسان عن الإتيان بمثلها ولقد كان توزيع الألوان في الطبيعة من آيات الله المعجزة فالشمس زرقاء والغيوم بيضاء والزروع خضراء والأرض سوداء. ومن العجب أن يكتب الكتاب عن جمال الطبيعة دون أن يرد ذكر الصانع الذي إليه يرد كل ما في الطبيعة من جمال وصناعة وإتقان ولم تكن الطبيعة في الحقيقة إلا منطلقاً للإيمان بخالق الطبيعة وإلا ملتمساً للتأمل في عظمة الصانع وفي قدرته على خلق هذه الأكوان الضخمة الواسعة المتجددة، وذلك النظام الدقيق في شروق الشمس وغروبها وفي مواعيد الثمار والزروع الدقيق التي لا تتخلف، وفي فصول الصيف والشتاء وما كان هذا كله إلا موضع التأمل والتفكير لكل ذي لب، ليكون عاملاً من عوامل هداية الخلق إلى الخالق، وإخبات البشر لصانع الكون والإنسان ولمن أعطاه كل هذه النعم، إن هدى الله هو الهدى وإن نفساً تعجب بالطبيعة وتكتب عنها شعراً أو نثراً دون أن تتحرك فيها جارحة إلى الوصول إلى الله تبارك وتعالى والاهتداء به لهي من أعجب العجب، فكيف تبهر الطبيعة شاعراً أو كاتباً دون أن تدفعه إلى تقديس ذات الله العلي الأعلى صانع الطبيعة ومعطي الإنسان العقل والشعور والوجدان لاستيعاب هذا كله ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾.

ولا ريب أن ارتباط المسلم بالله تبارك وتعالى يمنحه الكثير ويحول بينه وبين كثير من القلق والتمزق. ويصرف عنه أزمات الحياة العابرة ويخلصه من

الإحساس بالغربة أو التشاؤم الذي يعتري النفس الإنسانية نتيجة عملية البث الخطيرة التي تطلقها أهواء النفس وهمزات الشياطين، تلك التي دعانا ربنا إلى الاستعاذة به منها على أن يكون هذا الارتباط أبعاده واضحة، منذ انطلاقه إلى عودته، يجب أن يكون معروفاً أن العطاء كله هو من الله وأن الذكاء والقدرة البشرية ليست هي مصدر العطاء، وأن أكبر الخطأ أن يقول قائل: إنما أوتيته على علم فإن توفيق الله هو الذي يحقق النجاح والكسب وإن إلهام الله تبارك وتعالى هو الذي يمكن من إحراز النتائج، وإن أخطر الخطر أن يظن أحد أنه هو الذي استطاع بقدرته المحدودة أن يصل إلى القصد:

ولو لم يكن عون من الله للفتى فإن أكبر ما يقضي عليه اجتهاده

إن من أخطر المخاطر أن يتكل الإنسان على نفسه وقوته ولذلك كان دعاء الرسول ﷺ: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك» وكان من توجيهاته أن يتجه في كل أمره إلى حول الله وقوته والاستعانة به وأن يدعو الله أن يحفظه فيما غاب عنه من أمر ولا يكله إلى نفسه فيما حضر من ذلك الأمر.

فإذا كانت الوجهة إلى الله خالصة في الأمر، وكان الطريق إلى الله في الأمر مبرءاً من أهواء النفس خالصاً مجرداً من الحول والقوة كانت النتائج طيبة.

كذلك فإن المسلم مطالب بأن يذكر الله في وجه المفاجأة، وفي وجه الشدة فيعتصم به ويحتسب إليه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾.

كذلك فإن المسلم مطالب أن يذكر الله في كل ما يراه معجباً به أو مستغرباً له، فإن الله تبارك وتعالى من وراء النسمة العليلة الباردة، ومن وراء الزهرة الحلوة اليانعة، ومن وراء شمس الشتاء المشرقة، وعبير العطر في ليالي الصيف. ومن حقه أن يذكر فيشكر، كذلك فإن الله تبارك وتعالى من وراء زمهرير الشتاء وأمطاره ورعده وبرقه وقد علمنا الرسول ﷺ أن نستقبل كل

هذه الظواهر الطبيعية بالدعاء، «اللهم لا تقتلنا بغضبك»، كما علمنا أن نذكر الله في مطلع الصباح وفي مغرب الشمس وعشياً وحين تظهرون فهو الذي يقلب الليل والنهار، وهو فالق الأصباح، صاحب المساء والصباح فللصباح دعاء وللمساء دعاء.

﴿ فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾.

والمسلم القارىء يجب أن يقرأ باسم الله: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ والمسلم الكاتب يجب أن يكتب باسم الله ولحساب الله: ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾.

فإذا بدأ المسلم أمره من الله وانتهى بأمره إلى الله، شعر بتلك السكينة العجيبة، والرحمة الكبرى، فإذا فاجأته الأحداث لا يذعر ولا يخاف مسلماً وجهه لله، ربنا اربط على قلوبنا، ﴿ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين.

ولقد تفضل الحق تبارك وتعالى علينا بمفتاح الأمر كله: يقول العلي الكبير: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾.

فنحن نعلم سلفاً أن الأمر سيقضى بالعطاء أو الانتزاع، ما لنا في ذلك من إرادة فلنكن مسلمين قلوبنا ووجوهنا لأمر الله وقدره وقضائه، فهو منه العطاء وهو صاحب المنع، وكل ما يعطينا أمانة عندنا يستردها متى شاء، وعلينا أن نشكره تبارك وتعالى على منحها ونحمده على منعها وأمر المؤمن كله خير إن أصابته سراء شكر وأن أصابته ضراء صبر.

هذه المعاني لو أنها ثبتت في قلب المؤمن وعاش يجددها ويتذكرها يوماً بعد يوم لم يصبه حزن ولا هم ولا غم ولم يدخل مرحلة الغربة والقلق والتمزق والأزمة النفسية التي يمر بها إنسان الغرب وعالم الغرب كله، نتيجة نقص الإحساس بإرادة الله العليا التي تصرف الأمور والتي تحرك إرادة الإنسان

من داخلها في نطاق محدود، ولقد كـان دين الله الحق في كلمة واحـدة هو إسلام الوجه لله والعمل في الحياة إيماناً برسالة الإنسان واستخلافه في الأرض وهي رسالة بناء وتعمير قوامها الإيمان بالله والرحمة والإخاء البشري. وفي إطار أخلاقي كريم، فعمل المسلم هو من أجل إقامة المجتمع الرباني مسئوليته في الحياة وجزاءه في الآخرة.

فلنعمل لتكون كلمة الله هي العليا فلتقرأ باسم ربك وتكتب باسمه جل في علاه وأن يكون عملنا في الحياة كله خالصاً لوجهه لا لمطمع ولا هوى ولا شهرة ولا غاية دون رضاه.



الفصل الخامس

دقات الطبول



في مشرق عام ١٣٩٣ الهجري الجديد

إن ظاهرة عام ١٣٩٢ ونحن على أبواب عام ١٣٩٣ هي «دقات الطبول». إن اليقظة قد أخذت تتمثل في حركة عمل يفرض نفسه على مختلف أجزاء العالم الإسلامي وتقوم الأمة العربية بدور واضح فيه. إن الانفعال بالنكسة، وآثار النكبة وأبعادها ما تزال تضيء وتشتعل في أعماق المسلمين لا تتوقف عن الوهج والضوء معاً، لتضع المسلمين أمام مسئوليتهم الحقيقية. إن التحدي الخطير الذي يمر به المسلمون والعرب قد أصبح مصدراً ضخماً من مصادر العمل في سبيل التجمع والالتقاء على طريق الأصالة والفهم العميق والاستمداد الصادق من المنابع الثرة التي استمد منها المسلمون دوماً كلما عركتهم الأزمات وألمت بهم الملمات.

ولقد تعالت الصيحات بعد نكسة ١٩٦٧ تحاول أن تدخل المسلمين والعرب في متاهات باسم الدعوة إلى أسلوب بديل لإسلوبهم، أو منهج وافد براق يراد به أن يعزلهم عن أصولهم وقيمهم، ليدفعهم مرحلة أخرى في طريق التيه الذي حاول الاستعمار والنفوذ الغربي أن يفرضه عليهم منذ مطالع يقظتهم، غير أن الحقيقة كانت قد اتضحت وبريق الحلول الخارجة عن أعماق النفس الإسلامية العربية وجوهرها ومزاجها قد خفتت، بعد أن تكشف الزيف ولم يجد المسلمون والعرب أمامهم إلا مصدراً واحداً، هو مفاهيمهم الأصيلة وقوتهم الذاتية وشخصيتهم الخالصة، وإرادتهم الحرة، فإذا تم بناء هذا الجدار فإنه سيكون السناد الحقيقي والمنطلق الصادق نحو استرداد الحق

وتثبيت دعائم الوجود، وتأكيد رسالة الأمة: الأمة الوسط التي هي خير أمة أخرجت للناس.

ودقات الطبول في كل مكان تستطيع أن تعطي الضوء الكاشف على الطريق الصحيح الذي التمسناه ونحن على مطالعه نتقدم بخطى ثابتة.

التمس ذلك في مؤسسات ثلاث تعمل وتواصل العمل في إيمان وصدق: رابطة العالم الإسلامي في مكة حيث تعقد دورتها الرابعة عشرة ومجمع البحوث الإسلامية في القاهرة حيث يعقد مؤتمره السادس والملتقى الإسلامي في الجزائر حيث يعقد دورته السادسة عشرات العلماء والباحثين والدعاة يبحثون ويدرسون ويقرون كل قضايا الإسلام والمسلمين ويستعرضون أحداث الفيلبين وبورما وقضية فلسطين والصومال، وسيلان والجامعات الإسلامية ودورها والمراكز الإسلامية الجديدة، ومواجهة الصهيونية العالمية وحملاتها ثم هناك دراسات الاقتصاد الإسلامي، والمجتمع الإسلامي وقضايا الشباب وتوسيع نطاق الدعوة الإسلامية وإنشاء مراكز تحفيظ القرآن الكريم ووكالة الأنباء الإسلامية ودعم وسائل الإعلام الإسلامية، والعناية بمناهج التربية الدينية وتنقية وسائل الإعلام صحفاً وإذاعة وسينما ومسرحاً من الأخطار وهناك دراسات ملتقى الجزائر التي تسهم إسهاماً ضخماً في قضايا العصر من وجهة نظر الإسلام حيث تقرر هذا العام إعادة كتابة تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية من جديد وإنشاء أكاديمية للتاريخ الإسلامي وكذلك الدعوة إلى العقيدة الإسلامية وإدخالها في صلب المناهج الدراسية في جميع مراحل التعليم ونشر اللغة العربية الفحصى بين أبناء المسلمين في العالم الإسلامي والتوصية بتربية الشبيبة الإسلامية تربية إسلامية قائمة على العقيدة الصحيحة والسلوك القويم.

(٢)

ومن الناحية الأخرى نجد «النظرية الثالثة» التي يحمل لواءها العقيد القذافي وهي تزحف لتحل مكانها بين دراسات الفكر الإسلامي ونجد الدكتور محمد رؤوف مصطفى أستاذ الدراسات الإسلامية في معهد البحوث

العلمية في أمريكا بعد دراسة واسعة عن النظرية الثالثة النابعة من الإسلام والتي تتميز بطابعها الخالص بعيداً عن الشيوعية والرأسمالية.

وقد اعتمد الباحث على الكتابات النصوص التي قدمها العقيد القذافي في محاضراته وخطبه والتي تجمعها وحدة فكر وتستمد من مصدر أصيل هو القرآن الكريم وتتمثل في أصول عامة يقول:

١ ـ إن الدين يحرك التاريخ والاقتصاد يأتي في المرتبة الثانية. نحن نرفض المنطق الذي يقول إن هناك اشتراكية واحدة فقط في العالم (كذا) أما التطبيقات فهي التي تختلف من بلد إلى بلد. نحن نعتبر أنفسنا جزءاً من معسكر اشتراكي وليس معسكراً شيوعياً أو رأسمالياً، لقد اكتشفنا أن كلا المعسكرين تقوده دولة كبرى ونحن نرفض أن تقودنا دولة كبرى سواء في الشرق أو في الغرب.

إن الإسلام هو المنبع الوحيد للقيم والحضارات الإنسانية باعتباره رسالة سماوية تحل تناقضات الشعوب.

وإن الدين هو أخطر القضايا جميعاً، رغم أن العالم يبدو كأنه يتجاهل هذه الحقيقة الخطيرة. إن الدين في تصورنا هو الذي يفسر الكون والحياة. من أجل هذا فإننا نعتبر الدين الإسلامي «ثورة دائمة» و«رسالة خالدة»: دعوة موجهة للإنسانية كافة، كما أننا نعتبر أنه المحرك السياسي للتاريخ وليس الصراع الاقتصادي كما يقول ماركس.

ونحن لا ننكر دور العالم الاقتصادي في تحريك التاريخ ولكن ترتيبه من حيث الأهمية يأتي في المرتبة الثالثة أو الرابعة أو الخامسة وقد لا يظهر دوره بتاتاً.

إن الحضارة التي تجاهلت الدين لم تستطع إشباع كل متطلبات الإنسان، وأهمها التطلعات الروحية، ولذلك فإن الإنسان في الغرب يثور ليحطم هذه الحضارة، نحن نؤمن أن ديننا الإسلامي ينظم الحياة من جميع جوانبها السياسية والاقتصادية، والاجتماعية حتى مسائل الحرب والسلام فإنه ينظمها.

نحن نريد أن نكون جيلنا الجديد على أساس من إطلاق طاقاته المرتكزة على عقيدته ولا بد لكل مجتمع من عقيدة ينطلق منها. إن ديننا قابل هذه المشكلات واشترط العقيدة أساساً في البناء الحضاري.

* * *

تلك موجز الأسس التي تقوم عليها النظرية الثالثة كما عرضها العقيد القذافي، ومنها ينطلق الباحثون إلى تنظير الفكر الإسلامي الجديد.

يقول الدكتور محمد رؤوف مصطفى: أنا بادي ذي بدء أرى في الواقع أنه لا يصح مقارنة اشتراكية الإسلام بأية اشتراكية على اختلاف أنواعها، فالاشتراكية العلمية والشيوعية هما من وضع الإنسان الذي قد يتأثر بما في الإنسان من خصائص من حيث انبعاثها أصلاً من مركز الحقد والثأر للأوضاع التي كانت سائدة ولا بالرأسمالية من حيث انطلاقها من مركز الأنانية الفردية المستغلة والانتهازية، أما الاشتراكية الإسلامية فهي الاشتراكية المنزلة من عند الله سبحانه وتعالى وإن العقيدة الفكرية للاشتراكية الإسلامية هي الإسلام وعلى ذلك فإنها مؤسسة على الإيمان بالله بالدرجة الأولى والقيم الروحية الأخلاقية غير الموجودة في الاشتراكية العلمية. وإن نظامها الاقتصادي هو الإسلام بما فيه من تساوي الناس في الفرص والعدالة الاجتماعية وعدالة توزيع الثروة الفاحش ولا الفقر المدقع. وقد عالج العقيد هذا التفاوت بفرض ضريبة الزكاة لتسوية الفوارق الطبقية سيما بين الناس ومنع تكدس الأموال المستغلة للمجتمع وذلك تحقيقاً لمصلحة المجتمع عامة.

(٣)

ومن دقات الطبول: تطبيق الشريعة الإسلامية فقد حوت دساتير مصر وليبيا وسوريا النص على أن التشريع الإسلامي أساس القوانين الدستورية وفي ظل هذا القرار التاريخي أصدرت الجمهورية الليبية قانوناً يحرم القرض بالربا في المعاملات التجارية بين الأفراد تطبيقاً للشريعة الإسلامية، كما أصدرت مرسوماً بمعاقبة السارق بقطع يده ومعاقبة من يرتكب سرقة بالإكراه بالموت.

وقد جدد هذا الاتجاه تياراً إسلامياً أساسياً كان قد انطمر مجراه منذ

دخول الاستعمار الغربي إلى العالم الإسلامي وسيطرته بالقانون الوضعي على أنظمة التشريع والقضاء والتجارة والبنوك والمعاملات. وقد ساعد على ذلك سلطان الاحتلال بالإضافة إلى نظام الامتيازات الأجنبية ومن ثم تقلص نفوذ المحاكم الشرعية صاحبة الولاية العامة واقتصر اختصاصها على نظر أقضية الأحوال الشخصية ثم جاءت هذه الخطوة بعد خطوات متعددة بدأت بأن نصت دساتير الأقطار العربية على أن الإسلام دين الدولة وأن العربية لغتها الرسمية ثم تحققت خطوة أخرى بإضافة الشريعة الإسلامية إلى القوانين الوضعية كمادة يرجع لها في حالة عدم وجود نص، ثم تقدمت الأمة العربية إلى مجال الأصالة في ظل عشرات بل مئات من أبحاث ودراسات الشريعة الإسلامية وقرارات المؤتمرات الدولية العالمية باعتبار الشريعة الإسلامية شريعة كاملة مستقلة معطاة للبشرية جميعها، ثم كانت هذه الخطوة الحاسمة. وستتلوها خطوات.

(٤)

في مجال الاقتصاد الإسلامي دقت الطبول طويلاً في أبحاث متعددة قدمها الدكتور أحمد شلبي، والدكتور إبراهيم الطحاوي والدكتور محمد شوقي الفنجري وكلها تستهدف تطبيق مفهوم الإسلام وابتداع نظام مصرفي يحل محل الربا الذي يحرمه الإسلام تحريماً قاطعاً.

وقد أعلن مجمع البحوث: «أن الاقتصاد الإسلامي: نظام متميز عن غيره من المذاهب الاقتصادية يقوم على أصول ثابتة أوردتها نصوص كلية في القرآن الكريم والسنة النبوية تكفل الكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية وتستوجب السعي في الحياة بالعمل الفكري والبدني وتحمي الكسب الحلال ولا تحد من حرية السعي أو الكسب أو الابتكار إلا بالالتزام بأوامر الشريعة، وما تقتضيه من حماية مصالح الجماعة مع ملاحظة بأن لكل قطر أن يطبق من التنظيمات والتطبيقات الاقتصادية المنبثقة عن هذه الأصول الثابتة ما يوافق حاجته وظروفه.

(٥)

ومن دقات الطبول اهتمام ملتقى الجزائر لموضوع غاية في الأهمية هو: «دور الإسلام الفعال أمام تحديات العصر».

وقد جاءت عصارة الدراسة في هذا الموضوع على النحو التالي: «إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان وإن القرآن مبرأ من كل ما طرأ على غيره من تحريف أو تبديل، وإنه لا يزال جديداً في مقاصده ومعانيه، معجزاً في تعبيره ومبانيه، وكلما تقدم العلم ازدادت آياته ثبوتاً ووضوحاً، وقدمت للإنسانية نوراً على نور. وإن الإسلام هو الدين الكامل لأنه منزل من عند الله وإن المسلمين بشر يخطئون ويصيبون، وهم يخطئون حين يأخذون الإسلام لفظاً ورسماً، ويصيبون حين ينفذون إلى مقاصده ومراميه، ومن ذلك يرون أن واجب المستنيرين المؤمنين برسالة الإسلام أن ينبهوا الحائرين إلى أن منطق فكرنا وسلوكنا ـ أمام تحديات العصر وكل عصر ـ يجب أن يكون هو نفس المنطق الذي هدانا الله إليه وأتم به نعمته علينا، ونعني به التفقه في ديننا والعناية بلسان قرآننا.

وإن بلاد الإسلام اليوم تواجه غزواً فكرياً ضارياً وتتعرض لحملات جارفة هدفها التشكيك في صلاحية الإسلام للوفاء بمطالب العصر وهم بذلك يرفضون رفضاً باتاً جميع الدعاوي الفكرية الدخيلة التي تحاول أن تتسلل من النوافذ بلا استئذان بعد أن خرج الاستعمار من الأبواب وهم يهيبون بالمسلمين عموماً، وبالمفكرين خصوصاً أن يطبقوا المبدأ الأخلاقي الإسلامي: مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليطرحوا السلبية التي درجوا عليها في عصور الوهن والتخاذل وأن يؤمنوا حق الإيمان بكتابهم وأن يثقوا تمام الثقة بأنفسهم وعلى الجملة أن يصلحوا جوانبهم ليصلح الله برانيهم وأن يستمسكوا على الدوام بأصالتهم مع الانفتاح على العالم في عزم وإقدام.

(٦)

تلك هي الصورة على مستوى المؤسسات والتجمعات الكبرى وهي قد أصبحت تلتقي تماماً مع أصحاب القلم الإسلامي المشرع في وجه التغريب

والغزو الثقافي والذي يعمل منذ سنوات في مجال تصحيح المفاهيم وتحرير القيم من التفسيرات التلمودية والماركسية والفرويدية والوجودية، وكلها تفسيرات تختلف عن مفهوم الإسلام الأصيل وفي محيط العلم عشرات من الأقلام اليقظى النابهة، تقف في حزم وعزم، لتواجه كل الشبهات والمطروحات الزائفة وتقول فيها كلمة الحق وفي مختلف الصحف الإسلامية أقلام رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وهم في الحقيقة المدد الأصيل لهذه المؤسسات والمؤتمرات والملتقيات الناهضة على فهم قرآني للقرآن متحرر من الفهم الفلسفي. والفهم التقليدي والفهم الغربي الوافد.

ولعل الله يكتب للمسلمين والعرب في عام **١٣٩٣** الجديد مزيداً من الضياء والنور، ومزيداً من العمل على طريق الله: الطريق الوحيد الذي يصل المسلمين بالنصر والثبات واستحقاق حمل أمانة الرسالة إلى العالمين.

الفصل السادس

إعادة النظر في كتابات العصريين

في مطالع هذا القرن الهجري الخامس عشر تقتضينا أمانة القلم والدعوة إلى الله ومسئولية الكتابة في الثقافة والأدب والعمل الصحفي خلال أربعين عاماً أن نعيد النظر في كتابات العصريين الذين حاولوا السيطرة على آفاق الفكر الإسلامي الأصيلة وتحويلها من وجهتها الخالصة لله تبارك وتعالى إلى وجهات متعددة وصدق الله تبارك وتعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ.. ﴾.

فقد جاء الغزو الثقافي يحمل لواء التغريب والشعوبية لينشىء تيارات جديدة ذات بريق وذات نفوذ استطاعت بفضل جهود السيطرة الاستعمارية من التغلغل في عقل الأمة الإسلامية وفكرها وروحها بدعوات مادية ووثنية وإباحية أعان عليها سيطرة النفوذ الاستعماري على التعليم، والصحافة فهما النافذتان الخطيرتان اللتان نفذ منهما إلى الفكر الإسلامي الأصيل النقي الرباني المصدر الإنساني الوجهة تلك الدعوات المسمومة التي ما تزال تتخطفه بين ليبرالية وماركسية وصهيونية، ولذلك فقد كان لا بد من (إعادة النظر) في هذا الركام الخطير الذي خلفته هذه المحاولة الخطيرة خلال أكثر من قرن من الزمان، فقد تصادف أن كان الاحتلال البريطاني ١٨٨٢ مقارباً لمطلع القرن الرابع عشر الهجري، الذي انطوى اليوم وبات على المؤرخين والباحثين مراجعته وتقييمه وكشف أوجه الزيف والمحاذير التي أحاطت به، فقد لمعت في هذه الفترة أسماء كثيرة لمعاناً زائفاً، أو استطاعت بفضل الورق الصقيل

والصحف العلمانية ودور النشر التغريبية، ونفوذ قوي أخرى مسيطرة على التعليم والثقافة والصحافة أن تبرز هذه الأسماء وأن تجعل من فكرها المسموم أشبه بأفكار مسلم بها في عديد من المجالات وخاصة في مجال المجتمع الإسلامي الذي تعرض لأشد هذه الأخطار مما تأثرت به الأسرة والمرأة والطفل وأجيال الشباب المفرغة من الأصالة، الغارقة في الانحلال الغافلة عن الخطر الأكبر المحيط بالأمة الإسلامية كلها والذي يتطلع إلى اليوم الذي يكون فيه قادراً على صهرها في بوتقته بعد مرحلة احتوائها التي تمر بها الآن.

١ ــ ولقد استطاع اللورد كروكر أن ينشيء في مصر (١٨٨٣ - ١٩٠٧) تلك القاعدة التغريبية التي توالدت وأنشأت هذه الأجيال المتعددة من العلمانية منذ ذلك الوقت تحمل لواء الاحتقار للإسلام وللوطنية وتدعو إلى التبعية للغرب وتعجب ببطولاته وتحمل لواء الدعوة إلى أن الإسلام دين عبادي متخلف صحراوي، منكرة ربانية الإسلام وعالميته، وتكامله الجامع بين الدين والسياسة، وكان أخطر ما تدعو إليه حركة التغريب هو:

١ ــ القضاء على وحدة الإسلام وإحلال مفهوم الإقليميات والقوميات الضيقة القائمة على الدماء والعناصر.
٢ ــ القضاء على الشريعة الإسلامية والنظام الاقتصادي الإسلامي وإحلال قانون نابليون والنظام الاقتصادي الربوي.
٣ ــ القضاء على التربية الإسلامية وإحلال نظام التعليم الغربي العلماني المفرغ من العقيدة والأخلاق.

وهكذا أوتيت هذه الأمة من مقتلين: من مقتل التعليم ومن مقتل الصحافة فقد حطمت قوائم التربية الإسلامية وأقيم نظام تعليمي علماني قاصر يقوم على خلق طبقة من الكتبة والموظفين، المبهورين بالغرب، القابلين بالتعاون مع الاستعمار، ثم جاءت الصحافة التي تولاها المارون ففتحت الأبواب أمام سموم الفكر الغربي، والماسونية والعاميات، والقصص الإباحي واحتقار القيم والأخلاق ولعل نظرة واحدة إلى مخطط اللورد كرومر في هدم قوائم الإسلام وركائز القيم الإسلامية في مصر ليقدم الدليل الأكبر على أن ما

نراه حتى اليوم من مخططات ودعوات إنما تستمد وجودها من هـذه الهجمة الشرسة التي قام بها زعيم التغريب الأكبر.

فقد عمد كرومر إلى عملين خطرين: زعزعـة العقيدة الـدينية إلى جـانب اقتلاع مقدمات الوطن والوطنية، وجعل الحضارة الأروبية هي النموذج الأعلى للمصريين ليأخذون به.

وتدل[1] كتابات كرومـر على إدراكـه التام لـموقف الإسلام في الشرق «فالمصريون يتمسكون تمسكاً تاماً بالإسلام الذي هو أحد الكلمات المرادفـة للوطنية في الشرق والإنجليز لا يهدفون إلى نشر المسيحية ولكنهم يريدون نشر حضارة تقوم على أساس مسيحي. ومن ثم عمد رجال الاحتلال إلى العمل على زيادة عدد المصريين الآخـذين بنصيب من الحضارة الأروبيـة (أمثال لـطفي السيد وسعد زغلول) وجعلوا لبعضهم مقاماً كبيراً في الدور السياسي الذي تمر به مصر منذ الاحتلال، وإذا استمر المضي في هذا الطريق أصبـح المصري الآخذ بحضارة أروبا أقل مصرية وأكثر ميلاً لأروبا إذ يصبح المصريون بهذا الفيضان المتدفق من الحضارة الأروبية أقل إسلاماً، وهم في نفس الوقت لم يحصلوا بعد على العمود الفقري في الحضارة الأوربية» هذا بالنص ما يورده كرومر في تقاريره، وكما يصفهم في عبارة قصيرة (بأنهم مسلمون وليست بهم خواص إسلامية، وأوربيون وليست فيهم خواص أوربية).

ويرى كرومر أنه في إدخال المدنية الأوربية في مصر (يجب ألا يغيب عن ذهننا أنه لا يمكن إدخال أي تجديد في الإسلام وبعبارة أخرى إن الإسلام المجدد ليس إسلاماً، إنه شيء آخر لا يمكننا وصفه، لذلك فعلينا ألا نتوقـع مساعدة كبرى من المسلمين المتمسكين بدينهم فهم يزدادون تمسكاً بالدين كلما ازدادت المدنية الأوربية في مصر، أما السـوريون والأرمن فليسـوا أجانب، والأقباط إلى جانب أنهم مسيحيون ـ فهم في عام ١٨٨٢ لا يتمتـازون عن المسلمين من ناحية التعلم ـ لذلك فإن المصري المتحضر بـالحضارة الأوربيـة

(١) الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي للدكتور سامي عزيز.

أصبح هو العامل الأساس في أداة البلاد إلى جانب الأوربيين والواقع أن القسم الأكبر من المصريين مسلم، وينظر إلينا (نحن الإنجليز) باعتبارنا لا نعرف شيئاً خارج المادة (روحياً) ولكن توجد بينه وبين عالم الأزهر في الوقت نفسه هوة لا تقل اتساعاً عن الهوة التي تفصل بين العالم الأزهري وبين الأوربي. وهكذا فإن الشباب المسلم الدائر في تيار الحضارة الأوربية يفقد إسلاميته أو على الأقل يفقد القدر الأكبر من دينه ويحرم نفسه من أهم مبادىء عقيدته وفي الوقت نفسه نادراً ما يتجه هذا الشخص إلى المسيحية.

ويعترف كرومر بفضل الحضارة الأوربية على الشرق من الناحية المادية أما من الناحية المعنوية فإن التأثير على الأخلاق غير واضح فالحضارة الأوربية تقضي على دين دون أن تستبدل به غيره فالمصري الذي قد يطلق عليه (صاحب التفكير الحر) يجد نفسه في خضم هائل دون مرشد أو هاد، إنه لا يجد في تاريخه الماضي ولا من ظروفه الحاضرة سنداً أخلاقياً يعتمد عليه، إنه يرى دينه راغباً في التجديد، أما الدين الذي يقبل الإصلاح والتجديد فهو دين آخر، لذلك فإنه يتجه إلى ترك الدين جانباً، وفي الوقت نفسه يحاول تقليد الأوربي، ولا يترك هذا المصري عقيدته خلف ظهره فحسب بل إنه يترفع عنها ويزدريها، وهكذا يندفع مغمض العينين بين أحضان الحضارة الأروبية، غير مدرك لحقيقة هامة، هي أن ما يراه ليس سوى المظهر الخارجي لتلك الحضارة، بينما تستقر المعنويات المسيحية تحت هذا المظهر وتتحكم في حركاته، ويصعب على مقلد الحضارة الأوربية أن يحصل عليها) ولكن هل يحيا المصريون هكذا دون عقيدة معينة؟.

ويوضح كروكر أنه (بمرور الوقت سيخلق المسلمون ديناً لا يقوم على الإسلام الأول، إنه سيقوم على مبادىء جديدة، وهكذا فإن المصري المتحضر بالحضارة الأوربية هو الحجر الأول وليس الأخير في المجتمع المتطور).

وينصح كرومر رجال السياسة الأوربيين بالابتعاد عن كل ما من شأنه أن يعد تحقيراً للعقيدة الإسلامية ولندع هؤلاء الذين يقودون دفة الدولة على حذر يدكون في مكر الصرح الروحي للمجتمع الإسلامي فإن ازدراء العقيدة الدينية للشعب بأسره أمر على جانب كبير من الخطورة سياسياً واجتماعياً.

وهكذا رسم المعتمد البريطاني الطريق للوقوف في وجه الإسلام، كعقيدة إلى حد أن أقبل فريق من المسلمين المتأثرين بالحضارة الغربية على كل غربي وتركوا ماضيهم وتاريخهم وأصبحوا لا يكترثون لشئون دينهم الذي ولدوا فيه ولا يهابون التصريح بالإلحاد، وقد التزم الأحرار المسلمون القواعد التي جرى عليها الغرب في تقدمه ورقيه واتخاذها أساساً لما أنشأوه من إصلاحات.

وهكذا نرى كيف خطط التغريب منذ أكثر من مائة عام لتمزيق وجهة الفكر الإسلامي بإدخال تلك التيارات المدمرة، ولكن مهلاً فإن حركة اليقظة الإسلامية لم تلبث أن بزغ فجرها فواجهت هذا الخطر مواجهة حاسمة وكشفت زيف المخطط ودحضت تلك القضايا المسمومة التي أثيرت.

لقد اعمد المخطط التغريبي في هذه المرحلة - وإلى اليوم على الصحافة فظهرت المقتطف والهلال واللطائف (صروف - نمر - مكاريوس - جرجي زيدان) يدعون كل في ميدانه إلى «نظرية دارون» - الماسونية - الانحلال، ولقد وقف جمال الدين الأفغاني إزاء نظرية دارون، وكتب محمد عبده في الرد على داركور وفرح أنطون وكتب فريد وجدي في الرد على شبلي شميل، وكتب علي يوسف في الرد على تغليب اللغة الإنجليزية على العربية ورد طلعت حرب وفريد وجدي على تحرير المرأة وهاجم مصطفى صادق الرافعي وعلي يوسف دعوة لطفي السيد كما هوجم عبدالعزيز فهمي في دعوته إلى الحروف اللاتينية وهاجم رشيد رضا دعوات علي عبدالرزاق وطه حسين ومحمود عزمي ورينان.

وقد توالت المراحل حيث أخذ الفكر الصهيوني يتدسس من خلال الدراسات الجامعية: الأدب والاقتصاد والاجتماع، والنفس والأخلاق وعلا شأن المدرسة الاجتماعية الفرنسية التي قادها دوركايم وليفي بريل والتي تستمد مفاهيمها من الماركسية أساساً والتي جندت عشرات من شبابنا الذين ذهبوا إلى الغرب أمثال طه حسين وزكي مبارك ومحمود عزمي وغيرهم وكان من أخطر أعمالها الدعوة إلى.

١ ــ نظرية فرويد في الجنس.

٢ ــ نظرية دوركايم في الاجتماع.
٣ ــ نظرية تين وبرونتير في الأدب.

ومن ثم بدأت كتابات ملفقة حول الإسلام ترمي إلى إنكار المعجزات وتدعو إلى بشرية القرآن من كتاب متغربين أخذوا يكتبون عن الإسلام (طه حسين - هيكل - العقاد) فكانت لهم أخطاء بارزة لأنهم بدأو عملهم من خلال المنهج العلماني الذي تشكلت فيه ثقافتهم أساساً ومن ثم لم يستطيعوا أن يستوعبوا مفهوم الإسلام الجامع.

كانت هذه هي مرحلة الفكر الليبرالي الديمقراطي الرأسمالي الغربي.

ثم جاءت المرحلة الثالثة: مرحلة الماركسية ودعوتها إلى التفسير المادي للتاريخ وصراع الطبقات.

وهكذا واجه الفكر الإسلامي خلال هذه السنوات ثلاث تيارات متضاربة ومتعارضة، وقد سارت روافدها جميعها في طريق واحد لاحتواء الفكر الإسلامي، وقد ألقت بثقلها في أفق الفكر الإسلامي بهدف تهديم مقوماته وزلزلة قواعده وتدمير قيمه الأساسية وإن كان ذلك ما زاده في الحقيقة إلا قوة وصموداً فقد كان الفكر الإسلامي قادراً على هذه المواجهة وكانت جذوره الثابتة في أعماق التربة الإسلامية ممتدة بما تعجز أشد القوى عن اقتلاعه وكانت هذه المحاولة أشبه بمحاولة سابقة جرت للفكر الإسلامي في القرن الثالث عند ترجمة الفكر اليوناني والفارسي وغيره من ثمرات الفكر الوثني وقد واجهها علماء أقرام أمثال ابن حنبل والشافعي وابن تيمية والغزالي، وقد استطاع علماء المسلمين احتواءها وتجاوزها والكشف عن زيفها وإعلان وجهة الإسلام بمفهوم أهل السنة والجماعة.

٢ ــ لقد كانت الصحافة هي المدخل إلى التغريب وقد تولاها المارون فاقتحموها بمفاهيمهم وتعصبهم وحقدهم على الإسلام والدولة العثمانية وولائهم للاستعمار ولكل دعوات التغريب فرأيناهم منبثين في أنحاء العالم الإسلامي والغرب أديب إسحاق وسليم النقاش وسليم عنحوري وفرح وأنطون وخليل غانم وصروف، ونمر ومكاريوس وتقلا وجرجي زيدان وجورج

طنوس وخليل ثابت وكان على رأسهم جميعاً يعقوب صنوع اليهودي فكانوا عملاء الماسونية والاستعمار ودعاة اللهجة العامية والزجل والكلمات الفرنسية العامة وكان صنوع يهودي فرنسي الجنسية يدعى يعقوب روفائيل ويطلق على نفسه اسم جويدا سانو وكانت صحفه التي أصدرها في مصر وباريس بعد أن طرد دعوات مثيرة للولاء الفرنسي وكان يطلق على الخديو شيخ الحارة، وكان شبلي شميل أخطر دعاتهم الذي حمل لواء نشر مذهب دارون حين ترجمه عن أشد الدعاة له تعصباً وهو (بخنر) وكانوا يحملون في هجوم عاصف على السلطان عبدالحميد وخاصة (سليم سركيس) لأن اليهود كانوا يعدون الرأي العام لخلعه أو قتله بعد أن رفض مطلبهم في دخول فلسطين، وكان هناك من يهاجم التراث الإسلامي ويدعو إلى الماسونية وكان يوسف الخازن يدعو الطرابلسين إلى قبول حكم إيطاليا، وكان خصوم السلطان عبدالحميد (رزق الله حسون ولويس صابونحي وجبرائيل دلال وأمين الشميل) يدعون إلى إعادة الخلافة إلى العرب لهدم الخلافة القائمة وكان بطرس البستاني واليازجي يدعوان إلى انفصال العرب عن الدولة العثمانية.

وقد مضى خط الصحافة يحمل سموم التغريب كله (فهو أقرب إلى الجماهير وهم أقدر من الكتاب في غرس هذه السموم) ومن ثم أصبحت الصحافة العربية هي منطلق تيار التغريب فقد حملت لواء الدعوة المسومة: العامية، الفرعونية، الجنس، العالمية، الفرويدية ثم الماركسية أخيراً.

وكانت التبعية للمناهج الغربية واضحة في هذه القضايا، فقد كان طه حسين يؤمن بمذهب المدرسة الاجتماعية الفرنسية في التصور المادي الذي يقوم على الجبرية، وكان العقاد يقيم فكره على التصور الفلسفي والمذهب النفسي ويجري وراء مفاهيم الغربيين في البطولة بل في الألوهية من أن الإنسانية لم تعرف التوحيد إلا في الأديان الأخيرة مع أن البشرية كانت موحدة منذ أبيها آدم، وقد تأثرت العبقريات بمذهب غربي في تحليل الشخصيات وتأثر صاحب (الفتنة الكبرى) بمذهب التفسير المادي للتاريخ.

وكان حرص أمين الخولي على أقليمية الأدب والدعوة إلى ما يسمى

بالأدب المصري، وكان سلامة موسى يدعو إلى العامية والفرعونية والماركسية والتفسير المادي للتاريخ، وكانت دعوة طه حسين إلى الأدب المكشوف والفرعونية والمتوسطية وبشرية القرآن ودعا توفيق الحكيم إلى الأقليمية وكراهة العرب وقبول التبعية، ودعاوي الفن للفن، كما دعا عبدالعزيز فهمي إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية ودعا علي عبدالرزاق إلى أن الإسلام دين روحي وليس دين ودولة. وكل ما كتب عن السيرة النبوية (هيكل والعقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم) عليه تحفظات وفيه ثغرات كبيرة وتبعية للمناهج الغربية في دراسة الأعلام وامتدت هذه الخيوط جيلاً بعد جيل فرأينا من دعاة الفرعونية كمال الملاخ الذي أحال الأهرام إلى يوميات للأصنام والمقابر ورأينا دعوة يوسف إدريس إلى إحراق التراث الإسلامي ورأينا لويس عوض داعياً إلى الفرعونية والعامية ورأينا يوسف السباعي وصلاح عبدالصبور وإحسان عبدالقدوس يدعون إلى الإباحية في الشعر والنقد ورأينا أنيس منصور من دعاة الوجودية والجنس وجاء صلاح جاهين ليحل لواء العاميات والشعر الحر والكاريكاتير النازل والمهاجم للوجه الإسلامي من الحياة المعاصرة.

ولقد كان الأهرام في يوم من الأيام وكراً لدعاة التغريب وعلمان المستشرقين (توفيق الحكيم ولويس عوض وحسين فوزي وأحمد بهاء) ومن الأسف أن ينهار (الأهرام) هذا الانهيار الخطير حين يسيطر عليه هؤلاء الذين لم يكونوا يكتبون قبل سنوات قليلة، فتبدو الكتابات السياسية والفكرية ساذجة ضعيفة منهارة يبدو فيها الولاء الفكري الوافد والتبعية الغربية لكل مفاهيم الشعوبية والعلمانية رغبة في إحيائها وإعادة بثها، سذاجة في الأسلوب وتبسط في العرض مما يشعر القارىء بأنه لا يوجد وراء ذلك أي تجربة صحفية أو فكرية أو معرفة بالتاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي تنبعث منه كتابات ضحلة تافهة، ولا توجد أي خبرة عميقة ولا قراءة واسعة، أين هذا من كتاب خبراء لا يستطيعون الكتابة في الأهرام أو الصحف الكبرى، لأنهم ليسوا أولياء الثقافة الغربية العلمانية، ونجد أن السيطرة هي لأنيس منصور وموسى صبري، وبعض من لا خبرة لهم والذين وصلوا إلى مكانهم عن طرق غير طرق الأصالة، وما تزال الصحف الكبرى عشا لأعداء

الإسلام والعلمانيين والشعوبيين الذين يكرهون الإسلام ويسخرون من كل القيم العربية والإسلامية.

بل إننا لنرى هؤلاء الصحفيين الذين وصلوا سن السبعين وعدوها وهم لا يزالون يكتبون في الجنس أمثال زكي عبدالقادر ومصطفى أمين، لماذا يسرفون في كتابة هذه الصورة من الجنس التي لا يكتبها إلا المراهقين، والظاهرة الواضحة أن كل كتاب اليوميات الآن قوم سذج، تجربتهم قليلة، أقلامهم خابية، محصولهم قليل وخاصة النساء منهم، فهم أشد ضعفاً، والمحصول والكتابة توحي كلها بالسذاجة والبساطة والضعف، هل هذا هو ما يراد من إنزال الثقافة العربية الإسلامية إلى هذا المستوى من التفاهة جرياً وراء ما يذاع في أجهزة التسلية (الإذاعة والتلفزيون) أم إنه يراد حجب الأقلام القادرة عن الكتابة، أم لا يراد دفع القراء إلى ثقافة عالية القدر.

وإن أي مراجعة للصحافة العربية فإنها تكشف عن التبعية، وعن أن القائمين عليها ليسوا على قدر من الثقافة التاريخية العربية الإسلامية التي تمكنهم من رؤية الأحداث والمواقف، ولكنهم يعتمدون دائماً على صحف غربية أمثال نيوزويك والتايم، يقرأونها أسبوعياً ويترجمون منها جل ما ينشرون، ويتبعون الخط الإقليمي السياسي من خلال النشرات التي تصدرها مصلحة الاستعلامات لتأييد وجهة نظر معينة، أما الخلفيات الحقيقية التي يجب أن يحصل عليها الصحفي في فهم العالم الإسلامي والبلاد العربية وتياراتها الحالية التي تموج بها والتي ترجع إلى عصر الحروب الصليبية والاستعمار والصهيونية، فإن ذلك كله غير موجود فعلاً، ولذلك فإن هذه الكتابات تبدو تافهة فاترة لا تستطيع أن تملأ نفس القارىء بالثقافة العميقة، أو الفهم الواسع لمجريات الأمور السياسية والاجتماعية في العالم الإسلامي والبلاد العربية.

٣ ــ أما الأدب فقد استطاع أن يحصل على مكان أكبر من حجمه الحقيقي، بينما لم يستطع الفكر، وهو جماع العناصر المختلفة ومنها الأدب أن يحرز هذه المكانة، ووجدت الشخصيات الأدبية الاهتمام الكبير بينما لم تجد الشخصيات الفكرية مثل هذا الاهتمام، ولنضرب مثلاً بالمنفلوطي وفريد وجدي، وكاتب الشهرة عاملاً يستطيع أن يضفي على بعض الشخصيات

القليلة الأثر مكاناً لا يضفيه العمل الفكري نفسه، فقد كانت السياسة والحزبية والصحافة من العوامل التي تخلق الشهرة لأقل الناس إجادة ومكانة ما دام له قلم جارح ولقد كان في استطاعة أي ناعق أن يطلق عبارة مثيرة معارضة للدين أو للتقاليد والعرف العام، فتدوى باسمه أياماً طويلة فيصل إلى قدر من الشهرة لا يستطيع أن يبلغه من أمضى أربعين عاماً في الكتابة الرصينة، ومنهم من خدعه اليهود، فأسرف في الحديث عن معارضة قضية الإسلام دين ودولة على النحو الذي يكتب به البعض، موالاة لمفهوم باطل، وهناك موالاة أخرى لجميع أولئك الزنادقة والصعاليك في مفهوم جديد للشعر تحت زعامة صلاح عبدالصبور، إنهم جميعاً يخدعون تحت تأثير مطامع وأوهام بالمال والشهرة ليخرجوا عن مفهوم أمتهم وعن تراث أهليهم وعن عقيدة الحق اليقين نتيجة قصور أساسي في التربية والتعلم شهد به صلاح عبدالصبور في تأريخه لحياته وشهد به (أنيس منصور) ذلك الأفّاق الذي طوف على الجمعيات من ماسونية ودينية، ووثنية، هذه هي ثمرة هذا الجيل الذي تكون في ظل مفاهيم الشيوعية الوافدة التي اعتصمت بإحدى الأحزاب الكبرى فترة الأربعينات فأنجبت أحمد بهاء الدين ومحمود أمين العالم، وكان إحسان عبدالقدوس ونجيب محفوظ ويوسف السباعي قد سبقوا في مجال الإباحيات والكشف في القصة، تلاميذ لليهود الملثمين تحت أسماء المستشرقين ومتابعين دعوة طه حسين وسلامة موسى.

وقد كان كتاب الصهيونية هم أول من بث الأفكار الهدامة ونظريات الانحلال عن طريق الصحافة والترويج للصور المغرية بالانحراف المثيرة للغرائز والشهوات، وأنت إذا قرأت الصحافة العربية بأقلام كتابها التغريبيين والشعوبيين تحس كأن المسلمين يستسلمون للغزو الغربي وينصهرون في العالمية والأممية، وأنهم يتنازلون عن شخصيتهم رويداً رويداً، ولكن ذلك من أعمال الكذب الإعلامي لخداع الشباب المسلم ودعوتهم إلى التسليم للتبعية الغربية.

وهناك سموم المسرح والفن والرقص والغناء ومفاهيم مضللة حول الفُلكلور والدراما والمأساة وغيرها من مفاهيم وافدة تسطر كأنها حقائق وتقدم للناس كأنها علوم.

وهناك خطة حول ما تبرره الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية من الصور الفاضحة والعارية، والكلم المسمومة والقصة الجنسية، والمقال الهجومي ضد الإسلام ودعاته، هذه الصحف تدخل كل بيت، وقد تخصص كثير من هذه المجلات في نشر أدب الفراش وقضايا النجوم الفنية ومنها ما تخصص في سرد أخبار النجوم والكواكب وأخرى تتسمى ببنات جنسها وتزعم أنها تخدم قضية حواء وتحارب تعاليم الإسلام فيما يتعلق بالطلاق وتعدد الزوجات والحجاب. وترد لنا من لبنان الشبكة والموعد وما شابههما التي تقدم صوراً فاضحة وأوضاعاً صارخة، وما بين دفتيها يخدش الحياء ويهدم الأخلاق.

وعندما تطالع الصحف العربية تحس أنه لا هم لها إلا إحياء ذكرى المغنين والمغنيات والراقصين والراقصات وهناك ألبوم كامل يفتح يومياً على هذه الذكرى أو تلك، هم الفنانون فقط الذين تحتفل بهم الصحف أما أعلام الفكر والأدب والصحافة فلا يذكرون بل لقد ذهب مخرجوا السينما إلى إعادة إحياء ذلك الجانب الأسود المظلم في تاريخ مصر بإعادة كتابة حياة الراقصين والمغنين والإباحيين حتى ينشأ فيلم كامل عن حارة الدعارة التي كانت بمصر أمام النفوذ الاستعماري، وحينما ننظر نجد (ريا وسكينة) و(شفيقة القبطية) و(وداد الغازية) ماذا يراد بهذا، هل هذا هو تاريخ مصر، هل هذا هو ما يريدون أن يقدمونه إلى الشباب المسلم، حياة الغوازي والمراقص والبغاء التي كانت سبة في عصر الاحتلال، لماذا تعاد هذه الحيوات السوداء وتطرح من جديد على جيل مفرغ من أي مفاهم وطنية أو دينية، وما هذا الاهتمام بالفرعونية، ماذا يراد به، هل هذه هي حقيقة الانتماء المصري، الحقيقة أن الانتماء المصري (عربي إسلامي) أما الفرعونية فهي مرحلة تاريخية وذلك عهد قد انقطعت الروابط به منذ جاء الإسلام وهو عهد لا تاريخ له ولا ثقافة ولا لغة، لقد مات، مات، ولن تستطيعوا إحياءه مهما فعلتم أيها الشعوبيون.

ولماذا هذه السخرية بالتاريخ حين يحاول نجيب محفوظ السخرية بابن بطوطة فيكتب ما أسماه رحلة ابن فطومة، وما هذه الكلمات المدسوسة في الرحلة الرامية إلى الإباحية وإلى الحديث عن الخمر في قوله: (أتصدق حقاً أن إلهك يهمه أن تشرب خمراً أو لا تشربها)!.

٤ ــ وهناك تيار الماركسية المسموم ودعاته الذين يحرفون الكلم، أصحاب التفسير المادي للتاريخ، كتابات الحسين ثائراً والحسين شهيداً لعبدالرحمن الشرقاوي، وسليمان الحلبي لألفريد فرج، ومأساة الحلاج لصلاح عبدالصبور وصلاح الدين للشرقاوي.

لقد خضعت الصحافة لهذا التيار سنوات طويلة، وما تزال آثارهم باقية، خضعت الصحافة المصرية (أسبوعية ويومية للتيار الماركسي) وتولى أمرها بالإضافة إلى الصحف التي أصدرها الشيوعيون كالطليعة والكتاب المصري، في يولية ١٩٦٤ تولى أحمد بهاء دار الهلال وعمل معه كامل زهيري ومحمود أمين العالم، وإبراهيم عامر وقد مرّ الهلال بمرحلة الماركسية والأدب الجنسي والوجودية، (يوسف إدريس ورجاء النقاش) وكلفوا النساء بدراسات جارحة عن الجنس أو عن البغاء (سهير القلماوي في مصر وخديجة الموالي في المغرب) واستغل الماركسيون رفاعة الطهطاوي كما استغله اللبيراليون لأنه تأثر بالفكر الغربي في الدعوة إلى الوطنية بديلاً للعقيدة والمصرية في مواجهة الخلافة العثمانية والإعجاب بمظاهر الحضارة الغربية وخاصة الرقص الغربي.

وجاء دعاة النزعة العقلية القائمة على مفهوم الفلسفات المادية، نديم البيطار وجلال صادق العظم، هذان الذين ظهرا بعد النكسة مباشرة ١٩٦٧ للدعوة إلى ما سموه علمنة الذات العربية وإخراج الجيل الجديد من إطارات الدين.

وتوسع التيار العلماني ذي اللون الماركسي بعد أصحاب اللون اللبيرالي، وهو تيار قائم على كراهية الوحدة الإسلامية وإعلاء شأن القوميات واعتبار التيار القومي أعظم من الإسلام، وتفسير التاريخ الإسلامي على أنه تاريخ أقليميات (جابر الانصاري ومحمد عمارة) وأن الحروب الصليبية كانت حروباً عربية، تتعلق بأقاليم كالشام ومصر مع كراهة معلنة للدولة العثمانية، حامية الإسلام أربع قرون، وذلك لتمزيق مفهوم الجامعة الإسلامية.

ولقد كانت فكرة القومية العربية تهدف أن تكون مناقضة ومعارضة

للإسلام ومناهضة للوحدة الإسلامية، مناهضة سرية تحت ستار العروبة وهي أشبه بالفنيقية والفرعونية فهي عندهم دعوة أقليمية تعلي شأن الجنس وترى القومية عقيدة. ولقد كانت جميع الأحزاب القومية التي نشأت في بلادنا قد جعلت همها الدعوة إلى العلمانية ومحاربة الإسلام فجعلوا العلاقات بين الدول العربية تقوم على رابطة العرق وحده، المجردة من كل صلة بالعقيدة وجعلوا علاقاتهم بالدول الإسلامية كعلاقتهم بالكونغو والمكسيك والأرجنتين، وقد نشأت فكرة القومية المغلقة، وجعلوها موازية لفكرة الألوهية للتخلص من الإسلام، وقد بدأت نظم الأحزاب سياسية وانتهت ماركسية.

٥ ــ لقد كانت المحاولة تهدف إلى قطع الفكر الإسلامي المعاصر عن الفكر الإسلامي في مسيرته خلال أربع عشر قرناً ولذلك أسموه الفكر المصري أو الفكر العربي، وكذلك قطع الأدب العربي المعاصر عن الأدب العربي منذ أوائل الإسلام، وهي محاولة جرى عليها طه حسين والعقاد وهيكل والمازني، وكانت دراساتهم لابن الرومي والمعري والمتنبي وغيرهم مرتبطة بمفاهيم النقد الغربي التي قامت على أساس استعلاء العنصر، كالقول بأن عظمة ابن البرومي إنما جاءت من أصله الروماني.

لقد سقطت مؤامرة الشعر الحر بموت صلاح عبدالصبور وكان لويس عوض هو أول من أهدى عبدالصبور إمارة الشعر الحر الذي رد له الجميل بطبع كتابة المسموم مدخل إلى تاريخ اللغة العربية، بعد أن تولى مسئولية هيئة الكتاب.

٦ ــ أما كتّاب القصة في عصرنا فلم يخرجوا عن أن يكونوا تابعين لمذهب فرويد في الجنس أو مذهب ماركس في التفسير المادي والاقتصادي للعلاقات من الإقرار في المجتمع وكلاهما باطل وفاسد ومحتوى وجارياً وراء الأهواء؛ كان يوسف السباعي وإحسان عبدالقدوس ويوسف إدريس ونجيب محفوظ بعد شيخهم توفيق الحكيم غلماناً للمستشرقين واتباعاً للمناهج الوافدة، لقد كان كتابنا الكبار قناطر للفكر الغربي:

دعا طه حسين إلى فصل اللغة العربية والأدب عن الفكر الإسلامي.

دعا ساطع الحصري إلى فصل العروبة عن الإسلام.

دعا علي عبدالرزاق إلى فصل الدين عن المجتمع.

روج سلامة موسى لمفاهيم فرويد ونظرية الجنس.

روج عبدالرحمن بدوي لنظرية الوجودية وامتداده في سهيل إدريس.

روج طه حسين لنظرية الشك الفلسفي وبشرية القرآن.

روج سلامة موسى وإسماعيل مظهر لنظرية دارون.

روج طه حسين ومحمود عزمي لحضارة البحر المتوسط.

أعلن طه حسين في مصر وأحمد أغاييف في تركيا التبعية للحضارة الغربية وتبنيا الفكرة المسمومة من أن المدنية الأوربية كل لا يتجزأ، تؤخذ بمادياتها وفكرها، أي أن أساسها هو الفكر المسيحي مع أن الإسلام عقيدة ونظام اجتماعي كامل وحضارة، بينما المسيحية ليست كذلك.

وتبدو فكرة الاحتواء التلمودي واضحة في مسائل الفن والأدب والدعوة إلى وحدة الأديان.

إن ما يكتبه هؤلاء هو وجهة نظر مستمدة من ثقافة مختلطة وافدة وتجربة قليلة ولا يمكن أن يمثل منهجاً عاماً، خاصة أن هؤلاء الكتاب من ثمار المدرسة العلمانية الغربية وإنهم مع الأسف لم يطلعوا على وجهة النظر الإسلامية في مختلف أمور الاجتماع والفكر، وإن على القارىء المسلم الذي يقرأ لهم ألا ينخدع بما يقدموه، لأنه ناقص، وعليه أن يقرأ إلى جانب ذلك وجهة النظر الإسلامية، لدى كتاب (المدرسة الإسلامية) وهم يتمثلون اليوم في مجموعة من كتاب أبرار مثال الرصانة والاعتدال وعمق الإيمان بمسئوليات الأجيال.

٧ ـ من المؤامرات التي تسوقها حركة التغريب والشعوبية والغزو الثقافي (فتنة الانتقاء من التراث) التي يثيرها زكي نجيب محمود ونفر من التغريبيين.

من الذين يحكم على التراث وما هي أدواته في القياس.. لقد علمتهم الدعوة المسرفة إلى العصر وإلى أنهم أساتذة أنفسهم إلى إطلاق الرأي في جرأة

الذين لم يبلغ الرشد أو يعرف قدر الكنوز التي بين يديه فهو يبددها في سفه الوارث الجاهل.

إن التراث الإسلامي كلّ لا يتجزأ، ومقياس التفسير المادي للتاريخ لا يصلح، إن إيجابيات التراث وسلبياته ضرورة لنا لمراجعة ماضينا ورسم مستقبلنا، إنهم لا يملكون الإيمان والحافز والغيرة على تاريخ هذه الأمة وميراثها الرباني، حيث لا يقاس تاريخ الإسلام ولا تراثه على تاريخ الغرب وتراثه للفارق البعيد والعميق، نحن نؤمن بأن التراث ليس شيئاً مقدساً، التراث كالتاريخ، فيه الإيجابيات والسلبيات، ولكن العقيدة (الميراث) هي الشيء الوحيد الذي هو فوق النقد لأنه الحقيقة الخالدة الباقية.

٨ ـ إن البصر النافذ إلى تيارات الفكر الوافد يكشف عن أن هناك حرباً معلنة على الأصالة وعلى اليقظة وعلى الصحوة الإسلامية وهي تصطنع كل الوسائل والأساليب والخطط وتنتظم جميع المجالات، بهدف توهين هذه الخطوة الجبارة التي قطعها المسلمون بالإسلام على رأس القرن الخامس عشر الهجري.

ففي مجال التأليف والأدب نجد تلك الصورة الغامضة، العائدة من السربون وهي دكتورة في الإخراج المسرحي نقلت من المخرجين الفرنسيين الذين تتلمذت على أيديهم وقد أمضت أربع سنوات في باريس من أجل الدراسة!.

ونجد هؤلاء المؤلفون الذين لا يكتبون عن أفريقيا إلا عن الموسيقى والرقص والغناء الذي يرتبط بالسحر والتطبيب، وهذا الباحث في الأندلس لا يدرس إلا الخيال والشعر في نصوص الأندلس، كأنما لم يعد هناك شيء يدرس إلا ابن عربي وغزلياته الروحية وديوان ترجمان الأشواق، وهذه المفاهيم المنحرفة عن وحدة الوجود والحلول.

أما الظاهرة الخطيرة حقاً، فهي ظاهرة الكتابة عن السحر والعفاريت وشغل الناس بالجن، في فترة من أدق فترات حياتهم وحياة مجتمعهم.

وكان قد وجه مصطفى أمين إليها أنيس منصور منذ سنوات عندما

أدخل إلى مصر قضية الشلة التي كافأه عليها بأن جعله رئيساً لتحرير مجلة (الجيل) التي لم تلبث أن سقطت واليوم نرى هذه الظاهرة تتسع في صورة مقالات أسبوعية في جريدة الأخبار وفي صورة كتب تصدر، أما إسماعيل يونس فقد خاض هذه الأوحال والأقذار وجاء عبدالعاطي حامد ليكمل مشوار صاحبه وتحمل جريدة الأخبار لواء هذه المؤامرة، ونرى المرأة وهي تكتب اليوم هذا الأدب المكشوف الإباحي حتى يوصف ما تكتبه (فلانة) بأنه ثورة على كثير من تقاليد المجتمع، هذا المسافر في دمها لن يكون إلا السرطان الخطير الذي يتحرك في أفق الكتابات النسوية حاملاً مفاهيم الإباحية والجنس، والخيانة الزوجية والذي يجد من يشجعه ويدفعه ويجمعه لصب هذا الإثم كله في كتب تقرأها الفتيات فتتلوث فطرتها وتفسد طبيعتها وتظن أن الحياة ليست إلا ماخوراً كبيراً.

٩ ـ ويجري كل هذا، وأغرب منه في حوار توفيق الحكيم مع الله (جل وعلا عما يقولون علواً كبيراً) وإذا أريد لفت النظر قالوا إنها (حرية الفكر) هذه الكلمة التي أصبحت كالسيف المصلت في يد جماعة يريدون الترويج لمفاهيم لا يرضاها الإسلام، إنهم إن آمنوا بما يعتقدون فذلك لهم ولكن الترويج لذلك بين الناس وإثارة الشبهات في الصدور، واللهو بعواطف الناس ومشاعرهم فهذا ما لا يرضى عنه أحد ولقد أعجبتني كلمة الشيخ الشعراوي في هذا حيث يقول:

(إن حرية الفكر للإنسان هي أن يكون حر الفكر فيما يختاره من دين فإذا ما انتهى بقواعد فكره الجديدة، يجب أن يلتزم بقضية الدين، ولا يحتج علينا بأن ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾).

فالمقصود هو أنه لا إكراه في اعتناق الدين، أما حين يتدين فيجب أن يحترم اختيار عقله، ويلتزم بأحكام دينه.

حرية الفكر لا يأخذ بها الناس إلا في أمر أباح الشارع الحكم فيه، أما حين يأتي الشارع بنص يحتمل فكري وفكرك فهذا اجتهاد، ولذلك كان لدى

المجتهدين رضوان الله عليهم دقة في الأداء، كانوا يقولون رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب.

١٠ ــ وبعد فقد تجد التيارات الوافدة فرصتها الكاملة للتعبير عن وجهة نظرها بينما لا يجد التيار الإسلامي مثل هذه الفرصة لإحقاق الحق فيما يثار مع أن التيار الإسلامي هو التيار الأصيل: تيار الأمة منذ أربعة عشر قرناً، ذلك لأن العلمانية والماركسية قد تداولوا السيطرة على الصحافة العربية ومن ثم فإن هناك تجاهل تام للتيار الإسلامي، حيث لا تتاح له الفرصة لتصحيح المفاهيم الزائفة، فهم يبرزون مفاهيمهم على أنها تسود المنطقة مع أنها مرفوضة، وإذا عرضوا للتيار الإسلامي عرضوا له في سخرية وإقلال ونقد، ذلك لأنهم يجدون منابر مفتوحة واسعة لكلماتهم سواء في الصحافة القومية أو في الصحافة الحزبية، ما لا يجده التيار الإسلامي الذي عاش دائماً وأبداً على بصيص ضئيل من النور فالكل يحاول انتقاصه وعدم الاعتراف به وتجاهله وحجبه وهناك مؤامرة صمت بالغة نحو مفاهيمه وهناك التعتيم المتعمد على أخبار العالم الإسلامي وقضاياه في عديد من المواطن التي تواجه التحديات من القوى الأجنبية والشيوعية على السواء.

من أجل هذا كله كان لا بد من إعادة النظر في كتابات العصريين اللهم اجعلنا سلماً لأوليائك حرباً لأعدائك نحب بحبك من أحبك ونبغض ببغضك من خالفك.

(مقدمة كتاب: إعادة النظر في كتابات العصريين)

شهر لإعادة صياغة الحياة وتطهير النفس

نشرت هذه المقالة في أول عدد صدر من مجلة منبر الإسلام بعد وفاة عبدالناصر، ثم منع الكاتب من الكتابة في هذه المجلة لمدة عام كامل.

«عندما يقبل رمضان من كل عام يذكرنا بتلك القاعدة الإسلامية النفيسة البعيدة المدى في بناء الأمم والشعوب، وبناء الأفراد والنفوس.

ذلك أن الإسلام قد قدر مدى ما يحتاج إليه الفرد من وقفة بين آن وآخر في زحام الحياة لمراجعة حساباته، وإعادة النظر في خطوه وطريقه، وتعديل مساره، إذا كان قد أخطأ السبيل، وتعويض ما فاته من خير، والتحرر ما أصابه من شر.

وقد أعطى الإسلام هذه الوقفة أهمية كبرى، فركز عليها حين أقر الصلاة الجامعة كل يوم جمعة، وجعلها علاقة بين كل أسبوع وأسبوع على النظرة المتأنية من خلال صلاة الجمعة وخطبتها وذلك اللقاء في مساجد الله، وكشف عن أهمية ذلك كثير من الآيات والأحاديث.

وأبرز معاني ذلك ومفاهيمه أن الله سبحانه وتعالى يستضيف رواد بيوته في هذا اليوم فيستجيب لهم ويكشف عنهم الغم والهم، ويصرف عنهم ما يضيرهم، ويحقق لهم ما يرجون، وذلك معنى قول الحديث القدسي: «فحق على المزور أن يكرم زائره».

ويجيء رمضان كموعد للقاء أكبر من خلال العام كله، يمتد ثلاثين يوماً ليصفي حساب السنة كلها، يصفي حسابها بصدق مفهوم: معنوياً ومادياً ومن خلال النفس والجسم جميعاً.

فرمضان شهر يطبب القلوب والأجسام، ويعطي خلال أيامه ولياليه قدراً كبيراً من الأشواق الروحية التي تحول دونها رحلة الحياة السريعة العجلة التي تحول أحياناً دون وقفة تأمل، أو لمسة تدبر، فيجيء رمضان ليتيح هذه الفرصة، يتيحها بذلك الطابع الفريد الذي يغير به نهج الحياة الرتيبة، في شؤون الطعام والنوم والعمل وبما يفرضه على مناخ الحياة من معان وقيم قد تبدو مغايرة قليلة أو كثيرة لمنطلق الحياة خلال العام كله.

فهو يخرج الإنسان من عاداته وطبائعه التي ألفها، ويفرض عليها عادات أخرى، وقد يكون أبرز ما فيه ذلك الكف عن الطعام والشراب من الفجر إلى الغروب، وهو عمل مادي ولكنه يحقق أثراً في عالم الروح والنفس، ويعطي عشرات النتائج في مجال الجسم والروح جميعاً، فهو علاج طبي لبعض الأمراض. وهو علاج نفسي لبعض التغرضات، وهو توسيع لآفاق النظرة إلى الفقراء، وهو وسيلة لخلق قدرة قادرة في النفس الإنسانية على الصبر والأناة والاحتمال، هو تقبل لإرادة الله العليا وانصهار فيها. ولقد كان الصوم في مختلف الأديان والعصور «ظاهرة» طبيعية لم تتخلف، ولكنها جاءت في الإسلام على نحو أكثر تناسقاً وعمقاً؛ وجاءت فريضة من فرائض الإسلام، وجاء معها عطاؤها وأجرها، وجاء معها ما يحل منها غير القادر عليها في مرض أو سفر أو شيخوخة.

ثم كان الصوم أبعد من ذلك أثراً في تكوين النفس المسلمة الصامدة، فهو عمل له ظاهره وباطنه، فلا يعرف حقيقته إلا الله وحده، يستمد صاحبه الإيمان به من ضميره فلقد يورى به وهو لا يفارقه، وهو صوم ليس عن الجوع والعطش وحدهما، ولكنه صوم عن الكلمة النابية والتصرف الخاطىء، صوم الجوارح والنفس والعقل عن كل ما يغضب الله.

ويجيء رمضان فيفرض جواً جميلاً حنوناً على المجتمع كله، جواً معطراً بالضياء والنور والخير، حيث ينبعث التراث الإسلامي العربي من جديد على الألسنة والأقلام فيتجدد الاتصال بجوهر الإسلام، وصفحات التاريخ الباهرة، وتخرج النفوس من تصرفاتها المادية، التي أغرقتها فيها تطلعات الحضارة إلى ذلك الإيمان العميق بالله والتماس رضاه، والارتواء من تعاليمه،

وتكشف النفس المسلمة خلال ذلك كله عن جوهرها الأصيل وطبيعتها وذاتيتها، وتجد مزاجها النفسي وضميرها من خلال آي القرآن وحديث الرسول ﷺ وصورة الإسلام ممثلة في الكلمة والتاريخ والجو المحيط كله، من مآذن تعلو عليها كلمة الله، ومن صلاة التراويح الطويلة بعد العشاء، ومن نداء إلى الإفطار والسحور والفجر.

كل ذلك، من صور معنوية ومادية يجدد النفس المسلمة ويخرج بها شهراً كاملاً من ضيق الحياة المادية التي تتقطع لها الأنفاس إلى جو أكثر رحابة وأقرب إلى الإيمان والحب والبر.

ذلك هو عطاء شهر رمضان: شهر نقف فيه كل عام، لنجدد خلايا الروح والنفس والعقل جميعاً، كما نجدد فيه أيضاً خلايا الجسم بالتحرر من قيود الأطعمة والمشارب وحيث تشرق الروح وتزداد تألقاً وصفاء، وحيث تصفي تبعات العام كله، وتتأهب النفوس والقلوب والعقول لاستقبال عام جديد من العمل والبناء والجهاد يكون فيه «الإنسان» أكثر إنسانية وأعمق إيماناً بربه، وأكبر قدرة على النضال وبناء الحياة على قاعدة الحق والعدل.

ونحن حين يجيء رمضان نلتمس مواقف ذلك النبي العظيم الكريم وشمائله في هذا الشهر الكريم لنرى كيف كان يواجه أضواء رمضان.

ولرمضان في نفسه أثر عميق، حيث يرتبط بوقائع حياته في أعظم أحداثها.

ففي رمضان نزل عليه جبريل بالوحي والدعوة لأول مرة في غار حراء، فرجع يرجف إلى أهله وقد جاءه الناموس الأكبر بدعوة الحق على رأس الأربعين من عمره، ومنذ ذلك اليوم ارتبط محمد بالإسلام رسولاً ونبياً، ونزلت عليه آي القرآن وانفتح ذلك الخط العميق في حياة رسول الله ﷺ وفي حياة الجزيرة العربية وفي حياة المسلمين جميعاً، إنه ليذكر تلك الليلة المضيئة وقد جاءه جبريل يحمل أول آي القرآن الكريم: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾.

وفي رمضان كانت موقعة بدر الكبرى التي ركزت على طريق الإسلام ذلك الضوء الكاشف.

وفي رمضان كان فتح مكة: تلك الموقعة الكبرى، حين نصر الله الحق نصراً مؤزراً، وأصبحت الكعبة لله وحده، وقد تحطمت من حولها الأصنام وذلت تلك القوى الخصيمة المعارضة لقوة الإسلام وعظمته. وفي رمضان كان جبريل يلقى النبي فيدارسه القرآن، وفي رمضان الأخير من حياة الرسول ﷺ راجع النبي آي القرآن مع جبريل مراجعة خاتمة ما يزال منذ ذلك الوقت وإلى اليوم محفوظاً قد حماه الحق من كل زيف: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾.

ولرمضان في التاريخ الإسلامي صفحات باهرة، وله في تراث الأدب والفقه صفحات وصفحات، فكم قال فيه الشعراء، وكم حرر فيه الفقهاء من أحكام وأجابوا على تساؤلات.

ولقد سجل القرآن الكريم في آيه العظيم مكان رمضان وفرضيته:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾. وقوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾. وقال الرسول: «إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب جهنم وصفدت الشياطين ونادى مناد: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر».

وقال الرسول: «قد جاءكم شهر رمضان افترض الله عليكم صيامه تفتح فيه أبواب الجنة وتغلق فيه أبواب الجحيم وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر».

ولما كان لرمضان هذه المكانة الواضحة بين قواعد الإسلام ونظمه فإن الحق تبارك وتعالى قد خصه بين العبادات بجزاء مماثل: يقول الحديث فيما

رواه البخاري ومسلم: «كل عمل ابن آدم يضاعف: الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف».

قال الله تعالى: «إلا الصوم فإنه ليس وأنا أجزي به».

ويصور الإمام الشافعي الصوم على المعنى الأكمل حين يقول:

«أحب للصائم الزيادة بالجود في شهر رمضان، اقتداء برسول الله ﷺ ولحاجة الناس فيه إلى مصالحهم، ولتشاغل كثير منهم فيه بالعبادة عن مكاسبهم».

وتكاد تكون أكبر القرب إلى الله في رمضان هي قراءة القرآن وتأمله والاتصال بمضامينه اتصالاً نفسياً وعقلياً عميقاً. وكانت تلك أظهر أعمال رسول الله في شهر رمضان.

وفي الحديث القدسي: «يقول الله عز وجل: كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به والصيام جنة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني صائم، إني صائم والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره وإذا لقي ربه فرح بصومه» وبعد فرمضان شهر لإعادة صياغة الحياة وتطهير النفس.

إسلامية معركة فلسطين: علامة على الطريق الصحيح

حفلت وقائع التاريخ الإسلامي بالمؤامرات التي وجهت إلى الأمة الإسلامية وكان الغرب هو المعتدي دائماً الذي يدفع قواته إلى الانقضاض وكان الانقضاض الأول بالاشتراك مع التتار، في إسقاط الخلافة العباسية، وجاء الانقضاض الثاني بحملات صليبية على فلسطين ومصر امتدت قرنين من الزمان وجاء الانقضاض الثالث من الفرنجة على الجزائر والمغرب وانطلقت قوات البرتغال وإسبانيا إلى الخليج العربي وجاء الانقضاض الرابع ممثلاً في الحملة الاستعمارية بقيادة فرنسا وانجلترا ثم جاء الانقضاض الخامس ممثلاً في الحملة الصهيونية على أرض فلسطين.

وهو الحدث الذي يواجه العالم الإسلامي منذ أربعين عاماً في تآمر مشترك بين الدول الكبرى العالمية. وجاء مخطط الاستعمار ليقطع أوصال الإسلام وأمة الإسلام ومحاولة تقسيم المسلمين إلى شعوب شتى ينتمي كل منها إلى أرض وجنسية وقومية وإقليم وطائفة وإثارة روح الصراع بينها حتى لا تلتقي على وحدة جامعة.

وأخطر ما في ذلك كله ما يجري اليوم من محاولة تمزيق الدول العربية إلى دويلات حيث لا تزال إسرائيل ووجودها في قلب الأمة الإسلامية هو الخطر الأكبر والمعوق لحركة الأمة الإسلامية نحو وحدتها ونحو تطبيق منهجها وتبليغ رسالتها مما يتطلب تعبئة القوى وبناء المقاتلين والمجاهدين وتحويل حركة التحرير من قومية إلى إسلامية تستمد منهجها من منطلق القرآن الذي رسم للمسلمين قوانين الجهاد والمرابطة، والإعداد والنصر.

ولا ريب أن إسلامية معركة فلسطين التي تبدو اليوم في الأفق هي

علامة على الطريق الصحيح بعد أربعين عاماً من اصطناع الغرب في مقاومته ولا ريب أن التحدي الصهيوني هو عامل أساسي في إعادة بناء وحدة الأمة الإسلامية.

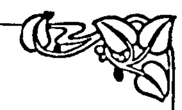
ومن هنا فقد كان علينا أن نقرر أن الفكرة العربية ليست هدفاً نهائياً بل هي مرحلة نحو الوحدة الإسلامية ويجب أن تكون كذلك، بعد التجربة المريرة التي مرت بها بعض أقطار العرب وكيف فشل مفهوم القومية في تحقيق الوحدة العربية لأنه لم يبدأ من طريق الأصالة، فلقد ظن كثيرون أن الوحدة العربية غاية في ذاتها بينما هي في حقيقة الأمر مرحلة على الطريق: طريق وحدة الأمة الإسلامية، ومن ثم فقد كانت كل المحاولات التي قادها دعاة القومية بمفهوم الغرب العلماني وبمضمونها الماركسي معوقاً لهذه الوحدة عن أن تتخذ طريقها الصحيح.

ولقد دل تاريخ الشرق الأدنى الحديث - كما جاء في كتابات بعض المراقبين وفي مقدمتهم ألفريد كانتول سميث - على أن القومية المجردة ليست هي القاعدة الملائمة للنهوض والبناء، وأنه ما لم يكن المثل الأعلى إسلامياً على وجه من الوجوه فلن تثمر الجهود البتة.

ولقد رسم دعاة اليقظة الإسلامية تكامل المراحل بين الحلقات الثلاث الوطنية والعروبة والإسلام وتدافعها لتسلم نفسها إلى الوحدة الجامعة.

ولقد كان العرب قبل الإسلام قبائل متصارعة ولم يجمعهم إلا الإسلام، وهم اليوم يمرون بنفس التجربة، لقد دفعتهم القومية والإقليمية إلى الصراع وألحقت بعضهم بالغرب وبعضهم بالشرق ولن يردهم إلى الوحدة الجامعة إلا الإسلام الذي جمع المسلمين تحت لواء واحد في كل أزمة تمر بهم أو محنة تحتويهم.

وفلسطين لا تعود إلا بأيدي متوضئة ترفع القرآن مع السلاح، وتؤمن بوحدة الأمة الإسلامية وتحطم كل القيود والسدود التي رسمها النفوذ الأجنبي حتى لا يتمكن المسلمون من الالتقاء الحقيقي حول لا إله إلا الله والله غالب على أمره ولو كره الكافرون.



الفصل السابع

مواجهة الفكر الغربي

أكتب هذا ونحن على أبواب القرن الخامس عشر الهجري.

آن الأوان لأن نواجه الفكر الغربي مواجهة صريحة وأن نحدد موقفنا منه تحديداً حاسماً وفاصلاً انطلاقاً نحو مرحلة المد المنطلق للفكر الإسلامي إلى آفاق الأصالة والعراقة، وتأكيداً للذات وتثبيتاً لطابعها وقيمها وانحساراً لموجة استعلاء الغريب والوافد التي تقترب الآن من مرحلة الجذر الكامل. وليس من ريب أن يكون فجر القرن الخامس عشر هو قمة هذه المواجهة الصريحة التي بدأت منذ وقت بعيد والتي يجب أن تصل إلى غايتها خروجاً من التبعية ودخولاً إلى عصر الرشد الفكري بعد أن استمرت أكثر من مائة عام.

إن الفكر الإسلامي اليوم يواجه مجموعة من القوى الخارجية الضاغطة عليه من أجل إزالة طابعه وتشويه ذاتيته وصهره في بوتقة الأممية العالمية واحتوائه داخل تيارات الفكر الغربي، وإن كانت هذه القوى تلبس ثوباً عربياً وتحاول أن تدعي أنها غيورة على هذه الأمة راغبة في استنهاضها بينما هي لا ترى لهذا الاستنهاض سبيلاً إلا التبعية لمناهج الفكر الغربي ومذاهبه، مؤمنة بأن هذا وحده هو الطريق الموصل إلى إنهاض هذه الأمة، سواء أكانت هذه الأمة هي وطن من الأوطان أو الأمة العربية نفسها وأنه لا طريق غيره.

ومن ذلك إنكار للميراث الإسلامي وتجاهل للتراث واستهانه باللغة والتاريخ وتعمل هذه القوى التي تحتضن مفاهيم الفكر الغربي وفلسفاته وتحاول أن تصبها وتصهرها في بوتقة الفكر الإسلامي في عدد من المجالات:

أولاً: مجال الأدب والشعر والقصة والمسرحية والفن.

وهو من أخطر الميادين كلها لأنه يتصل بالنفس والجنان والوجدان وتجد محاربة عن طريق الكلم المكتوب والمسموع. ولذلك فإن المفاهيم التي يمكن بثها عن هذا الطريق تشكل تأثيراً بعيد المدى في النفس والعقل وخاصة فيما يتصل بالشباب الذي لم تتكون لديه بعد منطقة حصانة كافية ولا أرضية إسلامية وافية يمكنه من الفهم والاستيعاب وتحليل ما يعرض وقبول الصالح منه ورفض الفاسد والضار.

وفي هذا المجال تعمل مختلف القوى:

القوى المادية والمتسترة بالمذاهب المادية من أجل ضرب قيم الإسلام، والوجوديين والماركسيين ودعاة التغريب والشعوبية ودعاة الإباحية والهدامين من كل نوع وملة.

(ثانياً): مجال الدراسات الإنسانية: كالنفس والأخلاق والاجتماع والدراسات الفلسفية، وهي جميعها تستمد مادتها من النظريات الغربية سواء منها الليبرالية أم الماركسية وكلها تعتمد على أنها مادة علمية أشبه بالمسلمات ليس فيها من أي وجه من الوجوه، وجهة نظر عربية أو إسلامية بينما يوجد للفكر الإسلامي مفاهيم وقيم أساسية في مختلف هذه المجالات.

(ثالثاً): مجال الدراسات السياسية والاقتصادية والقانونية، وكلها تقوم على أساس النظريات الاقتصادية الغربية والماركسية ومفاهيم العلوم السياسية الأوربية والغربية من ديمقراطية وليبرالية وكذلك القانون الغربي الوضعي وتعرض هذه المفاهيم كلها على أنها علوم تامة، ومسلمات أساسية، يجري تطبيقها في الحياة العامة عن طريق المصرف والمحكمة ونظم الحكم بينما هي تختلف اختلافاً شديداً مع مفهوم الإسلام للسياسة والاقتصاد والقانون، وبينما للإسلام منهج حياة ونظام مجتمع متكامل جامع.

وهكذا نجد أن الفكر الغربي يكاد يسيطر سيطرة كاملة على مختلف وجوه العلوم والثقافات والمناهج بحيث لا يسمح للمفهوم الإسلامي بأن يقدم

وجهة نظره في أمر ما من أمور الحياة وذلك وفق تصور خاطىء بأن ما يسمى بالتصور الإسلامي لمختلف هذه الأمور إنما هو بمثابة «الدين» المعزول عن الحياة والمجتمع والذي قد تطلب وجهة نظره حيناً بعد حين فيما يسمى «رأي الدين» وليس على أنه مقطع الأمر في شئون الحياة.

وهذه القوى التي تشرف على الثقافة والفكر والفن والأدب وعلى الإذاعة والإذاعة المرئية والصحافة ودراسات الجامعات هؤلاء قد تعلموا تعليماً غربياً فهم لا يرون الأمور إلا بمقياس غربي، أما وجهة النظر العامة فهي إطلاق الرغبات وإعطاء الناس ما يسليهم ويشغلهم ويرضي مطامحهم في حدود الرغبات الصغيرة والتطلعات اليسيرة، وتجري البرامج كلها حول الأغنية التي تقوم على العاطفة أو المسرحية التي تقوم على الحب من خلال حوار رديء متجهم، سطحي، تستعمل فيه لغة الشوارع وعبارات الهجاء التي تدور في الحواري وبين قوم تغلب عليهم طوابع الحدة والخصومة والأنانية، كل هذا يقدم للقارىء والسامع يوماً بعد يوم، في قصة مكتوبة أو تمثيلية مسموعة أو أغنية مذاعة.

ومن خلال هذه المسرحيات تقدم أفكار غير ناضجة وغير صحيحة وغير أصيلة أصالة الأمم الراقية المتطلعة إلى العلياء والخلق الكريم، وإنما يدار الحوار حول خلافات الناس بأسلوب التقاتل والكراهية والسب ويجري تناول الأمور بين الزوجة والزوج بأسلوب فيه عنف من الزوجة وفيه تآمر من الرجل أو العكس، وليس هذا هو الأسلوب الصحيح، ومن شأن هذا أن ينقل إلى الناس أسلوباً للتعامل في حياتهم العامة جد رديء وهي توجه الشباب وجهة فاسدة وتضع في أذهان الأبناء رجالاً ونساءً معلومات غير صحيحة في مجال العلاقات بين الرجل والمرأة، سواء في مجال العمل أو الحياة أو الزواج أو غيره، مما يعين على مزيد من الاضطراب. أما المشرفون على هذه الأعمال التي تقوم في مجال الصحافة أو الإذاعة أو التلفاز، فهم مدفوعون بفهم غير صحيح لواقع الحياة، فهم يقدمون أسوأ الصور لا أحسنها، ويقدمون النماذج السيئة بين عشرات من النماذج الطيبة التي لا يقدمونها.

ومن وراء ذلك مفهوم المسرحية الغربية المسيحية، القائمة على الصراع بين الإنسان والقوى العليا، وبين الخير والشر مع غلبة الشر وهو مفهوم مأساوي رديء لا يعرفه المجتمع الإسلامي.

ومن هنا نجد أن ما يقدم في الصحافة والإذاعة والمسرح والتلفاز غاية في البعد عن الواقع وغاية في البعد عن تغيير المجتمع من وضعه إلى وضع أحسن بل العكس.

وتسيطر على هذه الفنون كلها مفاهيم فرويد في النفس وسارتر في الوجود الإنساني، وماركس في اللقمة والفلسفة المادية في نظرتها إلى الحياة. وكل ذلك يختلف اختلافاً شديداً عن مفهوم المجتمع الإسلامي نفسه الذي شكله الإسلام.

ولكنها محاولة خطيرة لنقل المجتمع كله إلى التبعية والاحتواء الغربي خضوعاً لمذاهب ونظريات في النفس والأخلاق والاجتماع والفن ليست إسلامية أساساً وليست نابعة من النفس الإسلامية.

وبينما نجد هذه القوى مسيطرة تماماً ومالكة لكل إرادتها في تقديم هذه المادة نجد العاملين في الحقل الإسلامي ضعفاء لا سلطان لهم وإذا قُدموا في وسط هذا الركام الضخم قدموا على نحو غير قليل من الذلة والضعف وما كان لكلماتهم خلال دقائق أي أثر نفسي بالنسبة لساعات طويلة من ذلك البث الخطير المتدافع القائم على معارضة كل أسباب الأخلاق والخير ومن شأن ذلك أنه يحدث أثراً خطيراً فيه كل القلق والتمزق مما يبعد الإنسان عن جو السماحة والطمأنينة والسكينة الذي تنشره حين نفكر في الاستمتاع بالقراءة أو المشاهدة لهذا البرنامج أو تلك القصة أو ذلك المقال!

أما العاملون في حقل الإسلام فهم قلة ومعسكرهم مبعد عن الأضواء، ومن يتقدمون إلى هذه الميادين لا يستطيعون أن يقولوا كل شيء، وهم في الأغلب يروجون للأوضاع الاحتمالية القائمة سواء في مجال الربا في الاقتصاد أو التحلل من اللباس أو انحراف الشباب بدعوى وأخرى وثالثة ومنهم وعاظ السلاطين والرجال الذين يبررون المواقف.

وهكذا نجد أن صوت الإسلام مبعد عن الصحافة والإذاعة والتلفاز إلا في فترات قليلة، وكذلك هو مبعد عن مجال التعليم والجامعة إلا خارج الدراسات الرسمية، في محاضرات قليلة أو كتب صغيرة، أو مجلات لا يسمع بها مما يبدو معه أن التيار الغربي هو التيار الغالب المكتسح سواء في مجال الفكر والثقافة والصحافة والمسرح والفن والإذاعة أم في مجال المجتمع الذي يتجه في سرعة شديدة إلى التحلل الاجتماعي وانهيار القيم في الأسرة، وخاصة في موقف المرأة العاملة من اللباس ومن الرابطة الاجتماعية، وفي مجال الاقتصاد والتعامل بالربا، وفي مجال الاندفاع نحو إرضاء الغرائز وما يتصل بانفساح المجال إليها. وأخطر من هذا كله «انعدام» فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وتحمل الصحف والمجلات كل يوم الأحداث التي تقع داخل المجتمع والتي تصور إلى أي حد فسدت العلاقة بين الآباء والأبناء وبين الزوج والزوجة وبين الناس في المجتمع وهي أحداث تغني عن كل تعليق فهي صورة حقيقية للآثار الناتجة عن إطلاق الجنس والعنف في المسرحيات والأفلام، وفي القصص والصحف، وقصور رعاية المسجد، أو توصية الآباء، أو أسوة الأساتذة والمعلمين.

هذا المجتمع: ماذا يكون الموقف منه، هل نقبله أم نرفضه، وكيف نتعامل معه؟ نحن نقبل بالمجتمع وبتفاهم معه ونتطلع إلى إصلاحه ورده إلى الحق. الواقع أن ما نتطلع إليه الآن أن نكشف زيف هذه الأوضاع وفسادها ومدى خطرها على كيان هذه الأمة، وإن الأمل في أن تستعيد هذه الأمة قوتها ومكانتها متوقف إلى حد كبير على تصحيح مسيرتها والتخلص من الانحرافات والسلبيات التي انساقت إليها خلال فترة النصف قرن الماضي والذي تفجرت فيه الأمور تفجراً شديداً خاصة بعد أن اتصلت بلاد المسلمين بمذاهب الماركسية والمادية. صحيح أنها قد حيل بينها وبين تطبيق نظام الإسلام منذ أوائل الاحتلال وإن الاستعمار الغربي الذي جاء خلفاً للحملات الصليبية ووريثاً لها والذي أعلن منذ دخل القدس أن الحروب الصليبية قد انتهت وأن

الغرب قد نال ثأره من الإسلام بعد ثمانية قرون، وإن هذا جاء بناء على خطة محكمة جهر بها لويس التاسع حين أسر في المنصورة وحين استعرض نتائج الحروب الصليبية التي انتهت بهزيمة الغرب وانسحابه كسيراً ذليلاً، حين قال أن الحرب مع المسلمين هي حرب الكلمة وأنه لا سبيل إلى السيطرة على بلاد المسلمين إلا بالسيطرة على فكرهم ونزع القوى الفاعلة فيه وفي مقدمتها الجهاد وكان هذا هو ما جربه الغرب في هذه الجولة الضخمة التي نعيش الآن في نهايتها السياسية والعسكرية، وقد استطاع أن يورث نفوذه مجموعات ضخمة من القوى المسيطرة على القانون والعرف ونظام الحكم وأساليب العيش وفي مقدمتها أدوات الفكر والثقافة والتعليم وبعد أن استطاع تكبيل المفهوم الإسلامي وإزاحته من الطريق.

وفرض المفهوم الغربي على السياسة والاقتصاد والاجتماع والفن والتربية وخلق أجيال متصلة متوالية تعمل في سبيل تأكيد هذه الأوضاع باعتبارها أوضاع عصرية وعالمية وإنسانية وإن العودة إلى الإسلام هو عودة إلى الصحراء والرمال ورجوعاً إلى العصور المظلمة.

وليس الأمر كذلك في الحقيقة لأن الإسلام ليس شكلاً معيناً من النظام ولكنه جوهر يستطيع أن يتشكل في كل عصر على النحو الذي يجري معه شريطة ألا يتنازل عن أصوله الثابتة وحدوده الواضحة وضوابطه التي لا تتغير مع الزمان أو البيئات. ومن ثم فإن التماس منهج الإسلام اليوم لا يعد بأي حال من الأحوال رجعة إلى الوراء أو عودة إلى الصحراء ولكنه التماساً للمنابع الأصلية التي قدمتها السماء ورسالات النبوة إلى البشرية فكانت له نوراً وهدى، ثم انحرف بها القائمون عليها ووضعوا فيها أهواءهم ومطامعهم وعنصريتهم فإذا ما عادت الإنسانية مرة أخرى إلى ضياء الحق الذي لا ينطفىء وإلى نور الله القائم ما قامت السموات والأرض فإن ذلك ليس تأخراً ولا جموداً ولا رجعية وإنما هو التماس الحقيقة وكسر كل قيود الجمود والتقليد والضعف والتخلف وصولاً إلى الضوء الساطع والنور الصحيح والحقيقة التي عجزت البشرية سنوات طويلة في التعرف إليها جهلاً وغروراً.

مصدران لهذه الصدارة في مجال الثقافة والصحافة والسينما والمسرح والإذاعة هي معاهد الإرساليات المبثوثة في بلادنا والبعثات الصادرة إلى إيطاليا وفرنسا وموسكو وبرلين وغيرها وفي كل منها يتلقف المستشرقون وكتاب الغرب من يرد إليهم من أبناء المسلمين والعرب ليوجهوهم وجهة غربية خالصة، ولما كان هؤلاء جميعاً حتى بعض الأزهريين القدامى لم تكن لهم أرضية إسلامية صحيحة فقد أمكن احتواءهم واستيعابهم.

(وفي المقارنة هناك فارق بين طه حسين وزكي مبارك كأزهريين وبين أمين المصري والدكتور محمد عبدالله دراز).

فإذا عادوا من معاهد المسرح والفن عادوا محملين بأفكار ودعوات ووجهات نظر خطيرة (وأخطر هؤلاء جميعاً مخرجو المسرح والتمثيليات) حيث يجدوا بيئات صالحة وحضانة كافية لهم ولأفكارهم ودعوات أتباعهم تنساب في الكتابات والمسرحيات والقصة والفن والشعر وكلها تستقى من نظريات غربية مشهورة:

كالتحليل النفسي لفرويد والنظرية الاجتماعية لدوركايم والفلسفة المادية والوجودية وكلها تنبث في القصة والمسرحية والرواية بصفة عامة حيث هي بالإضافة إلى الشعر والأغاني وسائر الفنون منطلقات التأثير في النفس العربية الإسلامية.

أما الإرساليات فقد سيطرت منذ وقت بعيد وفرضت مناهج الاستشراق على دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية وغيرها ومنها أخذت مناهج المدارس الوطنية في ظل الاستعمار ولا تزال بقايا ذلك كله قائمة ومستمرة.

فأساتذة الجامعات تابعون للنظريات الغربية: ماركسية، فرويدية، وضعية، ليبرالية، وجودية على تفاوت وخلاف لا أثر له في اتحاد الأساس والمصدر وهو المادية الخالصة التي تنكر الدين والوحي والنبوة وتعارض في الأسس والقيم التي يقوم عليها الفكر الإسلامي أساساً.

ورجال الصحافة خاضعون للتيارات المسيطرة: قومية وديمقراطية واشتراكية وماركسية فهم يعتبرون أنفسهم خدماً لكل ما يرضي ويسلي ويتطلع إليه الناس من أهواء ورغبات ومطامع دون تقدير لمدى أثر ذلك كله على الأفراد أو المجتمعات ذلك لأنهم يطمحون إلى الربح واتساع التوزيع ويرون أن الصحافة تجارة تخضع للإعلان ولأهواء الجماهير.

وهي تابعة للأذواق وليست موجهة لها.

ومن هنا فإن الصحافة تقدم الجريمة وتقدم القصة الجنسية وتقدم الصورة العارية وتقدم الفكاهة المكشوفة وتقدم الأهواء المختلفة للكتاب الغربيين والفلاسفة والماجنين والمسرفين دون تقدير لأي عامل آخر غير عامل الكسب ويكون الشباب الغر الذي ليس له قدر كاف من الفهم والحكم على الأشياء ضحية هذا الحصاد الضخم المختلف المختلط.

ورجال الثقافة خليط من أساتذة الجامعات ورجال الصحافة فهم غواة لعرض كل مثير وجديد.

أما رجال القانون فهم تابعون للقانون الغربي لأنهم نشأوا في حماة ولذلك فهم يؤمنون به ويرونه وحده الصالح للمجتمعات ويهزون أكتافهم إزاء أحكام الإسلام من قصاص وعقوبات إلا قليلاً ممن عصم الله.

أما علماء الدين فهم في طبقتهم العليا يسايرون التيارات العامة حتى يكسبون مجالسهم بجوار غيرهم من المدنيين فلا يعترضون على أوضاع المجتمع ولا على القوانين المدنية ولا على التيارات الفكرية المختلفة إلا إذا كانت تتعارض مع السياسة العامة، وقد كانوا في وقت من الأوقات يروجون للديمقراطية وللاشتراكية ولا يرون بأساً في أن يجدوا من الآيات القرآنية والأحاديث ما يعين على القول بأن الإسلام ديمقراطية واشتراكية. وقليل منهم من يواجه أخطار المجتمع كالربا والفساد الخلقي وفتنة المرأة والبيت، والمرأة والعمل، والمرأة والملابس ولكن هؤلاء قلة ليس لهم مكان صدارة رسمي ولا تقال كلماتهم إلا في أوقات متفاوتة وبرامج قصيرة ومجلات غير مشهورة.

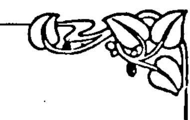
أما المعلمين فإنهم قدوة سيئة لتلاميذهم في مختلف فروع التعلم لأنهم لا يرون أنهم مربون بقدر ما هم معلمون. وتشغلهم أمورهم الخاصة وبرامجهم العامة ودروسهم الخصوصية عن التوجيه والإرشاد وبناء الشباب على مفاهيم الإسلام بل إنهم يخشون الخروج على النهج حتى لا يضاروا، والإسلام عندهم مادة دينية قاصرة على بعض آيات من القرآن وبضع أحاديث وهي مادة لا يمتحن فيها ولكنها يمكن أن تحول حصتها في آخر العام لدراسة اللغة العربية.

ومدرسو التاريخ في الأغلب ليسوا مسلمين وهم يدرسون مادة الخلفاء الراشدين والعصر الأموي والعصر العباسي وفق منهج مسموم مليء بالثغرات وأحداث الخلاف والصراع بعيداً عن عطاء الحضارة الإسلامية الضخم الوافر.

ويحاول أصحاب كل نحلة أن يسلكوا الناس في طريقهم، وأبرز هؤلاء في الفترة السابقة هم الماركسيون الذين سيطروا على الصحافة والإعلام، والتعليم وأمضوا سنوات طويلة يوجهون الحياة الفكرية وجهة ماركسية مادية في مختلف المجالات يغرون الشباب بكل سبل الإغراء، وقد حصلوا على عليا المناصب في دور الصحف وفي الجامعات وفي المسرح والسينما والإذاعة، ولقد انضم إليهم وانضوى فيهم جماعة من خصوم الإسلام وخصوم اللغة العربية الذين أرادوا الكيد للإسلام والعرب عن طريق المذهب الماركسي لأنهم يعجزون عن الكيد السافر أو لأنهم يجدوا فيه حماية ورداءاً لهم، وكان لهؤلاء مخططهم الأشبه بمخطط البروتوكولات والسيطرة على فلسطين وقد كشفت محاولاتهم هذه ومخططاتهم تلك ولكنهم تركوا آثاراً خطيرة خاصة في مجال الإذاعة التي سيطروا عليها تماماً ومجال الصحافة ولقد تدافع هذا التيار حتى قضى على المجلات ذات الأصالة لأنها كانت تقاوم وتكشف وتعري ذلك الجانب من دعاة الأصالة فلم يعدلهم موئل إلا في ظل بعض المجلات الإسلامية التي لم تكن لتسمح بنشر كل شيء لأنها ما كانت تخرج على الطريق المرسوم.

وإذا كان هذا كله قد تغير بعد عام ١٩٧٠ حثيثاً فإنه لم يحقق الأثر المرتجى، خاصة بعد جولة ١٩٧٤ التي كانت ذات طابع إسلامي والتي كان يمكن أن تكون منطلقاً نحو الأصالة. اختفى من رأس الصورة الماركسيون ولكن الذين حلوا مكانهم لم يكونوا إلا ذلك الجيل القديم من الوجوديين ودعاة الأدب المكشوف والقصة الجنسية والشعر الماجن (إحسان، صالح جودت، مصطفى أمين، أنيس منصور).

خفت صوت الماركسية ولكن صوت الفكر المادي والوجودي وآثار المدرسة الاجتماعية ومخلفات الفكر التلمودي مازالت حية تتحرك ولما كانت لا تتمثل في مؤسسات ظاهرة فإنها استطاعت أن تسري سريان السم وقد اختفى ما أطلق عليه اسم الماركسية، ولكن لم يختفِ ما يطلق عليه اسم الماسونية، أو الفكر المادي أو الإلحادي أو الإباحي وكله من صنيع الصهيونية التلمودية المختفي وراء المذاهب والمناهج والدعوات والإيديولوجيات والنظريات المبثوثة هنا وهناك في مناهج الدراسات وفي الصحافة وفي الجامعات وما يزال جانب الأدب والفن والقصة ممثلاً في المسرحيات والشعر وغيره يشكل خطراً كبيراً ومن ورائه قوى كثيرة تعمل.



الفصل الثامن

نقطة البدء والختام

تجيء هذه المقابلة في أوائل العام الثاني من القرن الخامس الهجري: أي بعد خمسين سنة كاملة من اليوم الذي بدأت أحمل فيه القلم للكتابة. ولكن شتان ما بين البدء والختام فهي جولة طويلة خلال خمسة عقود نحمد الله أنها بعد فترة من التهويم سرعان ما عرفت طريقها فأصبح هذا القلم منذ بدأت مرحلة الوعي خالصاً لله تبارك وتعالى فقد تكشف لي في هذا السن الباكر وفي هذا العام بالذات ١٣٥١ هـ الموافق ١٩٣٢ م وأنا بعد في السادسة عشرة تلك الخطة المدبرة لتغريب الشرق والإسلام والعرب، ولعل هذا هو موقع التحدي في حياتي كلها، ومن هذه النقطة كانت وجهتي التي توجهت إليها وأعيش لها فقبل أن أعرف حقيقة مفهوم الإسلام بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع، كنت قد قرأت كتاب هاملتون جب (وجهة الإسلام) ملخصاً على صفحات السياسة الأسبوعية بقلم الدكتور محمد حسنين هيكل وفهمت هذا الخطر الزاحف، خطر تغريب الإسلام والشرق والعرب ومنذ ذلك الوقت لم تغب عني لحظة هذه القضية الكبرى التي شغلتني من بعد شغلاً جماً، خلال هذه الرحلة الشاقة الطويلة التي لم أتوقف خلالها عن كشف الشبهات والرد على الاتهامات وقد خضت هذه المرحلة الطويلة فلم أدع نصاً أو كتاباً أو شبهة - مما وقع تحت يدي - ومما وجه إلى الإسلام ورسوله وتاريخه أو إلى اللغة العربية إلا حاصرتها وكشفت زيفها وأثبت وجه الحق فيها.

نعم هو طريق طويل على هدف واضح ولكن يتميز في بعض مراحله بالقوة أو الضعف.

وربما تكشفت لي أخطاء جريت ورائها ثمة، ثم عدت لأصححها وهي أخطاء جاءت نتيجة نقص العلم بأبعاد الأمور، وخاصة فيما يتعلق بتاريخ بعض الذين أبرزتهم مدرسة التغريب من الشعوبيين والفلاسفة القدامى والغربيين وما يتعلق بشخصيات الأدب والتاريخ وبالدولة العثمانية والسلطان عبدالحميد.

كنت أعرف الاستعمار ومخططاته في السيطرة والاحتواء، ولكن أحداً لم يكن قبل هاملتون جب قد كشف عن هذه المؤامرة الخطيرة على هذا النحو حين قال إن الغرب يدبر منذ وقت بعيد محاولة لتغريب الأمة الإسلامية وذلك باحتوائها وإذابتها في أتون الأممية والعالمية عن طريق تطبيق القانون الوضعي واقتصاد الربا ومناهج التعليم الغربية والعلمانية وذلك حتى تفقد هذه الأمة ذاتيتها وكيانها الذي صنعه الإسلام.

كان هذا المعنى جديداً بالنسبة لجيلنا الناشىء إذ ذاك، وحتى بالنسبة للذين كنا نقرأ لهم ولا نفهم الوجهة أو الهدف مما يلقون من سموم أمثال طه حسين وسلامة موسى ومحمود عزمي وجيل جاء بعدهم، ثم جاءت مؤامرة التبشير الغربي في المعاهد التعليمية كاشفة عن هذا الخطر، وكان الحديث عن الاستشراق وأخطاره مازال جديداً لم يكشف بعد على هذه الصورة، ومن ثم بدأت مع هذا الخيط الرفيع وهداني الحق تبارك وتعالى إلى طريق الفهم والوجهة، حين فهمت الإسلام فهماً صحيحاً، ومن ثم وهبت قلمي منذ ذلك الوقت لهذا الخطر وهذا التحدي في مختلف مجالات الفكر الإسلامي فلم أدع مجالاً من مجالات الأدب والفلسفة والتاريخ واللغة ودراسات الاجتماع والاقتصاد والدين والأخلاق إلا مضيت أبحث فيه عن الأصالة وأكشف عن الزيف وأصحح المفاهيم وأحرر القيم، لا أزكي على الله أحداً فقد كنت واحداً مغموراً من جيل جديد من الدعاة إلى الله كلهم أشد قوة مني وأعظم أثراً ولكني تابعت طريقهم فلم أتوقف داعياً إلى الخروج من التبعية إلى الأصالة ومن التقليد إلى الرشد الفكري فنرجو أن يجعل الله لنا أجر العاملين وقد مضى إلى الله تبارك وتعالى منهم أعلام كنا خلف خطوهم وبقي أعلام منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً.

● **أعمالكم العلمية: المحاور وأبرز المؤلفات في كل محور:**

كانت الأعمال العلمية استجابة للتحدي، فقد جاءت كتابة تاريخ الأدب العربي المعاصر في مواجهة الكتابات الإقليمية، التي تقول بأدب مصري وأدب شامي وهكذا فأحببت أن أقدم الأدب العربي في الوطن العربي كله وحدة واحدة.

وكذلك كانت هناك صيحة تسأل أين أعلامنا وأين أبطالنا المعاصرين في كل الميادين: ومن ثم فقد حاولت أن أقدم موسوعة كاملة لأعلام الأدب وأخرى لأعلام أطلقت عليهم (أعلام وأصحاب أقلام) ومجموعة أخرى لقادة الحركات الوطنية والقومية وزعماء الطب والقانون والاقتصاد والبيان واللغة.

أما الأدب فقد كانت [موسوعة معالم الأدب العربي المعاصر]، تضم أعلام النثر، والشعر، والقصة، واللغة، والترجمة، وأدب المرأة، وكانت دراستي (خصائص الأدب العربي في مواجهة المذاهب الوافدة) عصارة عملي كله في هذا المجال.

وكذلك حاولت أن أقدم دراسة موجزة لتاريخ الإسلام كله، عندما سألني صديق عما إذا كانت توجد مثل هذه الدراسة المتحررة من قيود الدول والعصور وتقسيمات البلاد والأفكار وقد كانت هذه المحاولة كتابي (الإسلام وحركة التاريخ).

ثم كانت (معلمة الإسلام) التي قدرنا أن تضم ٩٩ مصطلحاً من المصطلحات المنثورة الآن في مجال الثقافة من خلال وجهة نظر الإسلام إليها.

وهناك دراسات حول التبشير والاستشراق ومحاولات التغريب والغزو الثقافي والشبهات المثارة في مختلف ميادين السياسة والاقتصاد والاجتماع نرجو أن تكتمل في إطار منهج كامل جامع.

والله وحده هو القادر على تحقيق الرجاء ولا أستطيع أن أقول إلا أن هذا العمل هو من نتاج الفكر الإسلامي الأصيل وكل ميزة لي في هذا أني استطعت تنسيقه وترتيبه وصياغته على نحو عصري وهذا وحده هو عملي أما عصارة هذا التراث فهي من عطاء أعلام الفكر الإسلامي قديماً وحديثاً.

● الهدف هو ١ ـ إخراج المسلمين من التبعية للفكر الغربي أو الوافد أو أي أسلوب غير أسلوب الإسلام وخاصة وقد افتتن الناس بأسلوب العيش الغربي الذي يستهدف إخراجهم من ذاتيتهم الخاصة ويصهرهم في بوتقة الأممية فتضيع ميزتهم التي ميزهم بها الإسلام.

٢ ـ كشف الزيف الذي حاول الاستشراق ودعاة التغريب بثه في النفس المسلمة خلال سنوات طويلة عن طريق الصحافة وأجهزة الإعلام من دعوى عريضة بعظمة الحضارة الغربية وأنها المنطلق الوحيد للمسلمين لبناء مجتمعهم بينما تؤكد كل الدلائل والوقائع أن الهزائم التي توالت على المسلمين في الخمسين سنة الأخيرة (نكبة ونكسة وهزيمة) كانت تتجه إلى قبول هذه الخدعة، فضلاً عما تكشف من سقوط الحضارة الغربية في مجتمعها سقوطاً لا قيام بعده، وكيف أن المصلحين الغربيين يتطلعون اليوم إلى نظام جديد بعد أن فشل كلا النظامين الرأسمالي والماركسي في تحقيق أشواق الإنسان وأن هناك في الغرب الآن من يتطلع في كثير من الأمل إلى أن الإسلام هو المنهج الذي يستطيع أن يحقق للبشرية ما تطمح إليه فكيف يقول الغربيون هذا بينما أصحاب هذا المنهج مخدوعون يتطلعون إلى فتات موائد الأمم، وغارقون في تبعية ذليلة وإعجاب كاذب بحضارة منهارة، كذلك فإن عشرات من الكتاب في الغرب نفسه قد كشفوا اليوم بصدق عن الدور العظيم الذي قام به الإسلام بعد أن قدم لهم المنهج العلمي التجريبي الذي قامت عليه الحضارة المعاصرة، وقد جاءت إشادات عريضة بالشريعة الإسلامية أغلب جامعاتنا ومدارسنا تقدم لأبنائنا نظريات الغرب المدحوضة (داروين وفرويد وماركس) على أنها علم أصيل، وعلوم الغرب التجريبية على أنها من صنع الغرب وحده، وأنه لا أولية للمسلمين فيها.

وأن المسلمين ليس لهم في العصر الحاضر وجهة نظر في كل هذه العلوم والمناهج الاجتماعية ودراسات السياسة والاقتصاد والتربية، بينما أن التاريخ يشهد بأن جذور هذه العلوم كلها بدأت من عند المسلمين، هذا فضلاً عن أن العلوم البشرية التي حاول الغرب تطبيقها ونقلها إلى أفق المجتمع الإسلامي قد أثبتت فشلها وعجزها عن العطاء، وبينما يحدث هذا يتجاهل

الفكر الغربي أن للمسلمين منهج حياة جامع شامل، وأنه جماع الدنيا والآخرة والعقل والقلب، والعلم والروح وليس منهجاً انشطارياً وأن للمسلمين أسلوب عيش متميز وإن كل ما ينقصهم هو نقل التكنولوجيا والعلوم التجريبية التي قدموها هم للغرب في يسر في أول النضهة بينما الغرب الآن يحول دون إعادتها إليهم، ولقد كان ضرورياً أن نكشف لبني قومنا مدى الخطر الذي يواجه الذاتية الإسلامية التي صنعها الإسلام لتكون متميزة مستقلة، عن جميع طوابع الأمم، وحتى تحمل أمانة تبليغ الإسلام للعالمين، هذه الذاتية التي تتعرض اليوم تحت ضغط النفوذ الغربي الرأسمالي والماركسية والصهيونية لمحاولة تزييفها واحتوائها والقضاء عليها، وصهر المسلمين في البوتقة العلمانية المادية الأممية، وهذا أخطر ما تعرضت له الشخصية الإسلامية في عصر من العصور (بل لا نبالغ إذا قلنا إنها أخطر من حملات الحروب الصليبية والتتار والباطنية في القرون السابقة) وليس هناك من سبيل لدفع الخطر وحماية البيضة من التماس مفهوم الإسلام الصحيح الذي يقوم على التوحيد الخالص والإخاء الإنساني وإحياء مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة مفهوم الجهاد الإسلامي؛ تلك الشريعة الماضية إلى يوم القيامة لا بد من التماس هذا المنهج والتذكير الدائم بالخطر الماحق الذي يواجه الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي نتيجة لمؤامرات التغريب والشعوبية والغزو الثقافي التي تغير جلدها بين كل حين وتلبس لبوساً مغايراً لخداع الأجيال الجديدة.

● أعتقد أن هذه هي الأمانة التي أحملها ويحملها معي عدد كبير من كتاب الإسلام ومفكريه في هذه المرحلة الخطيرة من حياة أمتنا، مرحلة استهلال القرن الخامس عشر الهجري الذي يتطلع المسلمون فيه إلى نصر كنصر بدر إن شاء الله، وهي أمانة يجب أن نحملها دون ملل أو تقاعس مرابطة في سبيل إعلاء كلمة الله وإيماناً بحقه تبارك وتعالى على كل صاحب قلم وصاحب علم مما علمه الله، وعلى الدعاة إلى الله إن يثبتوا في هذه المعركة وأن يخلصوا وجوههم لله، وأن ينكروا ذواتهم وأن يلتمسوا أخلاق المجاهدين الذين سبقوا على الطريق وأن يجعلوا من أقلامهم سناناً فاتكة تقتل الشبهات

والسموم والتحديات التي تواجه الإسلام وفكره ولغته في محاولة لتغريبه واحتوائه.

وأعتقد أن الدعاة إلى الله ملتزمون بأشياء كثيرة:

ملتزمون أساساً في أنفسهم وبيوتهم بمفاهيم الإسلام، وأن لا تكون الكتابة الإسلامية تجارة أو مغنم، وأن يؤمنوا بأن الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع، وأن المسلم ملتزم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأن الإسلام ليس فكراً أو فلسفة ولكنه دعوة وأن كتاباتهم يجب أن تخاطب العقول والقلوب معاً، وأن لا تكون تفسيرات الإسلام وتأويلاته في سبيل غاية من الدنيا أو إرضاء لكبير أو تبريراً لواقع أو إقراراً للرخص دون العزائم فإن الرخص لا تبني الأمم.

وأن لا تحمل الدعوة إلى الله طابع العنف أو الشدة أو التعصب أو التماس مذاهب الغلو، بل تكون يسيرة كريمة سمحة، تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة وتقبل بأدنى درجة من الإيمان ثم ترتقي بالفرد حتى يصل إلى ذروة الإيمان وأن لا ينفصل الدعاة إلى الله عن المجتمع، ولا يرفضون، بل يأخذون الأمور من حيث يبدأ الإصلاح يسيراً ينمو مع الزمن ويرتفع مع الأيام حتى يبلغ الغاية.

هذا وبالله التوفيق.

الفهرس

الموضوع	الصفحة